


الدكتور بلقاسم الحناشي

# الحركات التبشيرية

## في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

تقديم

الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي

منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات

زغوان 1989

A2 100

#32

# الحركات التبشيرية

## في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

انجز هذا العمل في نطاق رسالة دكتوراه تحت اشراف الأستاذ عبد الجليل التميمي ونوقشت بكلية العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة لجامعة تونس الأولى بتاريخ 22 فيفري 1982 .

Printed in Tunisia

504

منشـــورات
مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريكسية والتوثيق والمعلومـــات

المدير المسؤول
أ.د. عبد الجليل التميمي

انشئ هذا المركز منذ أربع سنوات بمدينة زغوان من طرف د. عبد الجليل التميمي ، الاستاذ بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية لجامعة تونس. ومن أهدافه :

- انشاء مركز معلومات تاريخية عثمانية وموريسكية وتوثيق ومعلومات وقاعدة بيانات للارشادات البيبلوغرافية بالموضوعات السالفة الذكر.

-انشاء مكتبة متخصصة في هذه الاختصاصات الحيوية من المعرفة وقد افتتحت في ربيع هاته السنة.

- القيام بالدراسات والبحوث والنشر في مجال الدراسات العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات والارشيف . (راجع قائمة منشورات ص 4).

- لرساء تعاون علمي بين الباحثين العرب والاتراك والاسبان وكل المتخصصين الدوليين الذين يشاركوننا هذا الاختصاص.

- يشرف المركز على نشر دورتين أكادميتين هما : المجلة التارخية المغربية التي بدأت صدورها منذ سنة 1974 وصدر منها العدد 54 عددا. والمجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية (تحصلنا على الرخصة بصدورها قبل شهرين . ويتوقع ظهور العدد الاول في صيف 1989).

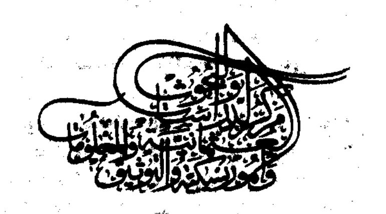
نظم سبع مؤتمرات دولية منتظمة تجمع أهم المتخصصين العرب والدوليين حول الدراسات العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات.

---



---

(ISBN 9973 - 719 - 05 - 0 ك. ك. ت. م)



الدكتور بلقاسم الحناشي

# الحركات التبشيرية

## في المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

تقديم

الأستاذ الدكتور عبد الجليل التميمي

---

منشـــورات

مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريكسية والتوثيق والمعلومـــات

# منشـــورات المركـــز

- المجلة التاريخية المغربية ، صدر منها منذ انشائها (1974) ، 54 عددا .
- د. عبد الجليل التميمي ، بايلك قسنطينة والحاج أحمد باي 1830 ـ 1837 ، 303 ص + 24 رسما ، تونس ، 1978 .
- د. عبد الجليل التميمي ، موجز الدفاتر العربية والتركية بالجزائر ، 116 ص ، تونس 1979
- د. عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، الجزائر ، تونس وليبيا (1816 ـ 1871) 208 ص ، الطبعة الثانية تونس ، 1980 .
- دومينيك مونيي ، القنصلية الانقليزية بتطوان اثناء تول اوتوني هتفيد (1717 ـ 1728) 112 ص ، تونس ، 1980 .
- د. عبد الجليل التميمي ، وثيقة عن الاملاك المحبسة باسم الجامع الاعظم بمدينة الجزائر ، 92 ص ، تونس 1980 .
- شانتال دو لافارون ، مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الاقصى في القرن الثامن عشر . 118 ص ، ج 1 ، تونس 1981 .
- د. عبد الجليل التميمي ، الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا خلال العصر الحديث ، 80 ص ، تونس ، 1981 .
- د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517 ـ ج 2 ، 128 ص ، تونس ، 1983 .
- شانتال دو لافارون ، مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الاقصى في القرن الثامن عشر ، ج 2 ، 128 ص ، تونس ، 1983
- د. لوي كارديال ، الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ، تعريب د. عبد الجليل التميمي ، 196 ص ، تونس ، 1983 ، الطبعة الثانية تونس ، 1980
- الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني ، مع اقامة فهارس لهـا ، 610 ص ، تونس ، 1984 (القسم العربي) ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، زغوان 1984 .
- الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني (القسم الفرنسي والانقليزي) 412 ص ، تونس ، 1984 . جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي زغوان ، 1984 .
- د. ع. التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، الطبعة الثانية ، 256 ص ، زغوان 1985
- الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني ، 3 أجزاء ، 970 ص. جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، زغوان ، 1986 .
- أعمال مؤتمر اللجنة العالمية للدراسات العثمانية المنعقد بكامبريدج سنة 1984 ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، 183 ص ، زغوان ، 1987 .
- د. ص. بوبكر ، أيالة تونس في القرن السابع عشر وعلاقاتها الاقتصادية مع موانئ البحر الابيض المتوسط : مرسيليا وليفورنة (بالفرنسية) زغوان ، 1988 .
- الحياة الاجتماعية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني 3 أجزاء ، 1068 ص ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، تونس ، 1988
- د. شانتال دولافارون ، مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الاقصى في القرن الثامن عشر ج. 3 ، 132 ص ، زغوان 1988 .
- د. عبد الجليل التميمي ، فهرس المجلة التاريخية المغربية من العدد 1 الى 50 ، 402 ص زغوان ، 1988 .
- تطبيق الموريسكيين الاندلسيين للشعائر الاسلامية (1492 ـ 1609) (النص الاسباني والفرنسي) تحت اشراف د. عبد الجليل التميمي ، 200 ص زغوان 1989 .
- د. بلقاسم المناشي ، الحركات التبشيرية في المغرب الاقصى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

## تحـت الطبـع

- د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، وثائق المغاربة من سجلات المحاكم الشرعية المصرية ابان العصر العثماني ، الجزء الاول .
- المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، العدد الاول .
- لوت لوبازبارلد ، صورة الاسلام في الادب الاسباني من خوان رويز الى خوان قوايتصلا تعريب د. نجيب بن جميع .
- الحياة الفكرية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني (ثلاثة اجزاء)

---

تطلب هاته الكتب على العنوان التالي ، ص ب 50 ، زغوان (1118) ، ج. التونسية .

I-A
0411705

# الفهـــرس العـــام

| الصفحـــة | المحـــاور |
|---|---|

# تقديـــم

د. عبد الجليل التميمي

عندما دعيت للمشاركة في المؤتمر الاسلامي ــ المسيحي الأول الذي عقد في قرطبة سنة 1974 ، ترددت للاستجابة لذلك ، وهذا انطلاقا من موقعي كمؤرخ يرى ويدرس القضايا التاريخية بمنهجية علمية بحتة . غير أنني استجبت لتلك الدعوة لعدة أسباب ، لعل أهمها هو حرصي على معرفة الخلفيات التي تحرك جميع الأطراف لتنظيم مثل هذه اللقاءات الاسلامية ــ المسيحية .

ومن موقعي كمؤرخ ، كان علي أن أقدم بحثا أتناول فيه قضية تاريخية معينة . ولم أجد يومها أفضل من دراسة موضوع : دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس 1831ــ1881 مستعينا في ذلك بمجموعة من الوثائق التاريخية التي عثرت عليها في الأرشيف الوطني التونسي . وعلى الرغم من الرؤية المنهجية التي تناولت بها دراسة هذا الموضوع ، فإنني انتقدت ، شديد الانتقاد من طرف المسلمين والمسيحيين على حد سواء لطرقي لهذا الموضوع الذي كشف عن نيات جميع الأطراف في مثل هذه المبادرات واللقاءات .

لقد كان هدفي الأساسي عندما تعرضت لفلسفة وخلفيات الحركة التبشيرية بتونس ، هو العمل أولا على التعرف على سلبيات الماضي واستنكارها ورفضها جملة وتفصيلا والتهيئ إلى بناء علاقات جديدة أساسها التعاون والتكامل والتفاهم النوعي لخاصيات هاتين الديانتين السماويتين لمستقبل الانسانية على الاطلاق .

وقد استمر حرصي شديدا على تأطير منهجي لقضايا التبشير في المغرب العربي ، بعيدا عن الشعـارات والتهييج والتهميش المعرفـي والألفاظ الرنـانة الجوفـاء والتي أساءت ومازالت تسيء إلى الاشكالية العامة للحوار الاسلامي ــ المسيحي ، ذلك أن المنهجية في طرق مثل هذه المسائل الدقيقة مازالت تحوجنا وعدم التعرف على الخلفيات قد أضعف إلى درجة كبيرة نتائج هذا الحوار الاسلامي ــ المسيحي ــ والذي كان يدور بين قلة مختارة من مثقفي العالم الاسلامي والمسيحي ، وحيث بقي تأثيرهم محدودا جدا عبر جميع المستويات .

وفي هذا النطاق وحرصا على تجذير المعرفة التاريخية حول قضايا التبشير بالمغرب العربي ، يسعدني أن أقدم اليوم هذه الرسالة الجامعية التي أنجزها الباحث بلقاسم الحناشي ، تحت اشرافي في كلية العلوم الانسانية والاجتماعية لجامعة تونس الأولى .

ولا أكتم القارىء سرا ، إن بحت له بأني عندما اقترحت على الأستاذ الحناشي تناول هذا الموضوع الدقيق ، كنت أعلم جيدا مدى دقة وحرج هذا الموضوع والصعوبات الجمة التي سوف تعترضه خاصة وأن وثائقه الأولى محتفظة بها في الارشيفات السرية للبعثات التبشيرية . إلا أن الأستاذ الحناشي أظهر تعلقا بهذا الموضوع وصبرا وعناية نادرين في جمع الوثائق والمعلومات والقيام بعديد المراسلات والاتصالات بالشخصيات الاسلامية والمسيحية والسفر إلى عدة دول متوسطية وهذا ما مكنه أن يطلع على أرصدة هامة من الوثائق والمخطوطات والمراجع والصحف ، قل أن يوفق فيها غيره ، وهذا ما جعلني أطمئن تماما إلى الاشكالية التاريخية التي سوف يتبعها في مثل هذا الموضوع التاريخي الغائب الحاضر في حياتنا اليومية والدينية والسياسية والثقافية — الحضارية .

ولا شك لدي أن القارىء أي قارىء ، اسلاميا كان أو مسيحيا لهذه الرسالة الجامعية سوف يمدح د. بلقاسم الحناشي لصراحته واعتداله ورؤيته المنهجية الموثقة وهو الأمر الذي يميز العمل العلمي المرجعي من غيره من الأعمال السريعة والتي تنكرت لأبسط قواعد التأليف العلمي ، مؤملا أن يحظى هذا العمل الذي جمع فيه د. الحناشي بين البحث التاريخي الموثق الصبور والأمانة العلمية باهتمام نوعي من طرف القارىء المغربي والعربي — الاسلامي عامة ، باعتبار أن هذا العمل يعد اليوم أحد المراجع المهمة والتي سدت فراغا معيبا في مكتبتنا التاريخية والتي لا يمكن لأي باحث أن يستغني عنه إذا ما رام دراسة تاريخ المغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ونشر هذه الدراسة الجامعية في نطاق أنشطة مركزنا يترجم عن الاهتمام البالغ الذي نوليه لجيل المؤرخين الشبان العرب والذي يتوقف عليه مستقبل البحث التاريخي ، وتلك هي أمانة التواصل العلمي والحضاري .

زغوان في 25 جوان 1989 — د. عبد الجليل التميمي

# منهجية البحث

ركّز هذا العمل على عوامل الغزو العقائدي الاستعماري . وهي عناصر متكاملة ومتداخلة «مزقت المغرب إلى مجموعة دول وأقاليم حسب التبعية ونوع التبعية» [1] واعتمدتُ ، بالإضافة إلى المصادر والمراجع العربية والفرنسية والانقليزية — وان كان بعضها لا يجود إلّا بالنزر القليل — على بعض البحوث والدراسات التي نشرت بالإسبانية أو الألمانية .

ولم أكتف بالمكتوب من المصادر والمراجع أو ما ترجم منها . بل حاولت الاتصال ببعض المبشرين وزيارة مؤسساتهم[2] . وراسلت البعض الآخر ، وحضرت بعض حلقات الدروس[3] . ولم يخل هذا المجهود من الصعوبات ، إذ اصطدمت بجملة من مظاهر الجفاء والتضبيب وما إلى ذلك من عوامل التنفير . واستفدت بالكثير من أساتذة[4] محترمين بالمغرب الأقصى ومن مؤلفاتهم . فإليهم وإلى كل من ساهم في مساعدتي تشكراتي الصادقة وتقديراتي الخالصة .

---

(1) غلاب (عبد الكريم):
تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية الى اعلان الاستقلال ، ج 1 الشركة المغربية للطبع والنشر ، الدار البيضاء 1976 ص 13 .

(2) في باريس :

— Les Missiones africaines, 36 Rue Michel Hidalgo — Paris 19e
— Les Pères Blancs, 5 Rue Roger Verlhomme, Paris 3e
— Syndicat des Missiones afrianes et Mission populaire évangilique, 127 Rue Marcadet, Paris 18e

في تونس :

— I.B.L.A
— Prélature de la Cathédrale de Tunis, Rue d'Alger, Tunis.

في المغرب :

— Maison des Dominicains, Rue Fontainebleau, Casablanca

(3) أهمها لقاء حول «التيارات الفكرية الاسلامية» أشرف عليه الأب كاسبار R. Caspar في المهدية (تونس) بتاريخ 20 جوان 1980 .

(4) أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : الاستاذ محمد المنوني ، الدكتور محمد حّجي ، محمد الخطابي ، استاذ عبد الله كنون ، محمد المكي الناصري ، الشيخ أحمد معنينو ، الأستاذ جرمان عياش .

وإذا كنت مدينا بالكثير إلى من وقف وراء بحثي ، فإنّي أجد نفسي عاجزا عن شكر الأستاذ عبد الجليل التميمي الذي أشرف على هذا البحث ومدني بما أمكن .

## أ ـ الزيارات الدراسية :

1 ـ فرنسا : جمعت منها المراجع العامة والخاصة واطلعت على بعض ما كتبه مؤرخو القرن التاسع عشر من كتب مراجعة وبيبليوغرافيا ودراسات تبشيرية في مجلات تاريخية . ولم أتمكن من الاطلاع على المراسلات والتقارير والتعليمات السياسية إذ ذلك يستلزم للاطلاع عليها رخصة دراسيّة خاصة .

وقد أغلقت مراكز التبشير أبواب مكتباتها أمامي ، بتعلة غياب المسؤولين وحفاظ المكتبات . وطلب منّي المراسلة لتمكيني من الوثائق المسموح بها . وبمراسلتي الأب ميشال للون (M. Lelong) المسؤول عن العلاقات الإسلامية ـ المسيحية بشمال إفريقيا ، وجهني إلى مكتبة الآباء البيض بتونس أو بمراسلة دور التبشير بالمغرب . وهؤلاء أيضا وضعوا في طريقي حواجز ومتاهات كخلو مكتباتهم من الوثائق التي تهم بحثي .

وفي المكتبة الوطنية بباريس توجد مصادر ومراجع تتعلق بالتبشير وفي مجاميع مرقمة من 5 إلى 882 ، في رفوف تابعة لكل ما يتصل بالمغرب (Morrokko) .

ومن أمثلة ما اطلعت عليه :

— **Réflexions historiques sur l'Empire Ottoman**, Ch. L. Baix, Paris, Belin 1802

وهو جملة ملاحظات الأب سيكار (P. Sicard) حول مصر القديمة والحضور العثماني المعاصر .

— **Mémoire de Thibault de Chanvalan** Saint-Denis, 1941-1944.

في هذا الكتاب وثائق تاريخية تتعلق بالاستعمار الفرنسي منذ سنة 1804 م .

— **Missionnaires et administrateurs en Afrique**, Charles, S.J. Louvain 1929.

ورقات تعكس السياسة الإستعمارية ، ومأخوذة من فصول كتب ومجلات ونشريات مختلفة ، ترجع إلى سنة 1816 م.

— **Histoire complète des voyages et découvertes en Afrique depuis les siècles les plus reculés jusqu'à nos jours.**

Hugh Murray et le Dr. Leydon.

Arthur Bertrand, sans date, traduit de l'Anglais.

يضمّ الكتاب موجزا جغرافيا للقارة الإفريقية والجزر المحيطة بها ، وملاحظات حول الحالة المادية والأخلاقية والسياسية لمختلف الشعوب . وفي الكتاب ملحق تاريخي لأهم المكتشفات وسبعة خرائط جغافية ، وكل معلومات الكتاب تعود إلى سنة 1822 م وما قبلها .

— **Le Cri des Africains Contre les Européens, leurs oppresseurs,** Charkson Londres 1922

كتيب ، مترجم عن الانقليزية، يروي نظرة الاروبيين لتجارة العبيد .

— **Quelques lettres de la vulnérable Anne-Marie Javouhay,** Paris 1925

مجموعة رسائل نشرت في مجلة «تاريخ الأرساليات التبشرية». وكونت هذه الرسائل كتابا ضخما يحتوي على 584 ص.

— **Le Christianisme sur la côte barbaresque jusqu'au XIX siècle** G. Goyau, **Paris, 1930.**

مقتطفات وتحاليل لنصوص أخذت من مجلة «تاريخ الأرساليات التبشيرية» جمعها وعقّب عليها المؤلف . وتتعلق الدراسة بمرحلة ما قبل سنة 1831 م .

— **Lettre pastorale aux fidèles et prêtres répandus dans le rayoume du Maroc** Guillon, Paris, 1936

رسالة تقدير وشكر لجهود نصارى المغرب الأقصى ، بعث بها الأسقف ماري نيكولا سلفاستر (Silvestre, Marie-Nicolas) سنة 1836 م.

— **Missions en Afrique.** Alger 1839

جمع تبويب أبرشية الجزائر (Diocèse d'Alger) لما كتب في «حوليات جمعية الدعوة المسيحية» العدد 11 لسنة 1839 ، وكوّنت هذه التقارير كتابا ضخما من الحجم الكبير يحتوي على 642 ص .

— *De l'abolition de l'esclavage ancien, en Occident,* Edouard Biot, Jules Renouard et Compagnie, Paris 1840.

عرض الحلول للقضاء على تجارة العبيد. ونال هذا الكتاب الميداليّة الذهبية من أكاديمية العلوم والأخلاق بفرنسا . ويحتوي الكتاب على 449 ص .

— **Notes et documents relatifs à la vie et l'œuvre du vénérable François-Marie-Paul Libermann.** Maison mère, Paris 1927.

في الكتاب عرض لحياة القديس ليبرمان : طفولته وتربيته .. وإيمانه بالمسيحية وتخلصه للرهبنة في سنة 1802 م إلى سنة 1826 م. وضمّت فهارس وملاحق للكتاب .

— *Des relations de la France avec l'Empire du Maroc,* Thomassy. Paris 1840.

ملف به عدة وثائق ومخطوطات مصورة ، تتصل بتاريخ المغرب الأقصى وجغرافيته في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

— **Missions d'Afrique, Diocèse d'Alger Lyon, 1841.**

كتاب مجهول المؤلف به فصول كثيرة من مجلة «حوليات جمعية الدعوة المسيحية» . والكتاب يحتوي على 511 ص .

— **Histoire religieuse, politique et littéraire de la Compagne de Jésus...,** Jacques Crétineau-Joly, Paris, 1844.

عرض لجهود المبشرين والسياسيين في أقطار مختلفة من إفريقيا وآسيا وأمريكا .

وثمّة معلومات هامة جدًا وبلغات أروبية مختلفة ، محفوظة في «ملفات سرية» ومرتبة حسب الحروف الأبجدية اللاتينية، لمختلف بلدان العالم. يمكن الاطلاع عليها ولا يمكن تصويرها أو نسخها .

هذه الملفات توجد بالمكتبة الوطنية بباريس .

2 — **المغرب** : كانت زيارتي للمغرب هامة لِما عثرت عليه من وثائق مفيدة ، سواء في **الخزانة الملكية** أو في **دار الوثائق العامة** أو في **المكتبات الخاصة** التي هي على ملك أناس أجلاء ومؤرخين يخدمون الثقافة باعتبارها جزءًا من حياتهم . ورغم صعوبة البحث لاختلاط التبويب وتداخل الرّموز ، توجد في الخزانة الملكيّة ، مصادر أصليّة ، وبعضها بلهجة محلية[5] ، أخذت منها ما استطعت بالترجمة وبالتلخيص بحسب الأهميّة مع الاحتفاظ برقم المجلّد والصفحة التي نقلت أو ترجمت أو اقتبست عنها .

في **دار الدومنيكيين** — بالدار البيضاء — توجد وثائق على غاية من الأهمية وتتعلق بالحركات التبشرية (تقارير — مراسلات — مصادر — مراجع...) ولم أتمكن من نسخ أو الاطلاع على كل ما رغبت فيه ، رغم مساعدة حافظ المكتبة[6] ، إذ اعترض سبيلي أحد

(5) مكنني الأستاذ محمد المنوني من مخطوطة من مكتبته الخاصة بلهجة مغربية لمؤلف مجهول الاسم تحتوي على عرض مطول وشامل لأحداث القرن التاسع عشر . ولا تتعلق بالمغرب فحسب بل يشمل حديثها القارات الخمس. جمعت منها مادة فريدة لم يسبق نشرها ، بعضها يؤيد ما عندي من الوثائق ويضيف ويوضح ما لم يكن معروفا .

(6) الأب ميشال بارازوت (**P. Michel Parasote**) .

الأساتذة الفرنسيين[7] ووصف هذا النوع من البحث بالغرابة والفشل . ومن ثمة تراجع حافظ المكتبة حتى لا يخالف التراتيب والقوانين «السريّة» المعمول بها في دور التبشير . ولما كان البحث يَمْتَدُّ على طول نصف قرن ويعالج مرحلتين متكاملتين : مرحلة الحركات التبشيريّة التي مهّدت للاستعمار ومرحلة التنافس الاستعماري الأوروبي على المغرب ، فان الاهتمام بأوجه الشبه لاستعمار الأقاليم الثلاثة لشمال افريقيا يكوّن أرضية هذه الدراسة . ذلك أن محاولة الكشف عن حقائق التبشير في منطقة واحدة قد لا يحيط بجوانب الموضوع .

## ب ـــ المراسـلات :

تقتضي الأمانة العلمية التنويه بكل المساعدات التي تدخل في إثراء هذا البحث . وتتباين المواقف فبعض الردود على طلباتي عنشمة فاترة وبعضها تغلب عليه صفة الغموض إن لم يكن رفضا في أغلب الحالات : يعتقد الأستاذ الجان كلود بيري (سويسرا) (J. Claude Perret) «أن هذا البحث عديم الجدوى» . وتنكر الآباء دميان(P. Damien) من فرنسا ، وأوفري(P.J.B. Offret) من المغرب وأستاذ التاريخ الأب لوريدو (P.R Louridot) من المغرب أيضا ، لوجود وثائق حول الموضوع . في حين تشير الدراسات المطبوعة «أنه يحتفظ في خزائن المبشرين بكل ما يتعلق بالتبشير»[8] . وسلكت الأختان دو طونقتيك (De Tonquedec) وسوتي (Sautet) نفس المنهاج الذي سلكه الأب ميشال للون (P. Michel Lelong) في إعطائي عناوين بطريقة ملتوية أو توجيهي الى مكتبات دور التبشير التي أقفلت أبوابها أمامي .

وأجهل كيف تمكن بعض المبشرين من التعرّف على عنواني ، فراسلوني من لبنان ومن فرنسا ومن السودان ومن بلجيكا ومن المغرب الأقصى... وفي مراسلاتهم وجهوا إليّ هذه الكتيبات[9] وكان الهدف واضحا من ذلك :

— D. Rhothon **Combien pour cet homme moderne**, ed. de la littérature biblique, Belgique (s.d.), 30 P.

— W-H Woodson **Le dilemne de l'homme moderne**, ed. de la littérature biblique, Belgique (s.d), 20 P.

---

(7) ـ الأستاذ مارتيني (Martinet)

(8) (أنظر) .

— Miège J.L., Expansion Européenne et déconolisation de 1870 à nos jours. P.U.F Paris 1973 pp 9 à 46.

— د. مصطفى الخالدي و د. عمر فروخ . التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين التي ترمي الى اخضاع الشرق للاستعمار الغربي ، المكتبة العصرية ، صيدا بيروت 1970 من ص 15 إلى 19 .

(9) اكتفيت ببعض النماذج وراعيت في ترتيبها تاريخ وصولها اليّ .

— P. de Beaumont **Les quatre Evangiles** Fayard Mame, 1968,444 P.

— Daniel Pezeril **Aujourd'hui Jésus** éd. Seuil, Paris 1964,75 P.

— **Quel Livre ! La Bible, connaissez-vous ce livre extraordinaire qui défie les siècles?** Les sociétés bibliques, 1964, 30 P.

ـ اسكندر جديد ، **شكرا لله الذي يعطينا الغلبة بربنا يسوع المسيح** مركز الشبيبة ، بازل سويسرا ـ بدون تاريخ 31 ص .

**البهلـول** بيروت لبنان، بدون تاريخ 22 ص .

ـ مؤلف مجهول الاسم **الحياة اليومية**(10) 52 ص .

ـ مؤلف مجهول الاسم **يسوع منجي العالم**(11) 64 ص .

ـ **إنجيل لوقا** 236 ص (24 فصلا) .

ـ **إنجيل متى** 230 ص (28 فصلا) .

هذه نماذج من الكتيبات الدعائية(12) وكلها خرافية وبأسلوب حماسي .
(ومع البساطة والاستهتار ، للكتيبات أكثر من معنى ، ففيها :

ـ عنصرية وقيادة وتوجيه .

ـ دعاية وتهديد وتخويف وسيطرة .

ـ خنق للأصوات المجاهرة بالحقيقة .

ـ تجهيل بالخرافة والأسطورة .

---

(10) ورد في هذا الكتاب من المغرب الأقصى ومعه نشرة تمهيدية منها :
«... هذا الكتاب هو كلمة الله وإعلان حقه . وإننا ننصحوك (كذا) بكل قوتنا أن تنال الكتاب المقدس وتقرأه باهتمام لأنك توجد (كذا) فيه طريق الخلاص والسعادة الأبدية ...» .

(11) يحتوي الكتاب على جملة من الخرافات باللهجة الدارجة المغربية .

(12) أوردت صحيفة «الميثاق» المغربية ردودا هامة على المبشرين وانتقدت جهودهم في الأعداد التالية :

| العدد | السنة | التاريخ |
|---|---|---|
| 72 | 6 | 26 غشت 1968 |
| 80 | 6 | 21 دجنبر 1968 |
| 81 | 6 | 4 يناير 1969 |
| 107 | 7 | 6 مارس 1970 |
| 108 | 7 | 23 مارس 1970 |
| 123 | 8 | 30 نوفمبر 1970 |
| 146 | 9 | 19 دجنبر 1971 |
| 176 | 10 | 9 أبريل 1974 |
| 288 | 15 | 14 يناير 1979 |
| 322 | 16 | 15 يونية 1980 |

— مساومة عقائدية .
— إشادة بالمدنية الغربية وفتح المجال للتأورب والتمسيح .
— أسلوب تحقير (لهجة عامية ...)
— ادعاء إحساني وإيحائي .

وقد قرأت لبعض المؤرخين ، وعرفت بعضهم ، وراسلت البعض الآخر . فزودني الأستاذ **عبد الله كنون** من طنجة — بمجموعة من الوثائق ، منها المطبوع ومنها المخطوط[13] . ووفر لي **عبد الرزاق كمون** — من صفاقس — بعض الدراسات[14] النادرة التي تتعلق بالبحث . فإلى كل من ساهم في مساعدتي تشكراتي وتقديراتي .

## ج — اللقـــاءات :

تعددت لقاءاتي مع **الأستاذ عبد الجليل التميمي** ، ولم يضنّ عليّ بنصيحة في توجيهي ، ويستجيب دائما لكل استفساراتي وتساؤلاتي . وكم من ملابسات اجتزتها بفضله فله كل اعترافاتي .

في المهدية ، بتاريخ 20 جوان 1980 م ، حضرت لقاء حول «التيارات الفكرية الإسلامية» نظمته الجالية المسيحية بالمكان ، وأشرف عليه الأب ر. كسبار . ويعتقد هذا الأخير أن «مظاهر التجديد في العالم الإسلامي محتشمة ، وأن الحركات الاصلاحية بداية من الحركة الوّهابية ، وحركة الأفغاني وعبده . إلى مجيء الثورة الإيرانية كلها سلفية فاشلة أي محافظة وجامدة ... يجب التجديد في الإسلام ذاته ، ولا يكون تجديدا إلا بالأخذ عن أوروبا ، والتخلي عن كل ما يعرقل الاقتصاد كالصلاة والصوم ... ولتأخذ المرأة مكانتها في المجتمع ... وليكن رجال الإصلاح كبعض التونسيين الذين فهموا المسيحية أكثر من المسيحيين أنفسهم وتطبعوا بتعاليمها مما يؤهلهم إلى التجديد ...»[15] .

وبتاريخ 29 جانفي 1981 م ، التقيت **بالشيخ أحمد معنينو** — الرباط — فكان موقفه مخالفا جدّا لموقف الأب كسبار ، إذ يعتقد أن «المسلم الحق هو من آمن بالرسالات

---

(13) مّدني الأستاذ كنون بمجموعة من مؤلفاته ، وأرسل لي جملة أعداد من جريدة «الميثاق» . ثم توّج مساهمته بمخطوطة (بدون تاريخ) بها إحصاءات رسمية (عن وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية) تتعلق بالمؤسسات التبشيرية وبنشاط المبشرين وطرق عملهم . والمخطوطة تحمل عنوان «دلالة التبشير» جمع وتحليل عبد الله كنون .

(14) مثل : — البعثات الفرنسيسكانية ، عن الموسوعة العربية الميسرة ص 1293-294 .
— البعثات الدومينيكية ، عن الموسوعة العربية الميسرة ص 821-822 .
— التبشيرية ، عن موسوعة السياسة ، بإشراف د. عبد الوهاب الكيالي ص 142 الى ص 147 .

(15) — Caspar (Robert); Mahdia le 20.01.1980: «Courants de la pensée islamique»

السماوية كلها ، بما فيها الجامدة[16] كاليهودية التي تعتبر العقيدة جزءا من كيانها ، والمتحركة التي تنتشر كالإسلام والمسيحية... والتبشير المسيحي بالمغرب الأقصى — أو في أي مكان — ما هو إلا تغطية استعمارية مهما كان أصله اسبانيا أو برتغاليا أو فرنسيا...»[17]

وبتوجيه من الأستاذ التيمي ، تمكنت من لقاء الأستاذ جرمان عياش (Germain Ayache) بتاريخ 1 فيفري 1981 م. ويطرح الأستاذ ج. عياش مسألة الحركات التبشيرية من وجهتها التاريخية : «... عملت الحركات التبشيرية على فتح المجال للسيطرة الاستعمارية ، إذ كان الرواد والجواسيس يعملون لحساب فرنسا وهم مبشرون ، أي استخدمت المسيحية لتهيئة الاحتلال . وفي النصف الثاني من القرن التاسع ، ظلّ المغرب الأقصى مسرحا لجهود المبشرين أمثال ش. دوفوكو الذي قال : « أملي أن أعطي هذا البلد للمسيح » .

تؤكد المواقف الثلاثة — وإن اختلفت — أنه بعنوان الإصلاح والتمدن قامت الحركات التبشيرية تخدم الاستعمار . وفي ذلك تفريق للذهنية الإسلامية بفصل الماضي عن الحاضر ، وتفتيت للشعور الوطني[18] . وفي هذا المجال يقول أبو الحسن الندوي في كتابه «رجال الدعوة والفكر» .

«شعروا بأن الإسلام لا ينهزم في ميدان الحرب . وأن المسلمين لا تصّح دعوتهم إلى الإلحاد السافر ، فإن هذا يلهب غيرتهم الدينية . لذلك اختاروا للوصول إلى هدفهم أسلوبا لا يزعج المسلمين ولا يثيرهم ... فاذا انقطعت .. الصلة بين الكلمات والمعنى . وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم معين ، تسرب الشك والاختلاف اليها[19] .

وفي نفس المعنى يعقّب الأستاذ عبد الوهاب بوحديبة عن رسالة المسيحية فيقول : «... إلا أننا نلاحظ أن المسيحيين والمؤسسات المسيحية لم تفك تضامنها مع القوى الإستعمارية والإمبريالية ... ذلك أنها لم تجد من الظروف التاريخية ما يسمح لها من الابتعاد عن المصالح الغربية إلا مؤخرا...»[20] .

---

(16) نفس التعبير استعمله علال الفاسي ، **التبشير المسيحي وبعض الوثنيات الطائفية الهندية** . سلسلة الجهاد الأكبر رقم 12 ، الرباط 1973 .

(17) بنفس الأسلوب كتب الشيخ أحمد معنينو مقالة في مجلة «**دعوة الحق**» عدد 3 سنة 14 ، أبريل مارس 1391 هـ ص 145 .

(18) — Ayache (Germain)**Etudes d'histoire marocaine** S.M.E.R., Rabat 1979 pp 177 et suivantes.

(19) عن أنور الجندي ،**الاسلام والدعوات الهدامة** دار الكتاب اللبناني — بيروت — 1974 ص 8 .

(20) الأستاذ عبد الوهاب بوحديبة ، رسالة **الأديان في العصر الحديث** ، محاضرة في الملتقى الاسلامي — المسيحي ، المسيحي ، سلسلة الدراسات الاسلامية 5 ، قرطاج ، الحمامات ، القيروان 11—17 نوفمبر 1974 ص ، 15 .

ولا سبيل إلى إحصاء ما كتبه المبشرون عن الشرق ولا عن العرب والإسلام ، فالمجلات التبشيرية التي صدرت بلغات مختلفة أكثر من أن يحصيها العد ، وثمة جرائد ومجلات سياسية أو أدبية أو علمية لا تظهر عليها صبغة التبشير ، ولكنّها في الحقيقة وسائل قوية من وسائل المبشرين . ومع هذا كله فليس في اللغة العربية مؤلف يعكس خطر المبشرين ، والثابت أن هؤلاء كونوا النواة الأولى لطلائع الاستعمار السياسي والاقتصادي . فالمؤسسات التبشيرية تبدو بعيدة عن التهمة كل البعد ، كالمدارس والمستشفيات والأندية ومؤسسات الإحسان . والمبشرون هم عيون بلادهم تمكين أممهم من السيطرة ولحمل غير الأروبيين على الرضا بالخضوع للمدنية الغربية[21] . ومن طبيعة هذه الحرب الباردة بين المسيحيين الأروبيين والمغاربة المسلمين ، مضايقة الفكر العقائدي — مسيحيا كان أو إسلاميا — وهو ما جعل بعض الكتابات والردود متميزة في أغلبها بطابع الرفض ، ويتجلى ذلك خاصة في كتابات أنور الجندي[22] .

## د — المجهـــود الشخصـــي .

لجمع مادة هذه الدراسة استحضرت عشرات من المراجع العربية والأجنبية ، وأكثرها تعرض عرضا سريعا في بعض فصولها دور الحركات التبشيرية . وتقلّ المؤلفات التي بحثت بحثا جذريًا متعمقا هذا الموضوع . فبدأ الموضوع يتطلب البحث في الدراسات الاجتماعية وجولات في التاريخ المعاصر والحديث عن أروبا المسيحية والمغرب الأقصى وما يتبع ذلك من معاهدات واتفاقيات وقوانين .

ومن الكتب والأبحاث ما أصبح المرجع الفصل في هذه الدراسة واحتلّ مكانة فريدة استعنت بها ونقلت عنها . ومن هذه المراجع «المجلة التاريخية المغربية»[23] إذ فيها أبحاث وتحاليل واستنتاجات على غاية من الأهمية والموضوعية وتتصل بالتاريخ المعاصر لشمال افريقيا . أما كتاب «التبشير والاستعمار في البلاد العربية...» للدكتورين مصطفى الخالدي وعمر فروخ فهو يستعرض جهود المبشرين في الشرق العربي وما تعلق منه بشمال

---

(21) د. مصطفى الخالدي ود. عمر فروخ ، التبشير والاستعمار ... المرجع نفسه ، صفحات 21، 22، 23، 24 .

(22) أنظر أنور الجندي — الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية
— الاسلام والعالم المعاصر ،
— الاسلام والدعوات الهدامة ،

(23) المجلة التاريخية المغربية (للعهد الحديث والمعاصر)، صدرت لأول مرة في شهر جانفي/كانون الثاني سنة 1974 م. وتصدر المجلة بالعربية والفرنسية والانقليزية . راجع قائمة الدوريات إثر هذا الفصل . حيث أثبتنا فيها كل الدراسات والوثائق التي رجعنا اليها .

افريقيا جاء على صيغة الشواهد واستلفات النظر[24] ومن المؤلفات العربية الأخرى «مظاهر يقظة المغرب الحديث»[25] الجزء الأول للأستاذ محمد المنوني . وليس من السهل أو الممكن تفضيل مؤلف على آخر إذا لم تراع الوحدة الزمانية والوحدة المكانية . وعلى هذا الأساس تبقى كل المراجع مفيدة . فبحوث جان لويس مياج(Jean Louis Miège)[4] و«تاريخ المغرب»[27] (Historia de Marruecos) للأب كاستيلانوس(Padre Castellanos) وغيرها كلها مراجع يكمل بعضها البعض ولو تضاربت أحيانا .

وباستقراء مادة هذا البحث تبدو أهمية الوثائق متفاوتة . والمصادر الأصلية (الأرشيف) لا تعكس الحقيقة إلا نسبيا . أما الروايات الشفوية فهي متغيّرة ومتأثرة بالاتجاهات الشخصية ويغلب عليها الطابع القصصي ، ما يجعلها عرضة للتحريف . وعندئذ يتسع هذا البحث بحسب الحقائق ويضيق مع الافتراضات . وفيما يرجع لتحديد الزمان والمكان ، فإن ذلك يفسّر بوضع أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، والآفاق التوسعية الاستعمارية . فقد عرفت هذه المرحلة نشاطات تبشيرية « قام بها عدد من رجال الدّين ، ولا سيما الأساقفة منهم ، وأيدها عدد من المسؤولين...»[28] وكانت توقّفت الحركة التبشيرية في أواخر القرن الثامن عشر بسبب أحداث الثورة الفرنسية التي وقفت ضدّ الكنيسة ، وعادت لتظهر من جديد في القرن التاسع عشر «أي أثناء الحركة الاستعمارية الاروبية العامة لتلعب دورها في احتلال الجزائر، وبلدان افريقيا عامة...[29]» وما كان التظهر بالدين إلا لكسب الشرعية الاستعمارية وللسيطرة على النّاس وجرهم إلى قبول التبعية .

وإذا «خصّ المؤرخون الغربيون ميدان التبشير بمئات الدراسات التي وقفوها في الأصل على تفكير رجال الدين المسيحي ونشاطهم التبشيري وأثيرت مواقف المسؤولين بعجالة لشرح

---

(24) التبشير والاستعمار .. المرجع نفسه صفحات 233 الى 246 الفصل الحادي عشر «حقائق من افرقية» .

(25) الطبعة الأولى ، مطبعة الأمنية ، الرباط 1973 .

(26) — Miège (J.L), — Expansion européenne... op cit., 414 p
— Le Maroc
P.U.F, Paris 1950, 126 p.
. — Le Maroc et l'Europe (1830-1894) t1 P.U.F., Paris 1961
— Documents d'histoire économique et sociale marocaine au XIX siècle Paris, 1969.

(27) — Castellanos (Padre), Historia de marruecos, Apéndice I
(Les Misiones Franciscanas en Marruecos).
Tanger 1898, pp 637-65

(28) د. عبد الجليل التيمي، «الفكر الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر» . المنشور في المجلة التاريخية المغربية عدد 1 ص 12 ، 13 تونس 1974 .

(29) خديجة بقطاش ، «التبشير في الجزائر من سنة 1830 الى 1871» ص 68 المنشور في مجلة الثقافة الجزائرية عدد 61 ، السنة 11 ، الجزائر 1981 .

الملابسات السياسيّة والأحداث التاريخية التي هيأت ظروف العمل التبشيري»[30] فإن جمع الوثائق المطبوع منها والمخطوط والتثبت في المراجع الأجنبية منها والعربية يكون دراسة صعبة ولا بدّ من التطرق إليها. وفي معرض استقراء علاقة المسيحيين بالمغرب الأقصى يبدو أن ضبط الحوافز التاريخية تقريبي ، لأن حصر تلك العلاقة يتداخل ويتكامل مع عناصر متجددة ومتواصلة : فتشعب الآراء واختلاط السياسة بالدّين . وإعتماد الاستعمار على جهود المبشرين هي عوامل تكوّن في حدّ ذاتها نظرية دينية ــ سياسية .

وقد لا يتم إدراك مدى التفاعل الديني ــ السياسي بدون معرفة تاريخ المغرب الأقصى وحياة سكانه وتقاليدهم ومعتقدهم . والصعوبة في هذا المجال تكمن في أنه لم تكن في البلاد مكتبات تفتح أبوابها للطالبين باستثناء مكتبات المساجد ومكتبات دور التبشير[31] أي أنه لم تكن هناك كتب مطبوعة ولا جرائد تعكس الرأي العام ويحتفظ بها للتاريخ ، بالاضافة الى ثقافة متواضعة وتخلف اجتماعي وبدائية اقتصادية وتسلط اقطاعي . وهكذا وجدت الأطماع

الاستعمارية في المغرب الأقصى المجال الأمثل لتحقيق الأهداف ، ومن طبيعة المجتمع المغربي ذي الأكثرية والكلية أنه لا يسيء معاملة «أهل الكتاب» على صعيد التعامل اليومي ، بل إن للمسيحي في المغرب وضعا ممتازا . لكن الجاذبية الأروبية خلقت التباعد والانفصال ، وأصبح المسيحي يشعر بالغيرية ازاء المغربي أي أن المسيحي فضّل ولاءه الوطني على ولائه الديني . وأصبحت مسيحية الأروبي مسيحية دول . والشعور القومي هو الذي يحدد العلاقة بين المسلم المغربي والمسيحي الاروبي . ولذلك جاءت المراجع الأجنبية تحمل هذا الطابع الفكري . فمنها ما هو عفوي ويتصل أكثر بالصدق في عرض الأحداث ، ومنها ما هو من تأثير التاريخ الاستعماري ، ومنها ما يفتعل لأغراض المصالح الأجنبية ، وعندئذ تتعارض الاتجاهات :

(أ) اتجاه اغتراب وانفصال .

(ب) اتجاه تداخل وتكامل .

(ج) اتجاه تركيب وتوفيق .

وكل هذا يؤكد مراعاة جميع المصادر والمراجع وخاصة تلك التي لا يجوز إهمالها .

ولكتابة تاريخ علاقة مسيحيي أروبا بمسلمي المغرب وجب الانتباه إلى كل ما كان يتخللها من فتور وبرودة . فمسار هذه العلاقة يعتريه صراع وتناقض بين المصادر والمراجع ذاتها . وعلى الجملة هناك ثلاث صعوبات في عرض المراجع .

ــ ندرة المصادر والمراجع (العربية خاصة) حول المغرب الأقصى .

---

(31) — Ayache (Germain), op. cit., p. 182.

(30) عبد الجليل التميمي ، **الفكير** ... نفس المصدر ، ص 12 .

ـــ اضطراب واختلاط بعضها .
ـــ غلبة الطابع الأسطوري على كثير من المصادر الغربية .

فبعد التثبت من صحة الحقائق التي تقدمها الأصول باختلاف أنواعها تقام عملية التركيب وهي ترتبط بنوع المادة التاريخية التي جمعت .

فلكتاب محمد المنوني **«مظاهر اليقظة المغرب الحديث»** أهمية تتلخص في أن محمد المنوني مغربي ثم إن المؤلف هو في وضع يسمح له بالاطلاع على الوثائق الرسمية والسجلات الخاصة بالمغرب الأقصى .

وفيما يتعلق بالمعلومات ذات الطابع الجغرافي[32] ،هناك معلومات لا يحتمل أن تكون وليدة المشاهدة بل إنها تكون مستقاة من الأوراق الرسمية الموجودة في الخزائن . والمصادر الجغرافية علمية خاصة بتقويم المناطق والجهات والأطوال والعروض ، وأخرى وصفية وثيقة الصلة بالتاريخ ما جعل أصحابها يؤلفون في التاريخ والجغرافيا معا[33] .

وإلى كتب الجغرافيا تضاف كتب الرحلة[34] التي تتميز بتسجيل معلومات وليدة التجربة والمشاهدة .

ومهما كانت المصادر جغرافية أو تاريخية فإنها تهتمّ بالتاريخ الاجتماعي والحضاري أكثر من اهتمامها بالتاريخ السياسي[35] وتتابع كتب الرحلة من تترجم لهم في حياتهم الخاصة ، في المدن والأسواق والمساكن الخاصة . وبهذا الوجه تتنوع المعلومات وتتصل بالوضع الاجتماعي وبالنشاط الاقتصادي .

على أن هذه الكتب تصبح محدودة الأهمية بالنسبة لدراسة الحركات التبشيرية ، فمنها الأصيل ومنها القصصي ، وبعضها[36] يختلط بشكل يجعل التمييز بين الصحيح وغير الصحيح أمرا صعبا جدّا .

وهناك كتب ذات طابع محليّ اقليمي أو متأخرة نسبيا مثل كتاب **«فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى»** للأستاذ محمد المكّي الناصري ، أو مثل كتاب « **الاستقصا في**

---

(32) أنظر مثلا :
— Ayache (Albert), **Le Maroc,** préfacé par Jean Drech Editions sociales, Paris 1956.

(33) — Martinière (Henri de la), **Souvernirs du Maroc** Paris, Plon Nourrit et Cie 1919

(34) — Aubin (Eugène), **Le Maroc d'Aujourd'hui** Armand Colin, Paris 1905

(35) حول التاريخ السياسي أنظر كتاب :
— Germain Ayache, **op.cit.,** pp. 177-198

(36) ككتاب : — Pons (Mgr. A,), **La Nouvelle Eglise d'Afrique ou le Catholicisme en Algérie, en Tunisie et au Maroc depuis 1830.**
Librairie Louis Namura, Tunis 1830.

آخبار المغرب الاقصى» للسلاوي (توفي في سنة 1319هـ/1901 م)، وهي كتب تميل الى شرح المواقف واستعراض المكائد الفرنسية بالنسبة لكتاب الناصري أما كتاب الاستقصا فهو يلخص الفترة التي أدرسها تلخيصا تاريخيا فتكون الإشارة إليه لتأكيد فكرة من الأفكار إذا انفردت بمعلومات خاصة .

أما عن الكتب العلمية الحديثة الخاصة بتاريخ المغرب فاكتفى منها بالإشارة إلى «ماضي شمال افريقيا» لقوتيه[37] ثم «تاريخ شمال افريقيا» لجوليان[38] .

تبقى أهمّ مصادر هذا البحث ما عثرت عليه من وثائق منشورة[39] أو ما زالت مخطوطة[40] وهي مجموعة من التأكيدات لشرح بعض النصوص أو لتأكيد بعض الأفكار .

---

(37) — Gautier (E.F7, **Le Passé de l'Afrique du Nord, des Siècles Obscurs**

(38) — Julien (Ch. André), **Histoire de l'Afrique du Nord des Origines à 1945. Paris, P.U.F. 1958.**

(39) مجلة الوثائق، المجموع IV, III,II,I .

(40) عثرت على بعضها في مكتبة الدومنيكيين بالدار البيضاء ، فأخذت منها صورا وأخر زودني بها الأستاذ محمد المنوني وبالأمثل الأستاذ عبد الله كنون الذي زودني بمخطوطة حول «دلالة التبشير» للاطلاع عليها فحسب .

# I ـــ مراجـــع عامّـــة


ـــ أرسلان الأمير شكيب . **لماذا تأخر المسلمون لماذا تقدم غيرهم؟** . مراجعة الشيخ حسن تميم ـــ منشورات دار مكتبة الحياة ـــ بيروت ـــ بدون تاريخ .

ـــ الألوسي جمال الدّين .**المستشرقون والتراث ... المستشرقون والاسلام** . منشورات مجلة الرسالة الاسلامية بغداد ـــ العراق (بدون تاريخ) .

ـــ البهي. محمد . **الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي** . دار الفكر بيروت ط 5. 1970 .

ـــ التميمي (د. عبد الجليل) . **بحوث ووثائق في التاريخ المغربي الجزائر، تونس وليبيا 1816 إلى 1871** . الدار التونسية للنشر، 1972 (راجع أيضا الطبعة الثانية ، منشورات مركز الدراسات والبحوث زغوان، 1984 .

ـــ الجنحاني (الحبيب) . **من قضايا الفكر** . الشركة التونسية للتوزيع 1975 .

ـــ الجنحاني (الحبيب) . **المغرب الاسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية X-IX م)** . الدار التونسية للنشر 1978 .

ـــ جمال (د. أحمد محمد) . **محاضرات في الثقافة الاسلامية** . دار الفكر بيروت . 1971

ـــ الجمالي (د. محمد فاضل) . **محاضرات في مبادىء التربية ألقيت بالجامعة التونسية** . نشر الشركة التونسية للتوزيع 1977 .

ـــ حته (محمد كامل) . **القيم الدينية والمجتمع** . دار المعارف بمصر 1974 .

ـــ حركات (د. ابراهيم) . **تحريف التاريخ وانحراف العقيدة** . منشورات النهضة الدار البيضاء ـــ بدون تاريخ .

ـــ حنفي (ناصف عصام الدين) . **المسيح في مفهوم معاصر** . دار الطليعة ـــ بيروت ـــ 1979 .

ـــ الحصري (ساطع) . **آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع** . دار العلم للملايين ـــ بيروت ـــ ط 2، 1960 .

ـــ الخالدي (د. مصطفى ود. عمر فروخ . **التبشير والاستعمار. عرض لجهود المبشرين التي ترمي إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربي** . المكتبة العصرية صيدا ـــ بيروت ط4، 1970 .

ـــ رودنكـو (ج) . **الاستعمار الجديد والاستعمار القديم** . وكالة أنباء نوفوستي، 1970 .

ـــ رجان بول **الاسلام والغرب** تعريب نجده هاجر وسعيد الغز، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع ـــ بيروت ـــ 1960 .

ـــ ريـاض (د. زاهر) **استعمار افريقيا** الدار التونسية للطباعة والنشر 1965 .

ـــ زغلول (د. سعد عبد الحميد) **تاريخ المغرب العربي ج 1 من الفتح الى عصور الاستقلال دار المعارف الاسكندرية 1979** .

ـــ زهرة (الامام محمد أبو) **محاضرات في النصرانية تبحث في الأدوار التي مرت عليها عقائد النصاري وفي كتبهم وفي مجامعهم المقدسة وفرقهم** . نشر دار الفكر العربي ط 3 ، 1966 .

ـــ السباعي مصطفى، **من روائع حضارتنا** الطباعة الحديثة ـــ تونس ـــ بدون تاريخ .

ـــ العابد د. محسن، **دراسات وبحوث مقارنة** المطبعة العصرية ـــ تونس ـــ 1979 .

ـــ عاشور (محمد الفاضل ابن) **المحاضرات المغربيات الدار التونسية للنشر 1974** .

ـــ **عثمان د. حسن ، منهج البحث التاريخي**، دار المعارف ـــ مصر ـــ ط 3 ، منقحة 1970 .

العروي د. عبد الله **تاريخ المغرب، محاولة في التركيب، ترجمة ذوقان قرقوط** المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـــ بيروت ـــ 1977 .

ـــ غردية لويس **فلسفة الفكر الديني بين الاسلام والمسيحية 3 أجزاء. ترجمة الشيخ صبحي صالح والأب فريد جبر** دار العلم للملايين ج 1 ، 1978، ط 3 ج 2، 1979، ط 3. ج 3، 1969، ط 1

ـــ غلاب عبد الكريم **تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب ج 1 من نهاية الحرب الريفية الى اعلان الاستقلال** ، الشركة المغربية للطبع والنشر، الدار البيضاء 1976 .

ـــ الفاسي علال **دفاع عن الشريعة ، سلسلة الجهاد الأكبر رقم 1** مطابع الرسالة ـــ الرباط ـــ 1966 .

ــ الفاسي علال **محاضرتان عن مهمة علماء الاسلام**،سلسلة الجهاد الأكبر رقم 11 ــ الرباط ــ 1973 .

ــ الفاسي علال **التبشير المسيحي وبعض الوثنيات الطائفية الهندية** سلسلة الجهاد الأكبر رقم 12 ــ الرباط ــ 1973 .

ــ قاسم د. أنيس **تأملات في الاحتلالين الصليبي واليهودي**، الدار العربية للكتاب ــ ليبيا/ تونس ــ 1975 .

ــ كامل د. عبد العزيز **مواقف اسلامية**، دار المعارف بمصر ط 2 ، 1971 .

ــ كنون عبد الله ــ **معارك**، مطبعة ديسبريس ــ تطوان ــ بدون تاريخ .

ــ كنون عبد الله **شؤون اسلامية** ، دار الطباعة الحديثة ــ الدار البيضاء ــ بدون تاريخ .

ــ كوران د. أرجمنت **السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827-1847) متبوع بدراسة عن الحاج أحمد باي قسنطينة ترجمة عن التركية د. عبد الجليل التميمي** ط 2 ــ تونس ــ 1974 .

ــ الكيالي عبد الوهاب **موسوعة السياسة** .

ــ لاندرو روم **مراكش بعد الاستقلال**، تعريب خيري حماد، دار الطليعة ــ بيروت 1961 .

ــ لبيب ــ عبد الساتر : **التاريخ المعاصر**، دار المشرق، ط2 بيروت 1971.

ــ لينين فلاديمير **الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية**. دار التقدم ــ موسكو ــ بدون تاريخ .

ــ لينين فلاديمير **نصوص حول الوطن والوطنية** ترجمة وتقديم جورج طرابيشي سلسلة مختارات جديدة دار الطليعة للطباعة والنشر ــ بيروت ــ 1972 .

ــ محمود الشيخ د. عبد الحليم **أروبا والإسلام**، المكتبة العصرية ــ صيدا، بيروت ــ بدون تاريخ .

ــ منوني محمد **مظاهر يقظة المغرب الحديث** ج 1، مطبعة الأمنية ــ الرباط ــ 1973 .

ــ منوي محمد ، **ملامح تطورات المغرب العربي في بداية العصور الحديثة** ج 2 الجامعة التونسية (سلسلة الدراسات التاريخية) 1979 .

ـ مغنية محمد جواد ، **الاسلام بنظرة عصرية** دار العلم للملايين ـ بيروت ـ 1973 .

ـ موسى يوسف **القرآن والفلسفة** ،دار المعارف بمصر 3، 1971 .

ـ الناصري محمد المكي ، **فرنسا وسياستها البربرية في المغرب الأقصى تقرير إلى المؤتمر الإسلامي** (بدون تاريخ) .

ـ الهاشمي الخياري عـلال **الإسلام واديولوجيات الفكر المعاصر** الدار التونسية للنشر 1981 .

ـ شوبكنز د.ف.ب. **النظم الإسلامية في القرون الوسطى ترجمة د. أمين توفيق الطيبي** الدار العربية للكتاب ـ ليبيا/تونس ـ 1980 .

ـ وجدي محمد فريد **دائرة معارف القرن XIV XX** دار المعارف بمصر 1943 .

ـ يحيى د. جـلال **عبد الكريم الخطابي سلسلة أعلام العرب** دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ـ مصر ـ 1968 .

ـ يماني د. محمد عبده، **المعادلة الحرجة في حياة الأمة الاسلامية** دار الأصفهاني وشركائه للطباعة ـ جدة ـ (بدون تاريخ) .

## II ـ الدوريات

### ـ مجلة الأزهر (مصرية)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 8 سنة 48 أكتوبر 1976 | ـ التبشير والاستعمار | الشيخ د. حسن عيسى عبد الواهر، 8 ص |
| • العدد 4 سنة 51 | ـ الاسلام في الفكر الغربي I | د. محمد شامة 12 ص |
| | ـ مستقبل الاسلام والدراسات الحديثة المسيحية | د. يحيى هاشم حسن فرغل، 4 ص |
| • العدد 7، 8 سنة 50 أكتوبر/نوفمبر 1978 | ـ من مشاغبات المبشرين | د. عبد الفتاح بركة 32 ص |
| • العدد 8 سنة 51 سبتمبر 1979 | ـ الاسلام في الفكر الغربي II | د. محمد شامة 32 ص |
| | ـ الغرانيق المستشرقون | د. رؤوف شلبي 9 ص |

### ـ المجلة التاريخية المغربية (تونس)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 1 جانفي 1974 | ـ التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر | د. عبد الجليل التميمي 12 ص |
| | ـ انطباعات حول أهمية الدين في الممتلكات الفرنسية بافريقيا | د. عبد الجليل التميمي 7 ص |
| • العدد 2 جويلية 1974 | ـ مصادر إيطالية عن تاريخ المغرب العربي | سلفطور بونو، 3 ص |
| • العدد 3 جانفي 1975 | ـ دور المبشرين في نشر المسيحية في تونس 1880 ـ 1881 | د. عبد الجليل التميمي 13 ص |
| • العدد 5 جانفي 1976 | — Des missions à l'histoire du comportement | 11 p. Yvonne Turin |

| | | |
|---|---|---|
| | religieux : l'exemple des orphelins du père Brumault (1842-1865) | |
| • العدد 7، 8 جانفي 1977 | — L'Islam et la Civilisation Occidentale, sont-ils conciliables | 2 p. R.M. Fakkar |
| • العدد 10، 11 جانفي 1978 | ـ الخلفية الدينية للصراع الاسباني ـ العثماني على الإيالات المغربية في القرن السادس عشر | د. عبد الجليل التميمي 40 ص |
| • العدد 13، 14 | — Documents sur le Maghreb (Traduit de l'Espagnol par Hédi Oueslati | 9 p. M. Arribas Palau |
| • العدد 15، 16 جويلية 1979 | — Intérêts des Sources de l'Histoire de l'Eglis Catholique en Tunisie | 2 p. J. Ladjili |
| • العدد 17، 18 جانفي 1980 | — Charles de Foucauld à Tamarrasset, Missionnaire ou Témoin | 6 p. Ch. Bouamrane |
| • العدد 19، 20 أكتوبر 1980 | ـ ظاهرة مريبة في سياسة الاستعمار الفرنسي ... مكتب الاخبار التونسية | د. عبد الجليل التميمي 34 ص |

## ـ الثقافة (جزائرية)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 47، السنة 8 أكتوبر/نوفمبر 1978 | ـ العلم والدين في الحضارة الافريقية | د. علي عيسى 8 ص |
| • العدد 61 صفر/ربيع الأول 1401 هـ | ـ الحركة التبشيرية في الجزائر من سنة 1880 إلى سنة 1871 | خديجة بقطاش من ص 67 الى ص 72 |

## ـ الثقافة العربية (ليبيا)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 14، السنة 1 ديسمبر 1974 | ـ العائلة والتطور الحضاري في المجتمع العربي | د. هشام شرابي 9 ص |
| • العدد 7، السنة 2 | ـ التحدي الحضاري | بسام العسلي |

| | | |
|---|---|---|
| يوليو 1975 | والثقافة العربية | 5 ص |
| • العدد 10، السنة 3 أكتوبر 1976 | ـ الأسس الانسانية للحضارة العربية | د. السّيد محمد بدوي 7 ص |
| | ـ المكتبات ودورها في حياتنا | عبد الرحمان شلش 2 ص |
| • العدد 2، السنة 4 فبراير 1977 | ـ جوانب العظمة في حضارتنا الاسلامية | أحمد ابراهم أحمد 7 ص |
| • العدد ...، السنة 4 نوفمبر 1977 | ـ المستشرقون والثقافة العربية | بسام العسلي 6 ص |

## ـ جوهر الاسلام (تونس)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 2، 3 / السنة 6 نوفمبر/ديسمبر | ـ دفاعا عن الاسلام | الناصر الجويلي 6 ص |
| | ـ أخطار الاستشراق وكيف نواجهها | عبد اللطيف الشويرف 10 ص |
| | ـ شبابنا وحضارة الغرب | محمد إبراهيم بحات 10 ص |
| • العدد 5، 6 / السنة 12 مارس 1980 | ـ الاسلام والغرب | المجلة، صفحة واحدة |
| • العدد 9، 10 سنة 1981 | ـ خطط لتنصير المسلمين في العالم يقرّرها مؤتمر تبشيري في أمريكا | المجلة من ص 13 إلى ص 14 |

## ـ الحياة الثقافية (تونس)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 3، سنة 4 ماي/جوان 1979 | ـ ملامح من حركة الاستشراق من البدايات حتى الحرب العالمية الأولى | علي اللواتي 11 ص |

## ـ الدّوحة (قطر)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 26 فبراير 1978 | ـ أعلام الفكر ويقظة المغرب الحديث | د. نيقولا زيادة 5 ص |
| • العدد 43 يوليه 1979 | ـ اللغة العربية والدعوات المشبوهة لإسقاطها | د. عبد الحافظ حلمي 5 ص |

## ـ السياسة الدولية (مؤسسة الأهرام)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 50 أكتوبر 1977 | ـ مؤتمرات ثلاثة لتاريخ العرب الحديث | د. صلاح العقاد 3 ص |

(من مؤتمرات وندوات دولية)

## ـ شؤون عربية

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 1<br>مارس 1981 | ـ الثقافة العربية في مواجهة الغزو | د. حامد ربيع<br>من ص 106 الى ص 118 |

## ـ الشورى (ليبيا)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 5، السنة 1<br>أغسطس 1974 | ـ الاستعمار وحركة استعمار الوطن الغربي | د. نيقولا زيادة<br>9 ص |
| • العدد 8، السنة 1<br>نوفمبر 1974 | ـ استعمار المغرب | د. نيقولا زيادة<br>6 ص |
| • العدد 3، السنة 2<br>يونية 1975 | ـ الحضارة العربية بين الأصالة والتجديد | المجلة<br>9 ص |
| • العدد 1، 2، 4<br>يناير/فبراير 1977 | ـ التحدّي والتحديات التي يواجهها المجتمع العربي | حسني عايش<br>24 ص |
| • العدد 11، السنة 4<br>نوفمبر 1977 | ـ حول العروبة والاسلام | ابنة الجنوب التونسي<br>4 ص |

## ـ العربي (كويتية)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 194<br>يناير 1975 | ـ إنسانية شريفة ينشدها الاسلام للمسلمين | الشيخ أحمد حسن الباقوري<br>2 ص |
| • العدد 13<br>ديسمبر 1979 | ـ الرقّ في الاسلام : القرآن يحرمه والمدينة تمارسه | أمين الخولي<br>8 ص |
| | ـ التاريخ بين الذاتية والموضوعية | علي أدهم<br>7 ص |

## ـ العلم والايمان (تونس)

| | | |
|---|---|---|
| • العدد 5، السنة 1975 | ـ ندوة الحوار الإسلامي المسيحي II | جمع وإعداد عبد الرحمان فرناس ج. ع. ل. 23 ص |

## ـ الملتقى الاسلامي ـ المسيحي

ـ الضمير المسيحي والضمير الاسلامي في مواجهتما لتحديات النمو. سلسلة الدراسات

الاسلامية 4، 1974
292 ص عربية
و 219 ص فرنسية

## ـ المستقبل العربي

• العدد 26، السنة 1981 — الاسلام والمسيحية العربية والقومية العلمانية — جوزيف مغيزل، 18 ص

## ـ الهداية (تونسية)

• العدد 1، السنة 5 سبتمبر 1977 — من المؤتمر الاسلامي والمسيحي بقرطبة — د. التهامي نقرة، 4 ص
• العدد 3، السنة 1978/5 — التوراة و(الانجيل) والقرآن والعلم — د. محمد اليعلاوي، 14 ص

## ـ الوعي الاسلامي (كويتية)

• العدد 180، السنة 15 أكتوبر 1979 — حقيقة التبشير — عزّت محمد إبراهيم، 7 ص

## ـ الوثائق (المغرب الأقصى)

• وثيقة 90 ـ المجموع I — رسالة من الخليفة الموحدي عمر المرتضي الى البابا «أنوصانت الرّابع» 6 ص
ـ المجموع II 1976/1396 — مذكرة من وزير بريطانيا المفوض في مدريد الى وزير الخارجية الاسبانية عن نيات اسبانيا حيال المغرب.
• وثيقة 508 المجموع IV 1977/1397 — رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان الى نائبه في الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بإدّعاء فرنسا أن للتجار الأجانب الحقّ في حماية الرّعايا المغاربة.
• وثيقة 516 — رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان تتعلق بمبالغة التجار النصارى في استيراد الخمر الى المغرب.
• وثيقة 519 — رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان الى نائبه في الشؤون الخارجية محمد بركاش تتعلق بتربية الخنزير من قبل المستوطنين من النصارى.
• وثيقة 525 — رسالة من نائب الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش الى وزير بريطانيا المفوض «سيرج. هـ. برموند هاي» تتعلق بقطع تاجر انقليزي الطريق المؤدي الى مصلى العيد بالصّويرة.

- وثيقة 545 ـ رسالة من السيد محمد بن يحيى (؟) الى أمين الأمناء ج. محمد بن المدني بنيس تتعلق بالمهانات التي تلحق المسلمين من الحماية.
- وثيقة 566 ـ رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان الى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بمنع الديبلوماسيين الأجانب الحجاج المغاربة من النزول بطنجة.
- وثيقة 557 ـ رسالة من عامل فاس السيد إدريس السراج الى الوزير الأول السيد الطيب بوعشرين تتعلق بالحجاج المغاربة الذين منعهم الديبلوماسيون الأجانب من النزول بطنجة.
- وثيقة 558 ـ إرسالية من الوزير الأول الطيب بوعشرين الى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بالحجاج المغاربة الممنوعين من النزول بطنجة.
- وثيقة 571 ـ رسالة من عامل الجديدة السيد محمد بن بومهدي الى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش يعلن فيها حيرته ازاء تصرّفات المستوطنين الأجانب ومحمييهم.
- وثيقة 572 ـ رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان الى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق باسباني يبيع الخمر بمراكش ويروج سكّة مزوّرة.
- وثيقة 573 ـ رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان تتعلق بالاسباني الذي يبيع الخمر ويزوّر السكّة بمراكش.
- وثيقة 578 ـ رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان الى وزير الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بالقضاء على الأضرار التي تلحقها خنازير النصارى بزروع المسلمين.
- وثيقة 589 ـ رسالة من السلطان مولاي الحسن الأول الى وزير الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بتفاحش الحماية ومضايقة المحتمين للمسلمين.
- وثيقة 605 ـ رسالة من السلطان مولاي الحسن الأول الى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش بشأن شكاية يهود «الصّويرة» من رحكة التنصير.
- وثيقة 606 ـ رسالة من السلطان مولاي الحسن الأول الى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بإحداث المستوطنين الأجانب بريدا ببعض الموانيء المغربية.
- وثيقة 609 ـ رسالة من السلطان مولاي الحسن الأول الى وزير الشؤون الخارجية السيد محمد بركاش تتعلق بحركة التنصير بين يهود الصويرة.
- المعاهدة المغربية الاسبانية المبرمة يوم 26 ابريل 1860، ص 151 ـ 156.
- الاتفاقية المغربية الاسبانية المبرمة في 20 نوفمبر 1861، ص 161 ـ 173.

## III ـــ أرشيف مطبوع
## IV ـــ المراجع الأجنبية I
## الوثائق الأجنبية II
## نصوص ووثائق III

ـــ عن محمد المكي الناصري ـــ

فيما يتعلق بالمغرب الأقصى ، أكثر الارشيفات المتصلة بهذا البحث ، تحولت إلى فرنسا . انظر J.L. Miège *Le Maroc et l'Europe* t.1: Sources et Bibliographie, Paris 1961 .

ـــ مشروع الظّهير البربري الذي تقدّم به م. ريبو في كتابه «الجماعات القضائية البربرية» بتاريخ 8 ماي 1981 .

ـــ نصّ الظهير البربري الذي وضعه م. لوسيان سان بتاريخ 16 ماي 1930 .

## IV مخطوطـــات

تكثر المخطوطات ، والفصول المقتطفة من الصحف والدوريات ، في قسم «تاريخ المغرب الأقصى» بباريس ، وبعضها احتفظ به في خزائن التبشير وبتطوان . وقد تمكنت من الاطلاع على نتف منها بمساعدة الأستاذ عبد الله كنون .

ـــ المطالب النهائية التي قدّمتها الأمة المغربية الى سلطانها (بدون تاريخ) .

ـــ مخطوط باللهجة العامية المغربية لمؤلف مجهول الاسم وبدون تاريخ . به جداول حول :

○ سكّان العالم .
○ أسماء البلدان .
○ احصائيات (... تقسيم دول افريقيا ، هيئة افريقيا ، رسوم وتعاليق لسكّة المغرب ...

ـــ مخطوطة حول وثيقة رقم 90 بتاريخ 1243 هـ/1254 هـ مدّة بابوية أنو صانت الرّابع .

ـــ مخطوطة حول وثيقة رقم 606 بتاريخ 27 رجب 1296 هـ .

ـــ مخطوطة حول وثيقة رقم 508 بتاريخ 14 شعبان 1280 هـ .

# صحــــف

تعتبر الصحف اليومية من الوثائق ذات الأهمية النسبية فبعضها يخضع لمفاهيم غربيّة وبعضها وهو الأقل يعكس الحياة اليوميّة بالمغرب .

تتعدّد المقالات في الصحف ذات الاتجاهات المختلفة . ولما كان البحث يهمّ التبشير في المغرب الأقصى اقتصرت على نماذج منشورة في صحيفة «الميثاق» . وقد ساعدني في الحصول على مختلف الأعداد مديرها الأستاذ عبد الله كنون .

ــ **صحيفة الميثاق** : إسلامية للدعوة والتجديد ، تصدرها رابطة علماء المغرب . العدد 72 السنة 6، فاتح جمادى الاخر ، 1338 هـ/26 فشت 1963 م .

ــ ○ تأثير الازدواجية وتعدّد اللغات واللهجات محمد السرغيني .

ــ ○ أبناؤنا بين أيدي المبشرين ابراهيم بن الجنوي .

العدد 80 السنة 6، فاتح شوال 1388 هـ/21 دجنبر 1968م .

ــ ○ اعلام المسلمين بمقاصد المبشرين(1) عبد الصمد الخمليشي .

ــ ○ كتاب عن اللغة البربرية الصحيفة .

ــ العدد 81 السنة 15،6 شوال 1383 هـ/4 يناير 1969 م .

○ إعلام المسلمين بمقاصد المبشرين (2) عبد الصمد الخمليشي .

العدد 107 السنة 1،7 محرم 1390 ه/6 مارس 1970 م .

○ خطر المبشرين في المغرب (1) امحاند علال .

العدد 08 السنة 15،7 محرّم 1390 هـ/23 مارس 1970 م .

○ خطر المبشرين في المغرب (2) امحاند علال .

العدد 23 السنة 8، شوال 1390 هـ/30 نوفمبر 1970 م .

○ هذا الاعلان التبشيري في اسبانيا ما تأويله؟ امحاند علال .

العدد 46 السنة 9، ذي القعدة 1391 هـ/19 ديجمبر 1971 م .

ــ خطاب الأمين العام لرابطة علماء المغرب حول :

○ التحديات التي تواجهها الرّابطة .

○ مواقف العلماء من التيارات الأجنبية — عبد الله كنون

ــ توصيات خاصة بالتبشير الصحيفة .

العدد 176 السنة 10، 15 ربيع الأول 1894 هـ/9 أبريل 1974 م .

○ موتو بغظيم، للذّين يتحدّون الاسلام في موطنه عبد الله الكتاني .

العدد 288 السنة 15، 15 صفر 1399 هـ/14 يناير 1979 م .

○ تهنئة أم تبشير ؟ — الصحيفة

العدد 322 السنة 16، 1 شعبان 1400 هـ/15 يونيه 1980 م .

○ 200.000 كتاب وشريط كاسيت ضدّ الدين الحنيف — الصحيفة

ــ **جريدة بلادي** :جريدة أسبوعية جامعة، تونسية :

العدد 367 السنة 8، 5 جويلية 1981 .

○ التبشير ومحاولات التمسيح ص 22 — بقلم البشير العريبي

ــ **صحيفة «الميثاق» المغربية** :

| الأعداد | 72 | 30 | 81 | 107 | 108 | 126 | 146 | 176 | 288 | 322 |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| السنوات | 6 | 6 | 6 | 7 | 7 | 8 | 9 | 10 | 15 | 16 |

# المراجع العامة الأجنبية


— Abdelhak (Mouldi)— Constribution à l'étude épidé miologique de la lèpre en Tunisie, (Thése) dactylo-graphiée Tunis, 18 Sept. 1979. 71 p.
— Arquillére (H.X) et Jolivet (Ch.) Histoire comtempotaine les éditions de l'école, Paris s.d 387 p.
— Aubin (Eugène)— Le Maroc d'Aujourd'hui Paris, Armand Colin 1905.
— Ayache (Albert) — Le Maroc, éditions sociales 1956.
— Ayache (Germain) — Etude d'histoire marocaine s.e.m.r., Rabat 1979. 412 p.
— Baaren (Th. Van) — Les Réligions d'Asie de l'Islam au Boudhisme Zen Marrabout, Paris 1962. 186 p.
— Barrat (Denise et Robert) — Charles de Foucauld et la Fraternité collection : Maîtres Spirituels. Edition du Seuil 1958 -Paris- 192 p.
— Baumann (H) et westeumann (D) — Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique -Paris, Payot- 1967. 605p.
— Beaument (Pierre) — Les quatres évangiles edition Fayard -Mame 1968.
— Besnard (A.M) — Visage Spirituel des Temps Nouveaux éd. du Cerf 1964. 92p.
— Borhaman (Paul) et philipe (Curtin) — L'Afrique et les Africains les éditions internationales -Paris- 1973. 458 p.
— Castellanos (Padre) — Histoire de Marruecos, Apendice I. ((les misiones franaiscanas en Marruecos) -Tanger- 1898. Traduit par Med Belhadj et Mme Hannachi.
— Chaulanges (M) et D'hoop (J.M) — Histoire contemporaine, 1848 - 1914. éd. delagrave -Paris - 1961. 441 p.
— Colloque sur les Réligions — Abidjan, Avril 1961. éd. Présence Africaine - Paris - 1962. 238 p.
— Colloque sur la Sociologie — Centre pour Etude de Problème du Monde Musulman Contemporain - Bruxelles - 1962. 466 p.
— Cornevin (R.etM.) — Histoire de l'Afrique des Origines à la 2ème Guerre Mondiale - Paris, Payot - 1964. 436 p.
— Histoire de l'Afrique T.2 L'Afrique Précoloniale - Paris, Payot- 1976. 668 p.
— Delarouzée (Mlle Thérése) — Chateau bland, Génie du Christianisme. Librairie Larousse 1936. 129 p.
— Descampe (Le baron) — Histoire Générale Comparée des Missions - Paris, Plon - 1932.
— Deschamps (Hubert) — L'Afrique Noire précoloniale - Paris - P.U.F. 1962. 126 P.
— Duchet- Suchaux (G et M) — Les dates clés de l'histoire -Paris, Hachette - 1976. 267 p.
— Duverdun (G) — Les Chrétiens à Marrakech des origines à 1912 -Rabat- 1966.
— Evdokinov (Paul) — Les âges de la Vie Spirituelle des Péres du Désert de nos Jours. éd. Desclée de Brower 1964. 236 p.
— Foucauld (V. Ch.) — Reconnaissance au Maroc (1883-1884) Paris Challamet et Cie- 1888.
— Gend (Jean Van) — Découverte du Maroc - Maroc - Presse - Edition Paul Boy - Paris - 239 p.
— Girard (Louis) — Le Monde Contemporain Histoire et Civilisations (J. Bouillon P. Sortin, J. Rudel). - Paris, Bordas - 1962. 608 p.
— Gorée (G) — Au service du Maroc (des moines missionnaires du Pére Faucauld) Ed. Grasset 1939.
— Goyau (G) — La France Missionnaires dans les Cinq Parties du Monde - Paris, plon - 1948 T.1 422 P.
— Guennou (Jean) — Les Missions Etrangères -Paris, ST. Paul - 1963. 288 p.

— *Hall (R.) — La Découverte de l'Afrique série : poche couleurs larousse en 1971. Librairie Larousse - Paris - 160 p.*
— *Hallynck (P) et — Les Temps Modernes Masson et Cie. éditeurs 1951 - 503 p.*

— *Hartman (G) et Himelfarb (H) — Toute l'Histoire - Pris ST. Amand - 1964. 313 p.*
— *Henrion (Le Baron) — Histoire Générale des Missions Catholiques depuis le XIII S. jusqu'à nos jours T.2. Ed. Gaumes Fréres - Paris - 1847. 688 p.*
— *Historia (numéro spécial) — Les Sectes et leurs Prophètes Lib. Jules Tallandier 1978. 128 p.*
— *Homberg (Octave) — La France des Cinq Parties du Monde - Paris, plon - 1927. 317 p.*
— *Jalabert (Pierre) — Histoire de l'Afrique du Nord - Paris, s.p.i.c. - 1945. 239 p.*
— *Julien (Ch. André) — Histoire de l'Afrique des Originies à 1945. - Paris, P.U.F. - 1958. 126 p.*
— *Kerkhofs (S.J.) et Henry (A.M.) — Dialogue d'Aujourd'hui, Mission de Demain. Ed. du Cerf - Paris - 1968. 326 p.*
— *Lasinier (B) H. Sedkaoui — La Chaise et Les Siécles des Révolutions (1789 - 1881) S.T.D. -Tunisi - 1967.*
— *Lénine (V.O) — L'Impérialisme, Stade Suprême du Capitalisme. Ed. Sociale - Paris - 1979. 230 p.*
— *Madalle (A.) Prevost (V.) et Sifflet (A.M.) — Histoire du Monde (1848-1939) Lib. Classique, Eugène Belin 1970.*
— *Mautiniére (Henri de la) — Souvenir du Maroc - Paris, Plon s.d. -*
— *M'hamed Arkoun Hassan Askari et autres — Les Musulmans n° 14 Série : Le Chrétien endialogue avec le monde Beauchnaise - Paris - le 14 oct. 1971. 139 p.*
— *Miège (J.l.) — Expansion Européenne et Décolonisation de 1870 à nos jours. P.U.F.-Paris-1973. 414 p.*
— *Le Maroc, P.U.F. - Paris - 1950.*
— *Le Maroc et l'Europe 1830-1894 T.1 -Paris- 1961*
— *Documents d'Histoire Economique et Sociale Marocaine au XIX S. - Paris - 1969.*
— *Mommsen (wilhelm) — Histoire, in Encyclopedie Universelle Ed. Gerard et Cie- s.d. 462 p.*
— *Morrisson (Cecile) — Les Croisades - Paris, P.U.F. - 1969. 126 p.*
— *Moulieras (Auguste) — Le Maroc Inconnu. Ed. Challmel - Paris - 1889.*
— *Nietzasche (F.) — L'Antéchrist (imprécaution contre le christanisme) - Paris, Gallimard -1974. 121 p.*
— *Olichon (Mgr. Armand) — Les Missions (histoire de l'expansion du Catholicisme dans le monde. Ed. Bloud et Gay - Paris - 1936. 471 p.*
— *Peyrouthon (Marcel) — Histoire Générale du Maghreb des Origines à nos Jours. Ed. Albin Michel 1966. 282 p.*
— *Pons (Mgr. A.) — La Nouvelle Eglise d'Afrique ou le Catholicisme en Algérie en Tunisie et au Maroc. Libr. Louis Namura - Tunis, S.D - 340 p.*
— *Sédés (J. Marie) — Histoire des Missions Françaises - Paris P.U.F. - 1950. 126 p.*
— *Talbi (Mohmed) — Ibn Haldun M.T.E. - Tunis - 1973. 131 p.*
— *Terrasse (Henri) — Le Maroc jusqu'au Protectorat Français - Casablanca - 1949 - 50.*

— *Vaulx (Bernard de) — Les Missions : leur histoire des origines à Bénoît XV (1914). - Paris, Fayard - 1960. 127 p.*
— *Zananiri (Gaston) — Figures Missionnaires Belgique, Gasterman - 1963. 296 p.*
— *Carte des Inéraires de Foucauld au Maroc — In, au Maroc, en suivant Foucauld par l'Adreit de Lacharrière (J) 1932.*
— *Carte : Reconnaissance au Maroc (tableau d'assemblage) — Par le Vicomte Ch. de Foucauld (1883 - 1884). Challamel aîné Editeur, - Paris, s.d -*
— *Charité Charétienne (la) Texte sur — Saint Paul Epêtre aux Romains, XII, 3—16 in : le monde contemporain, Girard Louis. P. 522.*
— *Christianisme (Le) et l'Elargissement des Perspectives Missionnaires (texte : Le laîc chrértien dans le dessein de Dieu) — Eglise Vivante IV,2, 1952.*
— *Colonisation (La) texte — vautey, textes et lettres t.v. pp 21, Plon, Editeur.*

*— Graphique : La Population de Casablanca au XIX S.(1856—1905) J.L.Miège.*
*— Notes : Les Franciscains Espagnols au Maroc au XIIII et XIX S. — Notes prises par Michel Parasote (Maison des Dominicaine Casablanca) d'un petit mémoire non signé.*
*— Organisation (L') de l'Activité Missionnaire — Les Papes Contemporains et la Missionin Appendice Direct Conciliaire sur la Mission p.225, Andre Retif, Apotolat des Ed. Versailles 1965.*
*— Rapport fait à la Société de Géographie de Paris (Dans la séance générale du 24 Avril 1885)*
*— Par M.Henri Daveyrier, sur le voyage de M.le Viconte Ch. de Foucauld au Maroc.*
*— Tableau, Origine Géographique des Européens de Casablanca (1856—1906) — Les Européens à Casablanca au XIX S. (1856—1906) J.L Miège.*

*A — Textes*
*— La Charité Chrétienne, — Saint Paul, Epitre aux Romains, XII, 3—16.*
*— La Colonisation — Du journal l'Eclair, 26 Juin 1894.*
*— Le Christianisme et l'Elargissement de Perspectives Missionnaires. — Eglise Vivante, IV, 2, 1952.*
*— Le Laïc Chrétien dans le Dessein de Dieu.*
*B — Archives inédites*
*— Rapport pour l'Autorisation du Sanatorium... Religieux en Afrique du Nord du 25 Mars 1925.*
*— Manuscrit, réponse au rapport du 25 Mars 1925.*
*— Demande concernant l'entrée en France de 3 élèves missionnaires Suisses.*
*— Demande du Sanatorium des missions africaines de Lyon pour l'initiation à la vie de missionnaires.*
*— 3 certificats d'engagement à la vie missionnaire en Afrique.*
*— Rapport pour l'autorisation d'une filiale de la Congrégation de Lyon en Afrique.*
*— Rappel de la fondation et l'etablissement des Missionnaires en Afrique depuis 1892.*
*— Demande d'autorisation d'un nouveau Sanatorium relebant de Lyon et fait suivre un rapport sur les conditions du fonctionnement (le 27 Avril 1902).*
*— Accord pour le repos des Missionnaires des colonies.*
*— Exécution de la loi du 1er Juillet 1901, lettre émanant du Ministère de l'Intérieur et des cultes.*

# مدخـــل ·

التبشير (Evangélisation) في معناه الأصلي والاشتقاقي هو دعوة لاتباع ما جاء به الإنجيل من عقائد وتعاليم . فلفظة الإنجيل ذاتها تفيد معنى التبشير ، أي حمل النّاس بصورة أو بأخرى ــ فرادى أو جماعات ــ من عقيدة ما إلى العقيدة المسيحية . تعاطى رجال الدّين المسيحيون الغربيون هذه «الصناعة» وجعلوا منها علما لاهوتيا ، وساند البابوات هذا العمل . ولتجسيم ظاهرة التبشير تعلّم المبشرون لغات الشعوب التي يراد تمسيحها . وركّز الاهتمام خاصة على تعلم اللهجات حتّى يتمكن المبشرون من الوصول الى مختلف المستويات الاجتماعية . وجاء في الموسوعة الكاثوليكية ، التبشير بمعنى «عمل كنيسي لتوسيع آفاق الإشعاع المسيحي ، واستجابة لرغبة المسيح»[1] فكل الإرساليات التي تضيف بلدا آهلا إلى «المسيحية» هي مباحة وجائزة . أما الغزو واستعادة الغزو فهو شيء واجب .

ويقول قوايو (G. Goyau) «المبشرون هم رسل الكنيسة في مسيرتها ، تمدين ولتخليصهم من الضلال»[2] وفي ذلك إرادة الكنيسة لمتابعة الشعوب التي انفصلت عنها ولإرجاعها إلى سلطة البابا[3] .

والتأويل المبدئي للفظة التبشير يظل يفيد «التوّسع» على حساب العقائد غير المسيحية، و «العمل» على تقوية المجتمع الكنيسي الذي هو في حدّ ذاته قوم مؤمنون مرتبطون بعقيدة واحدة وعبادات واحدة وخضّعا للاكليروس (Clergé) الخاضع بدوره لسلطة البابا خليفة القديس بطرس[4] (Saint Pierre) .

وبإيحاء من نزعة الإصلاح الديني[5] التي تزعمها مارتن لوثر (Martin Luther) (1453

(1) — Dictionnaire de Thélogie Catholique, X, 2e partie (Mess, Mys)/A. Vacant, E. Mangeot et E. Amonn.

(2) — G. Goyau, la France Missionnaire dans les cinq parties du monde, t.1, pp. 10-17. Paris, Plon 1948.

(3) — Dictionnaire de Théologie Catholique, **op.cit.**, (Eglise)

(4) — **Ibid**

(5) نزعة الاصلاح الديني هي جملة من القواعد والمذاهب التي نادت باسم الانجيل ثم العقل الى رفض تحجر قوانين الدنيسة الكاثوليكية .

— 1546 م) ثم جان كالفن (Jean Calvin) (1509%1569 م) وغيرهما من رواد الإصلاح بمراجعة داخلية . ففي زمن البابا أدريان السادس[6] (Andrien VI) (1459م — 1523 م) استحال العمل التبشيري من الزهد والرهبنة الى البحث اللاهوتي (Théologie) والقوانين (Canons) المسيحية مع المحافظة على النشاط التجاري ضمن قوافل المكتشفين . وانقسم المسيحيون الى كاثوليك وبروتستانت وكان لهذا الانقسام أثر كبير على سيرورة التبشير خارج أروبا «نظرا للمنازعات الدينية التي حدثت بين المذهبين ، ولكن في منتصف القرن الثالث عشر هجريا تعاون الفريقان على حملات التبشير ... في آسيا وافريقيا وغيرهما ، وأصبح المجتمع الكنيسي يدفع الشعوب للوقوع في أحضان الاستعمار العسكري والفكري واللغوي»[7] . ذلك أنه ظهرت جماعات مسيحية امتهنت التبشير كاليسوعيين(LesJésuites) وكجمعية الصدقة المتوسلين(ordre mendiants) وأصدر البابا غريقوار XV (1554 م — 1623 م) (Grégoire XV) في **22 جوان 1622 ، مرسوما يعترف بقداسة الدعوة التبشيرية** (Propaganda Fide) ، وأتبع ذلك بوثيقة «بعث» (dicastère) تأمر بنشر المسيحية في العالم[8] .

| السنة | الجنسية | اسم الارسالية |
|---|---|---|
| 1621 | فرنسية | مبشرو الخارج |
| 1621 | روسية | اسقفية طوبلسك (سيبيريا) |
| 1625 | فرنسية | الآباء العزاريون |
| 1649 | انقليزية | جماعة نشر الانجيل |
| 1698 | انقليزية | جمعية التعريف بالمسيحية |
| 1701 | انقليزية | جماعة التاج المسيحي |
| 1703 | فرنسية | جماعة الروح القدس |
| 1706 | دانماركية | جماعة لوثر |
| 1732 | بوهيمية | المبشرون الجدد |

(6) من أشدّ أعداء الاسلام ومن أكبر الرافضين لنزعة الاصلاح البروتستانتي .

(7) الهاشمي الخياري (علال) ، الاسلام وايديولوجيات الفكر المعاصر الدار التونسية للنشر 1931 ص 126 .

(8) — G. Zananiri, Les Figures Missionnaires Modernes. Gasterman-Belgique-pp. 10-11.

أقبل المسيحيون الاروبيون على هذه الدعوة وتسابقوا لبعث جماعات كاثوليكية وبروتستانتية وانقليكانية وارثودوكسية من مختلف الجنسيات الاروبية[9] . ومن نماذج هذه الجماعات يستعرض كاستون زنانيري (G. Zananiri) في كتابه «مبشرون معاصرون»[10] مجموعة من الإرساليات منها[11] .

وفتر النشاط التبشيري الكاثوليكي لحساب البروتستانت في القرن الثامن عشر . وأثار البروتستانت مخاوف المرسلين الكاثوليك . أما المسلمون فنظروا إلى جميع الإرساليات على اختلاف المذاهب نظرتهم الى فئات دخيلة وخطرة ، وتنبّه رواد النهضة العربية الى مخاطر عمل المبشرين المسحيين فكتب جبران خليل جبران[12] «... كان التعلم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضورون، ولقد أحيانا ذلك الخبز ، ولما أحيانا أماتنا . أحيانا لأنّه أيقظ بعض مداركنا ونبّه عقولنا قليلا ، وأماتنا لأنّه فرّق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة ومختلفة الأذواق ، متضاربة المشارب ، كل مستعمرة منها تشدّ في حبل إحدى الأمم الغربية ، وترفع لواءها وتترنّم بمحاسنها وأمجادها»[13] .

وفي الغرب الكاثوليكي ألّف شاطوبريان(Chateaubriand) (1768 م — 1848 م) كتاب «عبقرية المسيحية» (Génie de Christianisme) متخطيا فلسفة الموسوعيين ومغتنما ضعف النابولونيين ومعتمدا مواقف المساندة البابوية . وأعطى التطوّر الاقتصادي الأروبي دفعا جديدا للنشاط التبشيري ، فساند المبشرون النزعة الاستعمارية ، وتستّروا وراء شعار «نشر العقيدة المسيحية» أو شعار «الريادة الجغرافية» ، فكانت تجربة ليبرمان (Libermann) (1847 م — 1935 م) على غرار تجربة الكاهنة جافوهاي (Javouhay) ونسج على منوالهما الكاردينال لافيجري (Lavigerie) (1825-1892) . وكان ليفنستون (Livingstone) (1813 م — 1873 م) ، قد أعطى إشارة الريادة التبشيرية والجغرافية في أواسط افريقيا .

انتهج المبشرون أسلوب الحوار على طريقة القديس بيار(Pierre) (1182 م — 1256 م) الذي كان دعا المسلمين الى اعتناق المسيحية بقوله : «... أنا بعيد عنكم ، ولغتي غير لغتكم ، وتفكيري غير تفكيركم... وأجنبي عن تقاليدكم ومعيشتكم ، وأكتب لكم من الغرب

---

(9) — Ibid. pp. 13-17 .

(10) — الترجمة الأصلية لهذا الكتاب «وجوه المبشرين المعاصرين» .

(11) — G. Zananiri, **Les Figures Missionnaires...op.cit.**, pp. 13-17

(12) جبران خليل جبران (1883 م — 1931 م) ، مفكر ومجدد لبناني .

(13) عن موسوعة السياسة باشراف د. عبد الوهاب الكيالي . من صفحة 142 الى صفحة 147 .

وقد لا أراكم أبدا ، لكني أقترب منكم لا كمسيحي بسلاحه بل كمسيحى بكلماتي ... فبالعقل لا بالمذلّة أكتب لكم ... وأدعوكم الى الصراط المستقيم الخالد...»[14] .

وفي رسالة أوردتها «النشرية الكاثوليكية العالمية» ونسبتها الى شاب بربري من المغرب الأقصى كان حضر دفن الأب والمبشر بيريقار (Peyriguère) (توفي سنة 1956 بالدار البيضاء) . ما يؤكد أسلوب الحوار والاقتراب **والتمظهر** بالمواقف الأبوية والعطف والرأفة . «هذا المرابط ليس له امرأة ولا أولاد ، عائلته كل الفقراء . وكل النّاس اخوته . أعطى الأكل للجائع وأكسى العراة وداوى المرضى ودافع عن المظلوم ، واستقبل من ليس له مأوى . كل الفقراء عائلته ، وكل النّاس إخوته . فليرحمه الرّب »[15] .

ولعل المغرب الأقصى وهو «بلاد إسلامية خالصة يكون مثالا لما تقوم به ثلة المبشرين في غفلة أو غيبة من أبناء البلاد ... فقد جاء في تقرير لوزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية (كذا بدون تاريخ) ان المؤسسات التبشيرية التي تعمل بالمغرب لها الوسائل المددية (كذا) والمغريات ما يجعل عملها خطيرا ... وأن أعمال هذه الهيئات قد ظهرت منذ مدّة بعيدة ومرتكزة على الأخص في بعض المدن والقرى الكبرى»[16] .

---

(14) — Placid Pernot, **Image de Toumliline**, Janvier, 1962, pp. 21-24.

(15) — Informations Catholiques Internationales, n°106 du 15 Oct. 1956, pp. 23-26.

(16) مخطوطة بمكتبة الأستاذ عبد الله كنون رئيس رابطة علماء المغرب، طنجة ، وعنوان المخطوطة : **«التبشير ودلالته»** .

المخطوطة لا تحمل تاريخا وتستعرض احصائيات قد تكون في فترة ما بعد الاستقلال (1956) اذا ما اعتبرنا مكانة وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية . والاحصائيات الواردة في المخطوطة هي التالية :

3 مستشفيات .
20 عيادة ومستوصفا طبيا .
12 ملجأ ومأوي خيرية .
16 ناديا ثقافيا .
11 ناديا للتكوين المهني السنوي .
16 مدرسة ابتدائية .
3 مدارس ثانوية .
3 مكتبات عمومية .
11 جمعيات أخرى مختلفة .
95 مؤسسة في مجموعها .

ويعود الحضور المسيحي التبشيري بالمغرب الأقصى الى القرن الثالث عشر ميلاديا . حيث انتشار جماعة الفرنسيسكان على عهد الناسك فرانسوا داسّيز[17] (François d'Assise) (1182 م — 1226 م) .

وجاء ذكر المسيحيين عند مؤرخي القرون الوسطى من العرب — المسلمين بشكل طبيعي . فالبكري (ق XI) يورد ثلاثة ألفاظ للدلالة على الذين يشعرون بأنهم أجانب عن المسلمين : **مولّدون عجم** ، **أفارق** .والمفردة التي تتكرّر عند البكري هي «مولد» ويحدّدها دوسلان (de Slane) بأناس من جنس مختلط ، ويعرفهم بأنهم منحدرون من أصل روماني وبربري[18] . ويعتقد ج مارسي (G. Marçais) في كتابه «Les Arabes en Berbérie» أن الكثير من هؤلاء كانوا نصارى. والمتأكد أن هؤلاء النّاس من أصل غير عربي ، ويدخلون في التركيب الاجتماعي العربي — الإسلامي بحكم النشأة . ويسود الاعتقاد بأن المولّدين النصارى أسلموا بنسبة كبيرة مع احتفاظهم بشخصيتهم وعاداتهم . ولا يوجد أي دليل على سوء نيّة تجاه النصارى[19] .

ومع هذا تتعلل الكنيسة لتبرير سياستها التبشيرية بتخليص أتباعها ممن وقع في الأسر عن طريق الفتح الإسلامي أو عن طريق القرصنة أو ممن «ارتدّ» عن النصرانية أو الادعاء بتحرير العبيد . وكان التزم الخليفة الموحدي ، إدريس الملقب بالمأمون (ثامن خلفاء الموحدين بالمغرب 581 هـ — 629 هـ) لفرديناند الثالث (Ferdinand III) (1199 م — 1252 م) ملك قشتالة ، أن يؤسس كنيسة للنصارى بمدينة مراكش إذا ما أعانه بجيش يثبت به ملكه المتزعزع بالمغرب[20] وتمّ بناء الكنيسة ولكنّها هدّمت بعد سنتين من بنائها[21] .

---

(17) فرانسوا داّسيز أوفرنسيس الأسيزي هو مؤسس رهبنة الفرنسيسكان ، ومن أكبر قديسي المسيحية . أعرض عن الملّذات . واجتذب أتباعا كثيرين من مواطنيه بايطاليا . أخذ أتباعه بتواضعه وسلكوا مسلك الزهد والرهبنة .
زار فرانسوا داّسيز بيت المقدس باذن من البابا سنة 1219 م . وكان البابا ساعتئذ هو نربوس الثالث (1216 م — 1227 م) . ثم زار فرانسوا دمياط مصر وعاد الى روما اثر خلاف نشب بين أتباعه وتخلّى عن الزعامة الدينية سنة 1221 م .
والفرنسيسكانية ، مذهب أتباع الأسيزي ، وهم ينقسمون الى ثلاث طوائف :
1 — الرهبان الصغار Les frères mineurs .
2 — الكابوشون Les frères capucins
3 — الديريون Les récoltes
استمسك الفرنسيسكان بحياة الفقر المدقع ، وعندما شيء بهم الاصلاح اختلفوا فيما بينهم .
وخدمة للمسيحية وهب الفرنسيسكانيات أنفسهم لخدمة الانسان في مجالات روحانية وتربوية واجتماعية .

(18) — J.F.H. Hopkins, Midieval Muslim in Barbary. (Thèse) Cambridge University, 1958 p. 124.

(19) J.F.H Hopkins, «Midieval Muslim» in **Barbary.. op. cit.**, p. 127

(20) مجلة الوثائق المغربية المجموع I ص 265 .

(21) **المرجع نفسه** ص 266 .

ومع ذلك تواصل الاهتمام بمسيحي المغرب الأقصى ، فأرسلت روما السفارات وأوفدت القساوسة والرهبان . من ذلك أن البابا اينوصانت[22] الرابع أرسل القس لوبي فرديناند دوأين ليكون اسقف مراكش . وكتب ابنو صانت الرابع رسائل الى أمراء سبتة وبجاية وتونس يناشدهم فيها تسهيل الاتصال بين نصارى إماراتهم ونصارى مراكش[23] . وتوجد رسالة المأمون الموحدي إلى اينوصانت الرابع محفوظة بمكتبة الفاتيكان تحت رقم 1802 المجلد A.A.I. VIII ونشرت مجلّة «الوثائق» المغربية في المجموع I ص 226 صورة فوتوغرافية للرسالة .

وهكذا تأسست أول كنيسة بمراكش سنة 1230م وسمّيت «كنيسة القديسة مريم» في عهد المامون الموحدي ، ودخل جنود مسيحيون مرتزقة في الجيش الموحدي ، وأقاموا شعائرهم وطقوسهم الدينية . واعتنى البابا بكل ما يهمّ الجالية المسيحية بالمغرب من حقوق وامتيازات . وبدأ الحضور المسيحي بالمغرب الأقصى يتطوّر منذ القرن الثالث عشر .

| السنة | الصفة | العدد |
|---|---|---|
| 1165 م | تجار | عدد قليل لم تذكره الوثائق |
| 1219 م | مبشرون | 6 |
| 1227 م | مرتزقة | أكثر من 600 (أسلم أكثرهم) |
| 1245 م | مرتزقة وخدم | سكتت المصادر عن ذكر العدد والمحتمل أن عددهم يزيد عن الستة مائة[24] |

(22) تولى اينوصانت الرابع البابوية من سنة 1243 م الى سنة 1254 م .

(23) — Le Baron Descamps, **Histoire générale comparée des Missions** Paris, Plon 1932, pp. 509-515.

(24) — R.P.H. Kohler, **l'Eglise Chrétienne du Maroc et la Mission Franciscaine** (1221-1790), p.. 19.

وقد بحثت عن أسماء المبشرين لسنة 1219 م بين مختلف المصادر[25] الأجنبية خاصة فلم أعثر الا على خمسة :

| | |
|---|---|
| 1 — بيرار | Bérardنائب |
| 2 — أوطون | Othonقس |
| 3 — بيار | Pierreقس |
| 4 — أكّيوس | Accurseقس |
| 5 — أدجوتوس | Adjutusقس |

أما عن ظروف بناء كنيسة النصارى بمراكش فقد جاءت ضمن الشروط التي اشترطها ملك قشتالة على المأمون الموحدي مقابل المساعدة وتتلخص في :

أ — اختيار ملك قشتالة لقواعد بالمغرب الأقصى :

ب — بناء كنيسة للمسيحيين بمراكش :

ج — المجاهرة بالدّين والشعائر المسيحية :

د — منع المسيحيين من اعتناق الإسلام .

هـ — السماح للمسلمين بالتنصر[26] .

وكانت تمكنت اسبانيا ثم البرتغال من احتلال طنجة (سنة 1464 م من طرف البرتغال) وسبتة سنة 1415 م ومليلة سنة 1497 م من طرف الاسبان وبادس سنة 1564 م ، على سواحل الريف ، ومرّت طنجة وسبتة من البرتغال الى انقلترا ، وبدأت الأوضاع في المغرب الأقصى تتقهقر بعد عصر المولى محمد بن عبد الله (1757 م — 1790 م) . واتضحت الأطماع الأروبية[27] .

(25) — Gaston Duverdun, Marrakech des Origines à 1912. — Rabat- 1966 pp. 284-297
— F. Manuel P. Castellanos, **Histoiria de Marruecos... op.cit,** pp. 620 à 600. Traduction, M. Mohamed Ahmed Belhadj et Mme Hannachi.
— J.M. Sédès, **Histoire des Missions Françaises,** pp. 24.37. P.U.F. 1950.
— Le Baron Descamps, Histoire... op. cit., p. 510
— R.P. Kohler, l'Eglise... op.cit., pp. 20-26

(26) — Le Baron Descamps, Histoire... op.cit., p. 511

(27) د. يحي جلال، عبد الكريم الخطابي سلسلة أعلام العرب، ص 17 دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، مصر 1968

ويعود أوّل تدخل فرنسي في افريقيا عامة وعلى سواحلها الغربية خاصة ، إلى أيام ريشليو[28] (Richelieu) (1585 م — 1642 م) وكولبير[29] (Colbert) (1619م — 1683م) إذ كان بحارة الملك لويس الثالث عشر(Louis XIII) (1601م — 1643م) يتردّدون على شواطي غربي افريقيا منذ النصف الأول من القرن السابع عشر ، فنشأت مستعمرات صغيرة للاستراحة[30] على الطريق المؤدية الى الهند . ثم عرفت فرنسا توسعات هائلة بعد نابليون بونبارت (Napolën Bonaparte) (1769م — 1831م) . إذ تولد بنفوس الفرنسيين شعور الاستعاضة ومزاحمة انقلترا .

وكانت بدأت الاهتمامات المسيحية الفرنسية تتجه نحو المغرب الأقصى منذ سنة 1619م، ذلك أن إسحاق دورازيي[31] (Issac de Razilly) ساند فكرة ريشليو ، لتعويض البرتغاليين الذين تخلوا عن المغرب باستثناء الجديدة Mazagan ، ولتحقيق ضمانات دينية وتجارية : «تحوّل آباء كبوشيون إلى مكناس وسلا وتطوان لمؤازرة العبيد والمرتزقة المسيحيين»[32] . وتزايد الاهتمام التبشيري بالمغرب ، إذ في سنة 1681 م قدم أربعة آباء[33] إلى مدن الساحل . وبعث البابا غريغوار الخامس عشر (Grégoire XV) (1554م — 1623م) الطائفة الرومانية للدعاية . ثم أسس البابا أربان الثامن(Urbain VIII) (1623م — 1627م) المدرسة

---

(28) ريشليو، كردينال فرنسي ووزير لويس الثالث عشر ، فمن كاهن بمدينة ليصون (Luçon) الى نائب وخطيب للاكليروس سنة 1641 م . حقق ريشليو أهدافا ثلاثة منذ توليه الوزارة سنة 1624 م .
— القضاء على النزعة البروستانتية بفرنسا .
— اخضاع رجال الأعمال النمساويين .
— أوجد السلطة المطلقة للملك .
ويعتبر ريشليو أول مؤسس للامبراطورية الاستعمارية الفرنسية [كندا ، المرتينيك ، سان دومينيك ، الغواد لوب كيّيان ..] .
وكذلك أوجد البحرية الحربية لفرنسا ، وأسس الأكاديمية الفرنسية . عن Larousse en 2 Volumes (Co) Librairie Larousse, 1922.

(29) شجع كولبير التجارة الفرنسية مع المستعمرات واستجلب الصناع من الستعمرات الى فرنسا . عن Larousse en 2 Volumes Librairie Larouse, 1922.

(30) جان بور رو، الاسلام في المغرب منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، صفلحات 63-66 تعريب نجد هاجر وسعيد الغز ، بيروت 1960 .

(31) — Le Baron Henron, Histoire Générale des Missions, p. 209 Ed. Gaume Frères, -Paris- 1847.

(32) — Le Baron Henrion, Histoire... op. cit. p. 211.

(33) هؤلاء الآباء هم عن هنريون (Henrion)
— برنار موّنال Bernard Monnel
— انياس برنيد Ignace Bernède
— برنار ماج Bernard Mège
— جوزيف كاستل Joseph Castel

الدعائية لتكوين المبشرين العلميين سنة 1627م . وفي سنة 1632م تأسست ، في باريس ، جمعية التبشير بالخارج وأنشأت لنفسها معهدا تعليميا[34] .

وبدأت الصليبية ضدّ مسلمي الأندلس لنصرة مسيحي أسبانيا واتخذ الصراع مظهر حرب وطنية تهدف الى إخراج الإسلام والمسلمين من ساحة مسيحية . ففي نظر الغرب كان المسلمون غزاة محتلين ومحاربتهم هو تحرير ، وتحولت هذه النظرة بتأثير البابوية الى حرب دينية ضدّ المسلمون لنصرة مسيحيي اسبانيا فاستجابت دول أروبا ونجح البابوات في تحريك ساسة أروبا . ثم تطوّرت المسألة الى الاعتقاد بأنّه كلما اتسع مجال الصليب امتدّ نفوذ أروبا وتكاملت هكذا الدوافع التبشيرية والاستعمارية . وتاريخيا لم يكن المسلمون يهدّدون انقلترا أو ألمانيا أو فرنسا او ايطاليا لتبرير الازدواجية «التبشير والاستعمار[35]» .

ولم تنج مرّاكش[36] من هذا التحرّك المزدوج ، فذهب الاعتقاد بأن الاحتلال لا يكون آمنا إلّا بالقضاء على الاسلام وعلى طابعه الحضاري . فأعلن فرديناند الكاثوليكي(Ferdinand le Catholique) (1452م — 1516م) عن «تشجيعه لغزو الساحل المغربي الاسلامي وعلى إقامة اسقفية ببجاية وكنيسة بوهران ثم أوصت الملكة إزابيلا(Isabelle) (1451 م — 1504 م) ، بوجوب مواصلة فتح افريقيا وبعدم الانقطاع عن المحاربة من أجل الدّين ضدّ أعداء الدّين »[37] .

فالتبشير ، اذن ، هو الجبهة التي ارتكز عليها الاستعمار الغربي إزاء المغرب الأقصى وإزاء الإنسانية . والمبشّر أضحى خبيرا في الطبّ والتعليم والزراعة والعمل الاجتماعي ... ومن الواضح أن **العالم المسيحي وليست المسيحية** هو المسؤول عن عداة الغربي للمسلم[38] . وإذا كان التبشير الفرنسي في الشرق يعتمد على سياسة فرنسا وعلاقاتها التجارية فإنه أصبح

---

(34) — G. Goyau, **La France Missionnaire ...op.cit.,**, p. 27.

انظر كذلك :

— مجلة الهلال المصرية عدد أكتور 1973 «**الكبوشيون بالمغرب الأقصى فلي القرن XVII**» .

(35) — Steven Runcian, A History of the Crusades t.1 1971, pp. 89-92.

(36) تتخذ مراكش معنى المغرب الأقصى . وقد «أطلق الغربيون لفظة Etat barbaresque على المغرب الأقصى ، وعمموها على المنطقة الجغرافية لشمال افريقيا وهي تسمية اعتباطّية لمدلول عنصري متحامل «ويّفضل الدكتور عبد الجليل التميمي «استعمال كلمة الايالة المغربية» .

انظر المجلة التاريخية المغربية عدد 11/10، جانفي 1978 ص، 6 .

(37) د. عبد الجليل التميمي، **الخلفية ... نفس المصدر**، عدد 1/10 جانفي 1978 .

(38) ندوة الحوار الاسلامي — المسيحي ، الحلقة الثانية ، جمع عبد الرحمان فرناس ونشر مجلة «العلم والايمان» عدد 5، سنة 1975 .

مصدرا للديبلوماسية الفرنسية في شمال افريقيا[39] . «رغم أن لفرنسا علاقات ديبلوماسية مع الجزائر منذ سنة 1564م ومع فاس ومراكش منذ 1577م ومع تونس منذ سنة 1582م ... ولكن تأثير فرنسا منعدم[40]» . ولم يحل القرن التاسع عشر حتّى تأكد دور المبشرين في دعم الاستعمار ، ففي عهد البابا بي التاسع (Pie IX) (1792م — 1878م) (بابا من سنة 1846م — 1878م) ، رفضت القيم الليبرالية وأقرّت **العصمة البابوية** في مجتمع الفاتيكان بتاريخ **18 جويلية 1870م**[41] .

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، احتضنت دور اروبا الحملات التبشيرية ، فالكاثوليكية في حماية فرنسا والارثودوكسية تحت رعاية روسيا والبروتستانتينية تدعمها انقلترا . والهدف من الوقوف وراء التبشير هو الرغبة في تنشئة جيل يدين بالولاء للدولة التي تحمي المدرسة التبشيرية زيادة عن الولاء للثقافة الغربية والتنصل من الشخصية القومية والدّين واللغة وتجمع بعض المراجع[42] ، أن وراء المبشرين خلفية الشعور بالانتقام ممّن أسلم . فقد « لاطف سلاطين المغرب كل مسيحي اعتنق الإسلام . واعتمد المرابطون والموحدون ، وبنو مرين على المرتزقة المسيحيين ... فمن ارتدّ من هؤلاء يساهم في تطوير المغرب[43]» .

---

(39) — J.M. sédès, **Histoire op.cit.**, pp. 15-36

(40) — **Ibid**

يتعّرض سيداس في دراسته «لتاريخ التبشير الفرنسي» الى قوانين القرصنة والى عدد المحتجزين المسيحيين في ايالات شمال افريقيا الذي «بلغ ستّة آلاف» ، ويذكر هذا الباحث أن ذلك يستوج «المواساة والمؤانسة وتخفيف الالآم من طرف المبشرين» .

(41) **المصدر نفسه**

(42) — H. de La Martinière, Souvenirs du Maroc, Chap. IX «Les Chrétiens Islamisés à la Cour des Sultans du Maroc» Paris, Plon- (s.d.)

— J.M. Sédès, **Histoire**... op.cit., Chap. I, pp. 10-14 «Les Premiers Gestes Missionnaires» et pp. 46-67 «Sur tous les continent,... en Afrique».

— B. de Vaulx, **Les Missions:** Leur Histoire des origines à Bénoît VX (1914)- Paris, Fayard- 1960. Chap. I Les Missions d'Afrique» pp. 85-88.

— A. Olichon, **Histoire de l'Expansion du Catholicisme dans le Monde**.- Paris,Plon et Gay- 1936. pp. 361-364 «Les Débuts de la Société des Pères Blancs en Afrique du Nord».

— A. Ayache, **Le Maroc**. — Ed. Sociales, — Paris - 1956. pp. 49-56 «La Pénétration Européenne».

— Le Baron Descamps, **Histoire... op. cit.**, pp. 509-515. «Les Missions aux XIX et XX siècles».

(43) — H. de la Martinière, **Souvenirs... op.cit.**, Chap. IX.

وتذكر نشريّة جمعية الأب دوفوكو(Bulletin de l'Association Ch. de Foucauld) أنه لم يبق في سنة 1822م بالمغرب الأقصى الا مسيحي واحد[45] أي في بداية عهد مولاي عبد الرحمان (1822 ــ 1859م) وهو دلالة على تخلص السلطان مولاي عبد الرحمان من الحضور المسيحي . وما أن طلع عهد المولى سيدي محمد بن عبد الرحمان (1859م ــ 1873م) حتى أصبحت الايالة المغربية مقاطعة مسيحية حيث الامتيازات لرواد المسيحية ودعاتها بمقتضى **المعاهدة المغربية ــ الاسبانية** سنة 1861[46] . وحيث تأسيس المراكز التبشيرية وبناء الكنائس وجلب المبشرين . ففي المعاهدة «يتساوى الرعايا والمحميون الأسبانيون ــ سواء كانوا نصارى أو مسلمين او يهودا ــ في التمتّع بجميع الحقوق والفوائد المعترف بها بهذه المعاهدة[47] . ثم تصارعت القوى الاروبية وتسابقت للسيطرة على المغرب الأقصى .

ولم تعد لفظة «المسيحي» تستلفت انتباه المغربي وتثير شعوره فقط بل أصبحت تعكس معنى الاحتلال . وعندما بلغت أروبا مرحلة الامبريالية[48] التي هي أعلى مراحل الرأسمالية[49] تبلور الاستعمار الأروبي في مفهوم جديد مبني على حقائق اقتصادية وبشريّة ذلك أن النظام الامبريالي أيقن أن شعوب المستعمرات لن تبقى خاضعة على الدوام وسيأتي طور التخلص من الاستعمار لتمارس سيادتها على أراضيها . وانطلاقا من هذا المفهوم عمدت الدول الغربية الى البحث عن حلول بديلة تحفظ لها ديمومة السيطرة واستمرارية التأثير . فكانت فكرة مواصلة الجهود التبشيرية . إذ كان «المبشرون يطالبون حكوماتهم بالحماية والسيطرة لتسهيل جهود المبشرين»[50] . وأيقن لفنستون (Livingstone) أن افريقيا لن تقبل حضارة أروبا إذا لم تقترن

---

(44) — **Bulletin de l'Association Charles de Foucauld** Mars-Avril 1931, n° Spécial.

(45) يذكر دي فاردان 284–289 — Duverdun, **Marrakech... op.cit.,**
ان المسيحي الأوحد الذي أشير اليه هو الأب جوزي بارون (P. José Paron) .

(46) المعاهدة المغربية ــ الاسبانية لسنة 1861 (20 نوفمبر) نشرتها مجلة «الوثائق» المغربية في مجموعها الرابع لسنة 1977 .

(47) من الفصول المعترف بها :
«... ولا يمكن لأحد أن يفتش ديار الرعايا الاسبانيين ولا أن يطلع على سجلاتهم وحسباتهم وأوراقهم الا بموافقة مسبقة واذن معجل من القنصل العام ، أو القنصل ، أو نائب القنصل ، أو الوكلاء القنصليين ...» .
الفصل الخامس من معاهدة نوفمبر 861 عن مجلة الوثائق IV، 1977 .

(48) امتدت المرحلة الامبرالية من سنة 1870 م الى سنة 1914 م حيث التقدّم الصناعي الأروي وسيطرة أروبا على باقي العالم برؤوس الأموال ومنتوجات صناعتها .

(49) لينين ، الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية (وصف مبسط) موسكو، دار التقدّم ، بدون تاريخ .

(50) — **R. Découverte de l'Afrique,** Librairie Larousse, Paris 1971, p. 101

الحضارة بالتنصير والتجارة»[51] . وبسبب الموقع الاستراتيجي المهم للمغرب الأقصى من جهة وبسبب اكتشاف الثروات الطبيعية الخام بجنوب افريقيا[52] ضاعفت الدول الامبريالية اهتمامها بتقوية ودعم الكيان التبشيري .

فمع نهاية النصف الأوّل من القرن التاسع عشر ، بدأ للغرب المسيحي أنه من الأهمية القصوى تأسيس جهاز لجمع المعلومات عن القارة الافريقية عموما وعن الساحل الغربي للقارة خصوصا . وفي البداية لم تكن اوضاع الغرب لتسمح له بإنشاء جهاز متخصّص متفرّغ . وإنما كان يعتمد على نشاط بعض الأفراد ممن لهم رغبة الرّيادة ، وفعلا تغلغل الرواد بين شعوب افريقيا ، وعمل بعضهم مرتدين الملابس العربية . والواقع أن ما كان ينقص الغرب ليس المعلومات وإنما وجود جهاز توكل اليه جمع تلك المعلومات لدراستها عند الحاجة . وكان من طبيعة عمل الرواد الاتصال اليومي مع السكان من مختلف الفئات ليستقوا المعلومات منهم حول ما يجري في مناطقهم ولنقلها الى المؤسسات الوطنية . فكان بالنسبة للمغرب الأقصى — دوفوكو (De Foucauld) قد عرف بعض السكان عن كثب ، وتعلّم لغتهم وعاداتهم وأقام علاقات معهم حيث استطاع هناك تجنيد بعض المخربين ، سواء عن طريق الصداقة او مقابل المال ، وأقام علاقات وثيقة خاصة مع بعض يهود المغرب في المناطق التي سبرها .

ومن جهة أخرى تمّ إنشاء قسم خاص[53] لتعقّب أخبار الرواد الذين توافدوا على افريقيا . هذا القسم عبارة عن مكتب استقبال بسرّ ليون (Sierra Léone) يعمل به حوالي أربع مائة أروبي منهم ستون امرأة[54] وكان قد وصل منذ سنة 1792م إلى سرّ ليون أكثر من 1.200 أروبي من مغامرين ورواد ولاجئين كانوا قد ارتكبوا جرائم في بلدانهم .

واستعانت دول اروبا ، لمدّة مستعمراتها ، بخبرة ومعلومات الرّواد . ويستعرض روني هال (R. Hall) في كتابه «اكتشاف افرقيا»[56] مجموعة من الرّواد الرسميين والمغامرين من جنسيات مختلفة وإن كان أكثرهم من انقلترا . ونكتفي ببعضهم ممن ساهم في «اكتشاف» مناطق افريقية طوال القرن الثامن عشر والنصف الأوّل من القرن التاسع عشر .

---

(51) R. Hall, Découverte... op. cit., p. 111.

(52) من الثروات الطبيعية الهامة التي أثارت التسابق الامبريالي ، الماش الذي اكتشف بجنوب افريقيا سنة 1867 م والذهب سنة 1886 م .

(53) — L'Association pour le Progrès des Découvertes des Régions Intérieures de l'Afrique.
— R. Hall, Découverte... op.cit., p.84

(54) — Ibid

(55) — R. Hall, Découverte... op.cit., pp. 86-91

(56) — R. Hall, Découverte... op.cit., pp, 82-89

| سنة | الـــرّواد | |
|---|---|---|
| 1671 | جورج فوكس | Georges Fox |
| 1673 | ريشارد باكستر | ظRichard Baxter . |
| 1772 | قرانفيل شارب | G. Sharp |
| 1773 | جايمس بروس | J. Bruce |
| 1787 | السير جوزاف بانكس | . S.J. Banks |
| 1788 | مانغوبارك | Mungo Park |
| 1820 | شجّع وزير حربية انقلترا اللورد باتورست[57] حركة الاكتشاف . | |
| 1822 | هايغ كلابرطن | H. Claperton |
| | ديكسن دانهام | D. Danham |
| | والترو ودناي | W. Oudney |

وأثارت حركة الاكتشافات حملة ضدّ تجارة العبيد قام بها فلاسفة وكتاب انقلترا[58] . ذلك أن أنقلترا بقيت تتاجر بالعبيد حتى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إذ لوحظ في عواصم أروبا وخاصة لندن «ظهور الزنوج والزنجيات يعملون في المنازل والضيعات الزراعية»[59] .

وشهد النصف الأول من القرن التاسع عشر عناية كبرى بمبشّري القارة الافريقية . هذه الحركة التبشيرية بلغت أوجها مع المبشّر والرّائد ليفنستون (Livingstone) . وهذه الحركة الواسعة تقوم بالاضافة إلى نشر الأنجيل ، بتجميع المعلومات وبتحليلها ، حيث يسمح لهم بالظهور بين مختلف الطبقات الاجتماعية . وتعلّل المبشرون بمقاومة تجارة العبيد ، أي استغلّوا مواقف فلاسفة القرن الثامن عشر بانقلترا . فأسّس الانقليكان «جمعية مقاومة تجارة العبيد» سنة 1799 م، ثم تحولت هذه الجمعية إلى «جمعية الكنائس التبشيرية» Société des

(57) اللورد باتورست (Lord Bathurst)

(58) أمثال :

- John Lock (1632-1704)
- Daniel Defoe (1660-1713)
- Alexander Pope (1688-1744)
- Dr. Johnson (1709-1784).

(59) — R. Hall, Découverte... op.cit., pp. 85-88

Eglises Missionnaires) بسرّ ليون . ومن هذه المؤسسة تخرّج زعماء التبشير من أمثال ساموبل عجيّ كروثر (Samuel Ajayi Crowther) الذى نادى بنظرية **تمسح افريقيا** بمناشدة دول أوروبا على مساعدة المبشّرين[60] . التي قد تكون مساندة رسمية ومعنوية إذ قام البابا بزيارة الشعوب المتمسحة لاعطاء الدفع المعنوي للمبشرين ثم تكون المساعدة بالأموال والامكانيات لتخليص المبشّر من صفة «التّاجر المتجوّل» أو «الجندي المدني»[61] . ويستعرض قنو[62] في كتابه «الارساليات الأجنبية» ص 84-35 جملة من قواعد تطوير التبشير كالاهتمام بثقافات الشعوب المراد تنصيرها لتشعّ المدنية الغربية وكالاعتناء بفنّ الأدب والموسيقى والتصوير والنحت لفصل المتمّسحين عن ماضيهم[63] وبهذا الاعتبار يظل التبشير ظاهرة خطيرة وقد ارتبط بالاستعمار وكوّن أخطر أسلحته ، ذلك أن التبشير وجد في جميع البلدان التي استعمرتها أوروبا . وإذا كانت أوروبا تأهل بربع سكان العالم في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر أي حوالي 460 مليون نسمة ، فإنها تحكمت في جل النشاطات العالمية وأثرّت بحضارتها[64] . سيطرت أوروبا على العالم **بالبنوك** ، التي تمركزت في انقلترا وفرنسا وألمانيا . وساعدت البنوك على نشاط حركة المعاملات وتسهيلها . إذ أن الوظيفة الأساسية هي الوساطة في الدّفع ، وتجميع العائدات النقدية بشتّى أنواعها لتضعها تحت تصرّف الرأسماليين[65] . وبذلك أصبحت التجارة العالمية تحت سيطرة أوروبا . فتأسست **المصارف التجارية** الكبرى وعزّزت الخبراء وصارت **المستعمرات مصدرا للمواد الأوليّة**، وللمنتوجات الفلاحية (القهوة من البرازيل ، والقطن من مصر والصّوف من استراليا ، واللحوم من الارجنتين...) وتلتقي هذه المواد والمنتوجات في لندن وليفربول وهامبورغ وروتردام وانفر وهافر ... لتكوّن القوّة الاقتصادية والتقنية لأوروبا[66] .

وفي الوجه المقابل ارتبطت أسواق المستعمرات بمصنوعات أوروبا . ففي أواخر القرن التاسع عشر كانت واردات[67] .

---

(60) — J. Guennou, **Les Missions Etrangères.** Paris, Saint-Paul, 1966, p. 281.

(61) — J. Guennou, **Les Missions.... op.cit.**, pp. 283-285.

(62) — Ibid.

(63) — J. Guennou, **Les Missions... op.cit.**, p. 284

(64) — L. Girard, le Monde Contemporain: Histoire et Civilisations. - Paris, Bordas- 1962, pp. 5-10

(65) لينين : **الامبريالية ... المرجع نفسه** ص 37 .

(66) — L. Girard, le Monde... op.cit., pp. 7-9.

(67) — L. Girard, Le Monde... op.cit., pp. 9-11.

افريقيا من أروبا 75% .
الصين من أروبا 60% .
أمريكا الجنوبية من أروبا 60%

وفي كل مكان تزار المخابر الأوروبية ويستشار مهندسوها ويذكر أسماء عظمائها .

وتمّخضت هذه السيطرة الاقتصادية والعلمية عن **هجرات بشريّة متنوعة في أهدافها** إذ انتشر على مختلف القارات غير الأروبية أكثر من خمسين مليون أروبي ، وحملوا معهم عاداتهم وتقاليدهم . والأكثرية اتجهت نحو أمريكا والبرازيل والأرجنتين وكندا وفضّل البعض الأراضي البعيدة الهادئة كأستراليا وزايلندة الجديدة . وبنسبة أقل انتشر الأروبيون — فرنسيين وانقليز خاصة — على القارة الافريقية ، والشمال الافريقي على وجه الخصوص .

ولا بدّ أن تتولّد عن هذا الحضور البشري الجديد نظم سياسية واقتصادية جديدة . راجت بأسواق المستعمرات البضاعة الأروبية في حين تقهقرت الصناعات التقليدية المحلّية . وعوّضت المؤسسات الصناعيّة الأروبية الاقتصاد التقليدي المعيشي . وأصبحت المزاحمة الحرّة تبدو «قانونا طبيعيا في نظر الاقتصاديين الأروبيين»[68] ، وكانت مرابيح المؤسسات الصناعية توظّف في بنوك أروبا . في حين يعيش سكّان المستعمرات تحت رحمة فواضل أروبا التي استغلّت الموانىء وراقبت التجارة وسعّرت التعريفات الجمركية واغتصبت الأراضي الزراعية الخصبة[69] .

وفي هذه الأثناء تظاهرت الكنيسة وكأنّها ساهمت في انتصار أروبا . في حين أنها تعرّضت منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الى أشدّ الانتقاد ، فهاجمها الفيلسوف الموسوعي الفرنسي ديدرو (Diderot) (1713م — 1784 م) . كما انتقدها وسخِر منها ومن أخلاق أهلها وقيمهم الفيلسوف الألماني نيتشة(Nietzche) (1844م — 1900م) في كتابه «المسيح الدجّال»[70] (Der Antichrist) .

---

(68) لينين، **الامبريالية ... المرجع نفسه** ، ص 22

(69) — L. Girard, **Le Monde... op.cit.**, p.13.

(70) ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية تحت عنوان :
— L'Antéchrist ou Imprécaution contre le Christanisme/J.C. Hémery Ed. Gallimard-Paris-1974, 122p.
وتّمت كتابة هذا المؤلف سنة 1888 . ويتضمن الكتاب محورين :
— المسيح الكّذاب وقانون معارضة المسيحية .

وأيقن رجال الكنيسة أن ثلثي البشرية يجهلون العقيدة المسيحية . وفي آسيا وافريقيا أقل من 2% من السكّان يعرفون المسيحية معرفة نظرية بدائية[71] . وفي أروبا ذاتها لا تتجاوز نسبة المسيحيين 63% مرتّبين كالتالي :[72] .

— ريفيو اسبانيا وايطاليا وجنوب غرب فرنسا ............................ 40%
— سكان المدن ............................................................ 24%
— سكان المناطق الصناعية ................................................ 4 %

وإزاء هذه الظاهرة وارضاء للكنيسة تظاهر الاستعماريون بأن الكنيسة تستطيع حمل التمدّن الأروبي الى المناطق التي يراد إخضاعها . ولمّا أقرّ البابا بي التاسّع (Pie IX) (بابا من 846ـ إلى 1878م) العصمة البابوية .. طوّر أيضا حركة التبشير بتشريك اللائكيين في توسيع مجال المسيحية ، ونادى كارل بارث (Karl Barth وهو من أتباع كالفن ومن دعاة الإصلاح «أنّ من تنكّر للإنسان على الأرض ، يتنكر للآخرة الإلـٰهية[73] . ورأى المبشرون أنّه من مبدإ المسيحية «أنها لا تخضع لثقافة معينة... وإذا احترمت الثقافة الغربية فلأنها منبع تاريخها ... والنظام الكنيسي هو الاستقامة الروحية للإنسان»[74] . انصهر المبشرون ، عندئذ ، مع مختلف النماذج التوسعية وخاصة الاستعمار . وتضاعف نشاط الإرساليات الكاثوليكية . فإذا كانت تعدّ ستّا وأربعين إرسالية مساعدة فيما بين سنة 1818م و1870م ، فإنها أصبحت تعدّ مائة وثلاثة وخمسين إرسالية مساعدة فيما بين 1870 و1914م . وتهتمّ بالنشاط العقائدي — السياسي . في مجموعة من السكان الأفارقة تقدّر بحوالي 1.596.000[75] واقترن هذا النشاط بظهور كتاب «عبقرية المسيحية» بفرنسا منذ 14 أفريل من سنة 1802 . الذي مهدّت له دور النشر بحملة دعائية واسعة ، فاعتمده المبشرون كمصدر موجه لنشاطهم ، واعتبره الساسة «كأهمّ حدث في مجال الفكر ، وأقبلوا عليه بدون تحفظ»[76] . وترجم هذا المؤلف الى عديد اللغات الأروبية . فخلق ذهنية جديدة . وظلّ القرن التاسع عشر مدينا لهذه الوثيقة التي أصبحت انجيل السياسيين ومرجع المثقفين[77] .

---

(71) — L. Girard, **Le Monde...op.cit.**, pp. 10-11

(72) — **Ibid**

(73) — L. Gérard, **Le Monde...op.cit.**, pp. 7-8.

(74) — **Ibid.**

(75) — J.L. Miège, **L'Expansion Européenne... op.cit.**, pp. 256-257

(76) — Delarouzée (Thérèse), **Extraits du Génie de Christianisme**, pp. 13-14 Librairie Larousse-Paris- 1936.

(77) — **Ibid**

وفي كتاب شاطوبريان يعدد الكاتب في المقدمة أعداء المسيحية ويستعطف الأوروبيين في الفصل الخامس من الكتاب مذكّرا بحياة المسيح عليه السلام : «... منذ أن ظهرت المسيحية ، عرقل مسيرتها ثلاثة أعداء ، أصحاب البدع والسفسطائيون وسذج الثقافة ... تألب جميعهم على المسيحية ضاحكين... والكنيسة تنتصر .. وكان فولتير[78] أحيا اضطهاد جوليان[79] ويسوع ابن نجار ... يفضّل العبد على السيد والفقير على الغنّي والأبرص على غيره .. وكل من يبكي وله جروح ...»[80] .

وفي المغرب الأقصى تستّر المبشّرون وراء غطاء الترحال والاكتشافات الجغرافية ، وتمظهروا بالعمل الإحساني مستحضرين آراء شاطوبريان ، أما دوفكو (De Foucauld) «يخاطب أهل المغرب بإحسان فرنسا لهم ما يستلزم حبّها والانصهار فيها»[81] . ويضيف المبشّر فيليكس إيبوي (Felix Ebové) (1884-1944 م) «من طبيعة الأهالي أن يجدوا في المفاهيم المسيحية راحتهم وتطورهم»[82] . ويفترض سيديس (Sédès) «... في المسيحية تتجلّى القيم الحياتيّة...» وظنّ المبشرون أنهم سيجعلون من أهل المغرب نصارى أوروبيين ، فخطّطوا للأعمال الخيرية والتعليمية والطبيّة والاقتصادية والثقافية ـــ العقائدية . واستغلّوا الوضع الاقتصادي المتخلف والحالة الثقافية المتواضعة ، فكانوا يقدّمون الحليب للرّضيع شريطة وضع الصليب على الجيد وإلّا تحرم قطرة الحليب[83] .

وهكذا يتأكد دور التبشير في التغريب وفي خدمة الاستعمار . والتبشير أنواع منها الصريح الذي يرتكز على النقاش والمجادلة في الدّين ويعتمد على السفسطة والتشكيك[84] . أمّا التبشير المختفي فيلجأ صاحبه الى حمل صناديق الإسعاف ، ويتجوّل في القرى والمداشر والدواوير والأرياف لمعالجة المرضى وتوزيع الصليب وإظهار الرحمة والإحسان . وبجانب ذلك تنشأ مدارس التعليم المسيحي (Catéchisme)[85] . فاليسوعيون (Jésuites) أدخلوا إلى النصرانية جماعات من الصين ، وجماعات من أمريكا الجنوبية وحوّلوا كثيرا من زنوج إفريقيا

---

(78) فولتير (Voltaire) (1694-1778 م) ، هاجم الكنيسة في «الرسائل الفلسفية التي نشرت سنة 1734 .

(79) جوليان (Julien) أمبراطور روما من سنة 361 م الى سنة 363 م . وكان اضطهد المسيحيين وحاول احياء عبادة روما القديمة .

(80) — Delarouzée (Thérèse), **Extraits...op.cit**, pp. 23-29.

(81) — Pierre Jalaber, **Histoire de l'Afrique du Nod.** P. 208 S.P.I.E.,— Paris — 1945.

(82) — J.M. Sédès, **Histoire des Missions Françaises,** P. 5, P.U.F. 1950.

(83) — **Le Chrétien en Dialogue avec le Monde.** pp. 77-79 Réponse de Mohammed Hamidullah. Beaucheme, Paris 1971.

(84) مجلة **الهلال المصرية** ، عدد أكتوبر 1973 ، ص 40 «من تاريخ التبشير» .

(85) أحمد ابراهيم خليل، **المستشرقون والمبشرون في العالم العربي ـــ الاسلامي** القاهرة ، المكتبة العربية 1964، ص 41 .

ــ الشرقية خاصة ــ واتبعوا نهجي التبشير الصريح والتبشير المختفي . وتمركز اليسوعيون في لبنان وأسّسوا جامعة «القدّيس يوسف» وأصدروا مجلة «الشرق» واجتذبوا ينابيع الثقافة وطبعوها بطابع أروبي ــ مسيحي[86] .

ومن المبشرين من تخلى عن النشاط العقائدي ، وتمسّك بحبّ المغامرات والأسفار وطمح الى السيطرة الشخصية على من حوله ، فإذا لم يستطع ذلك في بلاده ولم يملك أن يفعله باسمه خرج ليشبع رغباته وأطماعه[87] . وهكذا فالتبشير قد يتحوّل إلى «تجارة» و«سياسة» . ذلك أن بواعث التبشير متفاوتة . فمنها ما يعود إلى أثر الحروب الصليبية ومحاولة الحدّ من سلطة النفوذ القرآني على المسلمين ، ومنها مساعدة الاستعمار والتمظهر بخدمة التمدّن ، ومنها ما يعود إلى حلّ مشكلة الاكتظاظ السكاني بأروبا وتنشيط الحركة التجارية .

وفي المغرب الأقصى عمل مبشرو القرن التاسع عشر على مقاومة القانون الشرعي وإحياء الأعراف القبلية وإخضاعها للقانون الأجنبي (فرنسي أو اسباني) ، كما حاول المبشّرون القضاء على اللغة العربية باهتمامهم باللهجة البربريّة . وبذلك تضمحلّ المدارس القرآنية . وفي ذلك توافق بين التبشير والاستعمار : «إن العاطفة المسيحية تملي حماية المسيحيين بشمال افريقيا ... الأرض التي ازدهرت كنائسها حتى خربها البرابرة واضطهدوا ثمانية آلاف مسيحي...»[88] . وقد استطاع الأب دوفوكو بوسائل إغراء الطوارق ، أن يجعلهم يقبلون عليه ويشاورونه في شؤونهم حتى صار بمثابة «المرابط»[89] وقيل فيه إنه «يساوي أكثر من طابور احتلال كامل» . وهو الذي يقول : «إن سكان امبراطوريتنا الافريقية على أنواع مختلفة فمنهم البربر وهم أقرب النّاس إلينا ومنهم العرب وهم أقلّ استعدادا للتقدّم ...»[90] .

أما عن تزايد الاهتمام التبشيري بافريقيا عامّة وشمال افريقيا خاصّة فمرجعه إلى[91]

ــ اكتشاف مرهم الكينين (La Quinine) سنة 1820 الذّي ساعد الأروبيين على الإقامة في بيئات يكثر فيها مرض الملاريا (Paludisme) .

---

(86) موسوعة السياسة ، ح 1، ص 683، باشراف عبد الوهاب الكيالي .

(87) الخالدي وفروخ، **التبشير والاستعمار**... **المرجع نفسه** 34-35 .

(88) — Bulletin de l'Association, **Charles de Foucauld, op.cit.** p. 2

(89) علال الفاسي ، «التبشير أخطر أسلحة الاستعمار» المنشور في : **مجلة الهلال المصرية**، عدد أكتوبر 1973 ، صفحات 60-71 .

(90) **المرجع السابق** .

(91) أنظر :
— Cornevin (R.), **Histoire de l'Afrique, l'Afrique Précoloniale,** T.2 p. 447 - Paris, Payot, 1976.

— تراجع الجهود التبشيريّة في القارة الآسيوية .
— القرب الجغرافي لافريقيا من أروبا ، وتواضع وسائل دفاع شعوب افريقيا .
— ترابط أهداف الرواد الجغرافيين وجهود المبشّرين .
— زعامة الباب بي التاسع سياسة الحركات التبشيريّة .

وهكذا ظهرت إرساليات في ثوب جديد .

| سنة | الإرساليات |
|---|---|
| 1848 | جماعة مريم المتبتّلة . |
| 1856 | الإرسالية الافريقية بليون . |
| 1862 | جماعة الأب شلوت . |
| 1866 | جماعة الأب ميل — هيل . |
| 1867 | جماعة فيرونا للتبشير . |
| 1868 | الآباء البيض . |

— التعلل بمقاومة تجارة العبيد ، وهي إحدى النظريات التي اعتمدها لافيجري وساندها البابا ليون الثالث عشر (Léon XIII) سنة 1888 .

— تحوّلات أروبا خلال القرن التاسع عشر والتوسعات الاستعمارية لدوافع اقتصادية وسياسية فعسكرية ثمّ اجتماعية .

أما **الدافع الاقتصادي** ، فيتلخّص في البحث عن الأسواق واستثمار رؤوس الأموال إذ كان للتطوّر الاقتصادي ، بعيد الثورة الصناعية الثانية ، أثر كبير في توجيه الحاجة الاقتصادية فرافقه فيض في الإنتاج ، ورغبة في الحصول على المواد الخام وكان ذلك من أسباب ظهور الامبريالية .

**والدوافع السياسية والعسكرية** تتمثّل في الشعور بالقوميّة والتظاهر بالعظمة التي تكمن في النزعة التوسعية الاستعمارية . ويؤخذ على جيل فيري (Jules Ferry) (1832م — 1893م) قوله : «... أقول إن هذه السياسة الاستعمارية التوسّعية مستوحاة من واقع . ومن واجبي دعوتكم الى التأمل فيها ... ان قوّة بحرية مثل قوّتنا لابدّ أن تكون لها في البحار ملاجيء منيعة وقلاع دفاعية ومراكز تموين...»[93] .

(92) — R. Cornevin, **Histoire...op.cit.**, pp. 447-449

(93) — Journal Officiel Français, 28è séance, Juillet 1885, p. 1062.

وفرض الضغط الديمغرافي **الدّوافع الاجتماعية** ذلك أنه من الادعاءات الحضارية ، الاعتقاد بتفوق الجنس الأوروبي ، وتذّرع رجال الكنيسة بهذا التمدّن . وفي هذا المجال يؤكد الوزير الانقليزي للمستعمرات ، شامبرلان (Chamberlain) (1836م — 1914 م) هذا الإتجاه العنصري : «إني واثق بهذا الجنس وهو أعظم جنس حاكم عرفه العالم ... سيكون هذا الجنس بدون شكّ القوّة المسيطرة على التاريخ في المستقبل وعلى الحضارة العالمية...»[94] . واستوعبت فرنسا أغلب إرساليات القارة الافريقية . إذ بدأ النشاط التبشيري الفرنسي من الجزر فالسواحل ثم الدّاخل . وساهمت الشركات التجارية البحرية الكبرى بنقل المبشّرين . وكثيراً ما تساهم البوارج الحربية في نقل البعثات التبشيرية[95] . أما الدّعم المادي فيوكّل الى التّجار المحليين ، وتبقى المسؤولية السياسيّة من أنظار البلد الأم[96] (Métropole) . ولما كان للمغرب الأقصى تاريخ خاص يلائم التقاليد والعقيدة الإسلامية ، ويناقض روايات التمزّق القبلي والعقائدي التي أبرزها بعض مؤرّخي الغرب ، فإنه يتأكد بعث الرّوابط والعلاقات الاجتماعية حيث لا توجد فوارق عنصرية (بربر — عرب — زنوج) وحيث أن طبيعة التقاليد واحدة .

(94) — Cours V. Prévot, **Histoire du Monde**, 1848-1914, pp. 110-113. Librairie classique, Eugène Belin 1971.

(95) — R. Cornevin, **Histoire... op.cit.**, pp. 457-461.

(96) — **Ibid.**

# I ــ المغرب الأقصى
# في النصف الثاني من القرن التّاسع عشر

## 1 ــ المظاهر الاستعمارية الأولى بالمغرب .

في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر زاد اهتمام أروبا بالمغرب العربي . ورغم التسابق الاستعماري فيما بين بعض دول أروبا ، بقيت اسبانيا تحتفظ بعدد من القواعد على سواحل المغرب الأقصى . وظلّ المغرب الأقصى يعتمد أساسا عل الإنتاج الزّراعي والحيواني . فالتبادل التجاري بين المغرب وأروبا غير متوازن على الإطلاق إذ هو تبادل بضائع مجتمع تقليدي واقطاعي مقابل بضائع مجتمع صناعي ورأسمالي .

ومع تزايد المصالح الأروبية في المغرب ، سار الاقتصاد في صالح الأجانب وضدّ مصلحة البلاد . واحتاج السلاطين الى تكوين حماية أمنيّة وضرائبية ، فاعتمدوا على دول أروبا بتزويدهم بالبنادق والبارود ، وتحتّمت مشكلة الديون . وتحكّمت الدّول الأروبية في نشاط المبادلات التجارية البحرية خاصة . ويتبين هذا من حجم واردات وصادرات المغرب قبل معاهدة الحماية ، وذلك بحساب ملايين الأطنان[1] وذلك في سنوات 1898 ــ 1899 ــ 1900 ــ 1901 .

(1) مستخرج من : Eugène Aubin, **Le Maroc d'Aujourd'hui** 2e Edition, Armand Colin — Paris-1905, pp. 1-107.

| صادرات | واردات | ميناء |
|---|---|---|
| 59،29 | 47،50 | الصويرة |
| 20،37 | 15،05 | آسفي |
| 45،59 | 51،71 | الجديدة |
| 10،00 | 32،38 | العرائش |
| **135،25** | **147،14** | المجموع |

وفي المقابل كان نصيب الدّول الأروبية الكبرى من الصادرات المغربية وبملايين الأطنان كالتالي :(2) .

1 — ألمانيا ........................ 17،11
2 — انقلترا ........................ 31،13
3 — فرنسا ........................ 10،25

ويستورد المغرب من الدول الثلاث :

1 — انقلترا ........................ 43،66
2 — فرنسا ........................ 20،25
3 — ألمانيا ........................ 12،84 .

هذه التبعية الاقتصادية ، قد تفسّر — بجانب عوامل أخرى — سبب تخلّي المغرب الأقصى عن مواصلة الوقوف بجانب الجزائريين منذ غزت فرنسا الجزائر ، وكان سلطان المغرب عصرئذ المولى عبد الرحمان (1822—1859 م) . ومع تزايد الأطماع الأجنبية في المغرب تزايدت رؤوس الأموال الفرنسية في الدار البيضاء ، على حساب رؤوس الأموال الانقليزية في طنجة وعلى الأهمية الاقتصادية لاسبانيا في تطوان . وكانت اسبانيا أبرمت اتفاقية مع المغرب الأقصى في 20 نوفمبر 1861 م . هذه المعاهدة تأخذ بعين الاعتبار المصالح الأسبانية في المغرب الأقصى»... لا يمكن لأحد أن يفتش ديار الرعايا الاسبانيين ولا أن يطلع على

(2) — Eugène Aubin, **op.cit.**, pp. 27-110.

سجلاتهم وحساباتهم وأوراقهم إلا بموافقة مسبقة وإذن معجل من القنصل العام ، أو نائب القنصل ، أو الوكلاء القنصليين[3] . ولما أجبرت اسبانيا المغرب على دفع غرامة حربية كبيرة بعد حرب 1868 م . تذرّعت فرنسا لتأكيد حضورها بالمغرب وذلك بتسديد الغرامة الحربية لاسبانيا .

وفي نهاية القرن التاسع عشر احتاجت ألمانيا إلى أسواق جديدة لتوزيع منتوجاتها وللحصول على المواد الخام في المغرب . لكن انقلترا ذات المصالح الكبيرة في طنجة لم تقبل المزاحمة الألمانية ولا تفوّق النّفوذ الفرنسي في المغرب وتصارعت القوى الأوروبية لاستغلال المغرب ، وفقدت المغرب كيانه المعنوي ، فتجزّأ الى أوطان «كان الاتصال صعبا مراقبا بين المناطق المغربية التي قسم لها المغرب ، سواء منها الصحراوية أو الجبلية أو المدينية وخاصة المناطق التي تقع تحت النفوذ الاسباني والتي تقع تحت الحكم الفرنسي . ورغم أن حركة السفر كانت مقّيدة فقد كان اتصال المواطن المغربي الذي يسكن منطقة تحت الاحتلال الفرنسي بالجزائر مثلا أسهل من اتصاله بمنطقة يحكمها الاسبان . وكان اتصال المغربي في الشمال باسبانيا مثلا أسهل عليه من اتصاله بمنطقة الجنوب»[4] . وفي «مؤتمر مدريد» سنة 1880 م وقع تدويل طنجة واستقلال مرّاكش . وعاش المغاربة وضعيّة «تعشّش في الأفكار والخرافات والأساطير وروح الاتّكال والاستسلام للقضاء والقدر ... وكان التعلّق بالأضرحة والصالحين يحلّ محلّ العمل المخروج من المأزق»[5] . وكان للاحتلال الفرنسي للجزائر أثر في توتر العلاقات المغربيه ـــ الفرنسية لما التجأ الأمير عبد القّادر الى المغرب . ممّا أدّى إلى هزيمة أسلي (14 أوت 1844) . وأبرمت اتفاقية اكتوبر 1844 م بين فرنسا والمغرب حيث اعتبر الأمير عبد القادر شخصا خارجا عن القانون يجب تتبّعه والقبض عليه وطرده من تراب المغرب . وبدأ التغلغل الفرنسي شيئا فشيئا في الشؤون المغربية ، رغم أن فرنسا تحتلّ الدّرجة الثانية بعد انقلترا في مجال الاقتصاد .

أصبح المغرب هكذا في دوامة الاستعمار الأروبي ، وهي حقيقة واقعة ارتكزت على أسس تمزيق المغرب . وهي «ايديولوجية» اعتبرت مصالح المستعمر دون مراعاة المغاربة . وساهمت في توتير وتسميم المناخ السياسي الأروبي . والحق أنها اديولوجية مصالح وبالذات مصالح دول أروبية في المغرب الأقصى . وهذا ما يجعلها تؤدّي إلى صراع وتناحر وتنافس . فالمهمّة الأساسية للاديولوجية الأروبية هي تأكيد سياسة التوسّع لدعم الاقتصاد وهي تستهدف من وراء ذلك عزل المغاربة عن حكومتهم . لذا تولي الدول المتسابقة أهميّة خاصة في المؤتمرات

---

(3) الفصل الخامس من معاهدة 20 نوفمبر 1861 ، عن مجلة «الوثائق» المغربية، المجموع الرابع 1977 .

(4) عبد الكريم غلاب ، **تاريخ ... المرجع نفسه** ، ص 19 .

(5) **المصدر نفسه** ، ص 29-29 .

والندوات لِمصالحها ومصالح جاليتها . ولقد أدرك مولاي الحسن (1873 م — 1894 م) هذه الحقيقة وانتبه إلى خطورة الوضع ، إذ حاول إنقاذ البلاد بإدخال بعض الاصلاحات ذات الطابع الأروبي كالأجهزة العسكرية والإدارية والقضائية... فقام بإرسال بعثات عسكرية الى الخارج وأنشأ مصانع ذخيرة حربية واستعان بخبراء أجانب لتدريب الجيش ، وحاول توطيد نفوذه في مناطق النفوذ الأجنبي ، في وجدة والسوس والواحات الجنوبية . وسعى لبعث القضاء المدني في المدن التجارية للحدّ من الامتيازات القضائية الأروبية (راجع فصول وثيقة المعاهدة الاسبانية — المغربية بتاريخ 20 نومبر 1861 م) . وفي كل ذلك كان المولى الحسن يساند سياسة التوازن الدولي . ولكن هذه النظرة لم تكن صائبة حيث تبّين فشلها إثر مؤتمر مدريد الذي فتح باب الامتيازات على مصراعيه .

ولم يؤد تغيير الأشخاص في السلطنة المغربية الى تغيير في الفهم السياسي الأروبي إزاء الإيالة المغربية . وكثيرا ما تتوقّف رؤية أروبا للمغرب على رؤية المغاربة لأنفسهم . ففي عهد مولاي عبد العزيز (1880 م — 1948 م) الذي تولّى الحكم من سنة 1894 إلى سنة 1908 م ، عجزت المصالح الإدارية (المخزن) على إقرار الأمن داخل البلاد وأصبح المغرب مسرحا للمغامرين الأروبيين الذين قدموا الى المغرب للتآمر والاثراء إذ غزوا الأسواق بمستحدثات اللهو الأروبية[6] (آلات موسيقية — آلات تصوير — درّجات ...) .

وطمعا في الإصلاح ألغى المولى عبد العزيز الزكاة الشرعية والإعفاءات التي كان يتمتّع بها بعض القبائل والطبقات العليا . وأخضع جميع النّاس لضريبة موّحدة يتساوى فيها الأجانب مع المغاربة . ولكن هذا «الاصلاح» وجد معارضة شديدة من أصحاب الامتيازات الذين امتنعوا عن أداء الضريبة . والنتيجة أن عجز المخزن والتجأ الى الاستدانة الخارجية من جديد .

وتميّز المغرب تطوّر اجتماعي واقتصادي بطي ، فالملكية الفردية والقبلية من الظواهر البارزة في المناطق الجبلية خاصة . و«**أراضي الجيش**» ملك لمجتمع القبيلة ككل «**أما المراعي والمزارع**» فتعود الى كبير العائلة . «**وأرض السلطان**» لها اعتبار خاص فهي تبقى غير **مقسّمة تجنّب** التجزئة .«**وأراضي المخزن**» تكوّن املاكا واسعة تعطي إلى إقطاعيين (ténanciers) ينتفعون من الأتاوات ويستخدمون مزارعين(métayers) مقابل مرتّبات هزيلة[7] . وتبقى «**الأحباس**» في حالة خاصة إذ هي ملك يؤول لصالح المؤسسات الدينية . منها «**الاحباس الخاصة**» وينتفع منها صاحب السهر عليها و«الأحباس العامة» ترجع لمؤسسات اجتماعية وثقافية .

(6) — Eugène Aubin, **Le Maroc... op.cit.**, pp. 147-153.

(7) — **Le Siècle des Révolutions (1789-1881), p. 316.** par B. Lasinier et H. Sadkaoui S.T.D., Tunis 1967.

ويعيش الريفيون على اقتصاد مغلق فهم ينتجون ملابسهم بأنفسهم ويبنون بيوتهم ويصنعون أدواتهم . وما زاد على الحاجة يباع في أسواق محلية أسبوعية . وقلما يزيد الانتاج الريفي عن حاجة الاستهلاك المعيشي وإذا زاد فإن الضرائب والأدوات تمتصّه[8] . أمّا المدينة فهي مركز لجميع أنواع النشاط ، ففيها الصناعة التقليدية والتجارة والمؤسسات الادارية والثقافية . وسكانها حضريون قدامى ويؤلفون طائفيات(Corporations) حسب نوعيّة النشاط . في المدينة ، المسجد هو مركز الإشعاع الديني ومصدر عقائد المسلمين .

وتذهب التقديرات السكانية الى أن عدد سكان المغرب قد يكون وصل في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الى ما بين أربعة ملايين وسبعة ملايين نسمة[9] . وباعتبار التزايد الطبيعي للسكان الذي يقدّر بنسبة 3% . هذه النسبة التي تندمج في الإحصاءات القريبة للوضع الديمغرافي للمغرب حيث تذكر الإحصاءات[10] أن عدد سكان المغرب الأقصى بلغ سنة 1976 سبعة عشر مليونا ومائتي ألف ساكن ، يمكن تقدير سكان المغرب مع احتمال مجال الخطإ بحوالي ثلاثة ملايين وثلاثة مائة ألف ساكن سنة 1900 م .

وباعتماد الدراسات الغربية مع ملاحظة عدم وجود إحصاءات مغربية رسمية ، نجد أن حجم سكان المدن يتطوّر أكثر من حجم سكان الرّيف . وتعطينا البحوث الغربية نماذج للدلالة . إذ بلغ سكان المدن مع نهاية القرن التاسع عشر ما يلي :

فـــاس ............................................ 100.000
مرّاكش ............................................ 55.000
سالة (الرّباط)............................................ 35.000

مكناس ..............
طنجة ..............
تطوان ..............
الدار البيضاء ..............
} ما بين 20 ألف و25 ألف نسمة[11]

(8) — Ibid p. 319

(9) هذه التقريرات مأخوذة من :

— Joseph, Canal, **Générale, p. 100. — Paris — 1902.**

(10) — M. Beaumont, **L'Essor Industriel et l'Impérialisme Colonial,** (1878-1904). in «peuples et civilisations» t. XVIII - Paris - 1937.

(11) — Albert Ayahche, **Le Maroc. op.cit.,** p. 43.

ويبدو أن تطوّر سكان المدن الساحلية له علاقة بالحضور الأجنبي وبالنشاط الاقتصادي . فكلما تزايد عدد الأجانب وتطوّرت المدن من حيث النشاط الاقتصادي وتركّزت الإدارة والمصالح ازدادت كثافة سكان المدن . فارتفاع نسبة السكان الناشطين هو مؤشر المشاكل الاجتماعية والاقتصادية كما هو علامة الاكتظاظ السكاني[12] .

في المدن اختصّ الأندلسيون بالتجارة ورعاية الأجنّة والنحت على الخشب وعلى الحجارة والمعادن . فألفوا الطبقة الثرية والمثقفة . فبيوتهم من أفخر البيوت . وعاش اليهود من التجارة — أيضا — ومن الصناعة التقليدية وتمركزوا في أحياء خاصة تسمّى الملاحات (الملاح) (Mellah) . وفي المدينة توجد بجانب المسجد المدرسة والتعليم ذو طابع تقليدي ، لا يتعدّى القراءة والكتابة ومبادىء الحساب . وقد لاحظ جنرال فرنسي زار المغرب الأقصى وهو من الجزائر في تقرير له سنة 1834 م «... المغاربة يعرفون القراءة والكتابة ... وفي كل مدينة هناك مدرستان...»[13] .

وكانت عرفت يقظة دينية بالمغرب في أواخر القرن الثامن عشر فظهرت الرحمانية التي تأسست منذ سنة 1770 م ، والتيجانية التي تأسست سنة 1781 م . واتّسع إشعاع هذه الأخيرة حتى في افريقيا ما وراء الصحراء ، و «لعبت دورا نشيطا في مقاومة التبشير والاستعمار والدّفاع عن الإسلام وعن الثقافة العربية وعن النظم القضائية وعن العلاقات الاجتماعية»[14] . ذلك أن الوضع الاجتماعي بالمغرب ارتبط بمعاهدات تجارية مفروضة بضغوط عسكرية فيما بين 1840 م و1880 م : فالتجارة مطلقة للأجانب . وهؤلاء لا يخضعون إلا لـ 10 % من الضريبة على الواردات ، وقويت سلطة القناصل فشملوا لنظر في مسائل كان لها أن تكون من مهام المغاربة . ثم أعفي الأجانب من الضرائب وشملت الامتيازات المغاربة المحتمين بالأجانب كعمّال القناصل ووسطاء التجارة الأجنبية[15] وغيرهم . ومع هذه الظاهرة السلبية هناك تفكّك في المجتمع المغربي وتسهيل سيطرة الأجانب وتمرّد على القوانين الضرائبية للبلاد وفرض الحضور الأجنبي مواقف متباينة :

أ — **الحمايات** :التحق بصنف الأجانب كلّ من احتمى بهم . وأصبح يتمتع ببعض الامتيازات التي تحرم على غيره من المغاربة . فمعاهدة 1856 م بين انقلترا والمغرب فرضت حريّة تعيين الأجانب من يشاؤون من المترجمين والخدم وغيرهم من المغاربة . ويتخذ الأجانب نوابا في كل ثغر مع إعفاء النواب من جميع ما تفرضه القوانين المحلية على رعاياها . وأعطى

---

(12) — **Images Economiques du Monde 1976,** «Le Maroc».

(13) — **Le Siècle des Révolutions ...op.cit.,** p. 315

(14) الشيخ محمد معنينو، مجلة دعوة الحق ، العدد 3 من سنة 1391 هـ ص 145 .

(15) محمد المنوبي ، **يقظة ... المرجع نفسه**، ص 256 .

مؤتمر مدريد (3 جويلية 1880) الشرعية القانونية للأجانب من الدول التي حضرت المؤتمر وهي ألمانيا والنمسا وبلجيكا والدانمارك واسبانيا وأمريكا وفرنسا وانقلترا وإيطاليا وهولندا والبرتغال والسويد. وأهمّ ما تمّخض عليه المؤتمر بالاضافة الى اقرار امتيازات الأجانب هو تدويل «المسألة المغربية».

ب ـ **الجمعيات اليهودية** : تأسس «الاتحاد الاسرائيلي العام» بأروبا سنة 1862 م. ويهدف الى النهضة بيهود العالم. وبحكم الصفة الأروبية تدخل في شؤون المسلمين المغاربة. رغم أن اليهود استمرّوا يدفعون الجزية للسلطة المغربية حتى مطلع القرن العشرين[16] ويصعب تقدير عدد اليهود بالمغرب لغياب الإحصاءات الرسمية، وأورد. وجين أوبان(E. Aubin) عن نشرية «الاتحاد الإسرائيلي العالمي» إحصاء لمدن آهلة بنسب كبيرة من اليهود[17].

| | |
|---|---|
| ـ مرّاكش | 14.000 |
| ـ الصويرة وطنجة | 10.000 |
| ـ فـاس | 8.000 |
| ـ تطوان | 6.500 |
| ـ مكناس | 6.000 |
| ـ الدّار البيضاء | 5.000 |
| ـ العرائش، الرّباط، الجديدة، آسفي، القصر، وزّان، تازة، سيدي رحّال، مدن وقرى أخرى | 100.000 |
| ـ يهود الأطلس بلاد السيبة | 100.000 |
| المجموع: | 239.500 |

(16) — Eugène Aubin, Le *Maroc*...**op.cit.**, pp. 356-382.

(17) — **Ibid.**, p. 359.

وكانّ السكان الأجانب بالدّار البيضاء وحدها من سنة 1856 م إلى سنة 1906 م كما يلي[18]) :

| من | اسبانيا | انقلترا | فرنسا | ايطاليا | البرتغال | ألمانيا | مجهولون | مغاربة تنصروا | الجملة |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| سنة 1856 | 217 | 53 | 21 | 12 | 18 | 2 | — | 2 | 325 |
| سنة 1906 | 296 | 89 | 24 | 15 | 25 | 3 | — | 6 | 458 |

تلك إذن العوامل الاقتصادية والإجتماعية التي تدخل في ملابسات المشاكل الديمغرافية والتطورات الاقتصادية . وارتفاع عدد الأجانب راجع خاصة الى الهجرة البشرية الأروبية في اتجاه المغرب الأقصى . وإذا أعتبرت هذه المعطيات أمكن تقدير مدى ما ينطوي عليه النمّو الديمغرافي من مشاكل يصطدم بها المجتمع المغربي آنذاك . ولم يتردّد بعض الرّحالين الأجانب في المغرب عن تقديم أرقام انطلاقا من تخمينات تقريبية . في عصر كان الاقتصاد يرتكز على الزّراعة والتشجير وتربية الماشيّة . غير أن الاقتصاد المغربي بدأ يتقلّص بسبب الجهد العسكري الذي إضطرّ المغرب الى بذله لإيقاف الغزو الأجنبي للسواحل والثغور . وبمرور النشاط الاقتصادي بأيدي الأجانب ساد الشعور بعدم الأمن وانتشر الخلل والاضطراب ، وهاجر المزارعون البدو الى المدن وضواحيها وأدّى ذلك الى فراغ الباديّة وتضاؤل الجهد الفلاحي . واحتكر الأجانب مرافق الاقتصاد . ولم تكن حركة الصناعة التقليدية أكثر ازدهارا من الفلاحة . وعلى الجملة عرف المغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر اقتصادا متهاو إذ تدخلت بعض الدول الغربية لاستغلال هذا الضعف بسلوك ديبلوماسية جديدة ، فأصبحت إيديولوجيات الغربيين تتحكّم في المغرب وتكيّف أصالته الحضارية وتوجهها نحو صالح الغرب .

(18) عن وثيقة احصاء مثبوتة على شاكلة خطبياني في كتاب :
— **J.L. Miège, Les Européens à Casablanca au XIX S. (1856-1906)**

(19) المغاربة المنتصرون من مدن مجهولة .

(20) المدن المغربية السبعة هي : طنجة ــ العرائش ــ الرّباط ــ الجديدة ــ آسفي ــ الصويرة ــ سبتة ، أي المدن الساحلية .

هذه العوامل متجمعة هي التي خلقت بيئة اجتماعية متعدّدة العناصر(Composite) وبدون وحدة تكامليّة . وبدأ المغرب مستعمرة أجنبية ، فتكاثرت أطماع فرنسا واسبانيا وانقلترا وألمانيا[21] . واعتقد أن العامل السلوكي العقائدي يلتقي بالحاجة الاقتصادية والاجتماعية ، فقد جاءت المنشآت المسيحية لتعبّر عن القوّة الاقتصادية للغرب ولتستغلّ الوضع المترب للمغرب ، فقد كان الدّين بتعبير الدكتور عبد العزيز كامل عند الأجانب «تارة قائدا وتارة مصاحبا وتارة تابعا» .

تزايد عدد الأوروبيين ثلاث مرّات في مدّة خمس سنوات (1875م — 1880 م) ثم تضاعف من جديد في سنة واحدة (1904–1905) حيث بلغ في المدن المينائية (العرائش ، الرّباط ، الجديدة ، الصويرة ، آسفي ، الدّار البيضاء) حوالي 1.500 أوروبيّ بعدما كان 500 فقط سنة 1880م[22]، ويقدر الدكتور فسجربر عدد الأوروبيين بـ 5.000 نسمة (ق XIX) ودخل المغرب في تيّار الحياة الأوروبية في بعض جوانب الأقلية الاجتماعية وفي ظروف فوضى وانقسامات .

تعارضت الأطماع الفرنسية مع المصالح الانقليزية في عهد مولاي عبد العزيز (1894 — 1908 م) وسيطر الانقليزي ماك لين (Mac Lean) بتوفير ملاه للسلطان وأبعاده على الحياة السياسية[24] . ومع تزايد الأطماع الألمانية أصبح المغرب «بضاعة المساومة» الاستعمارية . وتبلورت وضعية المغرب . تفاقم التدخل الأجنبي ، وفقد التوازن ، وظلت الحلول مشلولة وعديمة الجدوى[25] . فانحطاط المغرب وهجوم الطلائع الاستعمارية هما الظاهرتان المتعارضتان . وظل المحرك الأساسي للسياسة التوسعية الأوروبية هو الحمية الدينية التي كانت بلغت أوجها في القرن السادس عشر[26] . أمّا في القرن التاسع عشر اتّسع الاستعمار معتمدا على الاستثمارات بتبديل الوسائل وتغيير الأفكار . واستجاب المغرب للظاهرتين :

اتسعت أطماع أوروبا وجاء بعضها إلى المغرب ليملي رسالته التمدنية (White man's burden) وهو يحتفظ بضغائن الماضي ويحتقر غير الأوروبيين . وأصبح الغربي في المغرب هو

---

(21) — P.L. Rivière, «Traités, codes et lois du Maroc». in, **Peuples et Civilisations,** t.1; - Paris - 1924. les textes intéressant le Maroc: **accord internationaux.**

(22) — A. Ayache, **Le Maroc. op.cit.,** pp. 49-55.

(23) — H. Terrasse, **Histoire du Maroc des Origines à l'Etablissement du Protectorat Français,** p. 406 - t.1 — Casblanca - 1949.

(24) — Ayache, **Le Maroc. op.cit.,** p.62.

(25) د. عبد الله العروي ،**تاريخ المغرب (محاولة في التركيب)** ص 228 ترجمة ذوقان قرقوط المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت 1977 .

(26) د. عبد الجليل التميمي ، **الخلفية الدينية ... نفس المصدر** .

صاحب السيادة . ولمّا كان الاسلام في نظر الأروبيين هو عدّو الحريّة التي تعبّدها الغربيون ، ألغيت السلطات القضائية ببلاد القبائل منذ سنة 1874[27] ، واحتفظ الأروبي بهذه الذهنية وهو في المغرب . واهتمّ الأجنبي بسياسة «فرّق تسُدْ» فجميع المناطق النّاطقة بالبربريّة هي بطبيعتها في منجاة من سلطة المخزن . ومناطق المخزن أتبعت فيها سياسة التزوير والدهاء[28] : محاولة كسب زعماء الزوايا وتشجيع الشذوذ عن الإسلام وإهانة التعليم الدّيني وثبط فريضة الحجّ وتعطيل صلوات الجماعة ... وانتشرت عوامل التفريق بين الأفراد والجماعات . فتباينت عقيدة أهل المدن عن عقيدة الرّيفيين وتعارضت السلطة المركزية مع الحرّيات المحلية ، ووقع احياء « ما تحت التاريخ[29]» . (زوايا ، طوائف ريفيّة — عادات فولكلورية ، حياة تقليدية ...) .

## 2 — مشكلة الأقليّات بالمغرب :

بلاد «المغرب» مصطلح[30] قصد به كتاب العرب كل الأقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل شمال القارة الافريقية أو افريقيا البيضاء كما يرد أحيانا في مؤلفات الجغرافيين الغربيين . وأخذ هذا المصطلح يتقلص جغرافيا حتى صار يطلق على مرّاكش نسبة الى العاصمة الجنوبية وذلك في ظروف يصعب تحديدها[31] . وبداية من القرن الحادي عشر ميّز الجغرافيون العرب الأقاليم البعيدة من هذا المغرب . فأطلقوا المغرب الأقصى[32] .

ومن وجهة الجغرافيا الطبيعية — الى جانب واجهة المغرب الشمالية المعروفة ببلاد الرّيف — هناك واجهة غربية مطلّة على المحيط ومحاطة بجبال الأطلس بأوديتها وأنهارها التي تصبّ في المحيط كوادي سبو ووادي السوس ووادي تنسيفق ووادي أم الربيع ووادي بورقراق . والبحر هو عامل الربط الطبيعي للوحدة البشرية . وقد أطلق الأروبيون لفظة «البربر» لأغراض متفاوتة وأطلقوها على سكان الشمال الافريقي عامة وفي أكثر الحالات أطلق الغربيون لفظة «بربر» لما توحيه من معنى بدائي . ويبدو أن لفظة البربر أطلقت على سكان شمالي افريقيا في

---

(27) د. عبد الله العروي ، **تاريخ المغرب ... المرجع نفسه** ،ص 340-341 .

(28) تقرير محمد المكي الناصري عن «الأحباس» بتاريخ أفريل 1935 م ومما جاء فيه :
«سلسلة من المشاكل والمسائل يرتبط بعضها ببعض ويتسلسل بعضها عن بعض ... تقف السلطات .. الفرنسية من اليهود والمسيحيين موقف العطف والمناصرة والتأييد ..» .

(29) العبارة مستعارة من كتاب تاريخ المغرب لعبد الله العروي ، ص 342 .

(30) حول هذا المصطلح انظر المجلة التاريخية المغربية عدد 10-11 جانفي 1978 ، ص 5 .

(31) في كتب المؤرخين العرب كالطبري (تاريخ الأمم والملوك) وكالمسعودي (مروج الذهب) لا نجد معلومات تفصيلية عن المغرب .

(32) د. سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي** ج 1، ص 61 . منشأة المعارف، الاسكندرية، 1978 .

معناها الحضاري[33] . فيقول قوتية(Gautier) في كتابه ماضي إفريقيا «إن الكتاب اللاتينيين أطلقوا كلمة Afri (الافريقيين على السكّان الذين خضعوا لحكم قرطاج أما من تمرّد على الحكم الروماني فكانوا يعرفون بأسماء قبائلهم . كاسم «المور» الذي عرفه المغرب الأقصى في عهد الرومان . وعمّم الرومان معنى اللفظة لتشمل موريطانيا والمغرب معا ومن ذلك اشتقّت كلمات مورس (Moors) بالانقليزية ومور (Maures') بالفرنسية وموروس (Moros) بالاسبانية[34] وأصل البربر اتخذ معنى الشمول لسكّان شمال افريقيا مع أنهم مجموعتان كبيرتان[35] هما البرانس والبتر . ويظهر أن المجموعة الأخيرة مشرقية الأصل وهاجرت إلى المغرب في ظروف تاريخية معينة . ولقد ناقش ابن خلدون اختلاف الكتاب في هذا الأمر ، وانتهى إلى نظرية توفيقية فقال : أنهم من أصول متعدّدة حميرية ومضرية وقبطية وكنعانية وقريسية اجتمعت في الشام[36] . ويبدو أن فكرة هجرة البربر من الشرق الى الشمال الافريقي تعبّر عن شيء من الحقيقة إذا اعتبرنا مجيء الفنيقيين واستقرارهم متمثلين في قرطاج إلى مجيء شعوب مسيحية أخرى كالرومان والبزنطيين ...

وفي المغرب الأقصى ، استقرّت قبائل «**زناتة**» عن طريق وجدة وفاس حتى سهول المحيط ، أما قبائل «**لماية**» فانتشرت على طول وادي ملوية . ثمّ استقرّت قبائل «**مكناسة**» قرب مصبّ وادي تلمسان . واستوطنت قبائل «**صنهاجة**» حول جبل الأطلس الشرقي كما استوطنت قبائل «**مصمودة**» حول الأطلس الأعلى ثم تتابعت قبائل أوربا وبرغاطة وجدالة[37] . وتطبّع البربر بالحضارة العربية الاسلاميّة من حيث السّلوك والعقيدة واللغة . على أن لهجات البربر ، التافنيغ أو التافينار (Tafinagh ou Tafinar) بقيت تستعمل عند النساء خاصة فتنقش على الحجارة أو تطرز في المنسوجات . وفي الحياة اليومية تستخدم لهجات التافينار في حدود ضيقة : في نطاق الأسرة وداخل البيت بين الزوجين أما خارج ذلك فتستعمل العربيّة بين

---

(33) — Mme Hannachie (N) **Sijilmassa et le Commerce Transsaharien** Maîtrise d'histoire - Paris — 1972, pp. 4-7.

(34) — **Ibid.**

(35) د. سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ** ... **المصدر نفسه** ، ص 83 .

(36) انظر مقدمة ابن خلدون حول أصل البربر وأصنافهم (البطون) وتوزيعهم وتنظيمهم وعاداتهم وتقاليدهم . طبعة باريس (بالفرنسية) 1956 ، ترجمة دوسلان (De Slane) الجزء VI صفحات 93-94-97-192 وغيرهما ..

(37) — R. Mauny, **Tableau Géographique de l'Ouest Africain,** P. 531- Dakar- 1961.

جميع النّاس[38] . ولقد أبرز المبّشرون «لغة البربر»[39] واختلقوا لها بمساعدة المستشرقين[40] حروفا لاتينية ، وفي ذلك رغبة في فصل البربر عن العرب وفي أحياء «عصب القومية البربرية»[41] . وهي ظاهرة سلوكية تهدف الى محو الاستمرارية التاريخية كإحدى خصائص الثقافة الحضارية . والثقافة العربية ـــ الاسلامية تخلو من العنصرية . وأمام هذه الظاهرة والملابسات رفض المغاربة موقف التخلّي والانحلال الذّاتي . فقاوم المغاربة امتياز أجانب الدول، التي شاركت في مؤتمر مدريد . قاوم المغاربة «مشكلة الحماية» لما فيها من تمييز بين المغاربة الملحقين بالأجانب وبين عامة المغاربة . وهي مشكلة صارت كارثة على المغرب والمغاربة[42] إذ عيّن الأجانب ما يشاؤون من المترجمين والخدم وغيرهم . واتّخذوا نوّابا عنهم في كل منطقة ، وللنواب الحقّ في اتخاذ مترجم واحد وبواب واحد وخادمين . ويعفى هؤلاء جميعا من كل تكاليف ـــ «وطنية» .

وكانت معاهدة المغرب مع انقلترا (1856 م) أساس الامتيازات الأجنبية إذ أستغلت الظروف المتردية لاغتصاب الحقوق وللتنّكر لنصوص المعاهدات . فتفاحش توزيع الحمايات على المواطنين المغاربة ما جعل مولاي الحسن الأول (1873-1894 م) يقول «إن إدارتنا تكاد لا تجد في البلاد من هو باق تحت سلطانها من كثرة ما منحته الدول الأجنبية من حمايات غير مشروعة»[43] وقد فاوض مولاي الحسن الأول الدّول ذات الامتيازات الكبرى[44] لتعديل قوانين الحمايات حتى توّصل الى عقد «مؤتمر مدريد» (3 جويلية 1880 م) . على أن مقرارات هذا المؤتمر لم تستجب لرغبة المغرب وكل ما جاءت به يمكن تلخيصه في ثلاث نقاط :

---

(38) — Ibid.

(39) ـــ لهجة الشلوح (سكان الأطلس الأعلى) Cleuh
ـــ لهجة سكان وادي سوس Tachelhaït
ـــ لهجة سكان الأطلس الأوسط Tamazigeth ou Jmazirhen .

(40) د. محمد البهي ،**الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي** ، ص 517 دار الفكر ـــ بيروت ـــ ط، 5، 1970 .
ومما جاء في هذا الكتاب .. ان التبشير والاستشراق كلاهما دعامة للاستعمار ، وكلاهما دعوة الى وهين القيم الاسلامية ....» .

(41) د. سعد زغلول عبد الحميد ، **تاريخ ... المرجع نفسه**، ص 87 .

(42) محمد المنوني ، **يقظة ... المرجع نفسه**، ص 40-54 .

(43) **المرجع السابق**، ص 41 .

(44) فرنسا وانقلترا واسبانيا .

— حصر عدد المحميين ،
— منع تجنس المغاربة بالجنسيات الأجنبية ،
— تدويل «المسألة المغربية» .

وقاوم المغاربة اليهود[45] الذين تدخلوا في شؤون المسلمين بالمغرب . ذلك أنه في سنة 1863 م ، ورد يهودي من انقلترا على السلطان سيدي محمّد بن عبد الرحمان (1859 م — 1863 م) ، بمراكش يطلب منه الحرية ليهود المغرب . وكان هذا اليهودي[46] أكثرهم وجاهة وثراء ، ولم يأت بنفسه الى المولى محمد بن عبد الرحمان بل أرسل صهره وهو يهودي أيضا «فقدم على السلطان وقدّم هداياه وسأل تنفيذ مطلبه . فتجافى السلطان عن ردّه مخفقا . وأعطاه ظهيرا ، فتمسّك به اليهود ، يتضمن صريح الشرع وما أوجب الله لهم من حفظ الذّمة وعدم الظلم والعسف . ولم يعطهم فيه حرّية كحريّة النصارى»[47] . ولكن تصرّف يهود المغرب في مفهوم الظهير وأوّلوه الى درجة التطاول والطيش وخاصة يهود السواحل الذين لهم علاقة يومية بالأجانب . فعقّب السلطان بكتاب آخر بيّن فيه المراد : «...إن ذلك الإيصاء إنما هو في حقّ أهل المروؤة والمساكين منهم المشتغلين بما يعنيهم ، وأما صعاليكهم المعرفون بالفجور والتطاول على النّاس والخوض فيما لا يعني فيعاملون بما يستحقّونه من الأدب»[48] . والمتأكد أن «الجمعية اليهودية الانقليزية» تدخّلت في شؤون يهود المغرب ، فقد «زار يهودي انقليزي مدريد أثناء انعقاد «المؤتمر» ليعرقل أعمال النائب المغربي بالمؤتمر»[49] . وإزاء هذا المشكل كتب وزير خارجية المغرب ليهود مرّاكش رسالة[50] تلخص موقف المغرب ، فيها طمأنة يهود مرّاكش ومناشدتهم في رفع مظالمهم الى السلطان والرّجوع الى أهل المخزن في «الدّواعي» البسيطة . واحترام أوامر الظهير بمقتضى الشروط والقوانين .

تمحورت المواقف الرّسمية ، إذن ، حول مشكلتي الامتيازات الأجنبية والجمعيات اليهودية . ولم تتحوّل المواقف الى فعل بل بقيت نظرية . ومن الطبيعي طرح المشكلة بوجه حضاري (حضارة عربية — اسلامية سابقة وحضارة أروبية جديدة) لتباين الخصوصيّات . وبطرح

---

(45) وردت العبارة باشكال متباينة فمحمد المنوني يطلق عليها «الاتحاد الاسرائيلي العام» و ج.ل مياج يطلق «اتحاد يهود العالم» والمبشرون مثل كير (Kerr) يستعمل «جمعية يهود أروبا» والقديس ولكنسن (Wilkinson) يسمي هذا الاتحاد بـ «جماعة يهود العالم» .

(46) إسمه روشائيل .

(47) محمد المنوبي ، يقظة ... المرجع نفسه ص 43 وتوابعها عن صاحب الاستقصاء، الجزء VI ص 227-228 .

(48) محمد المنوبي، يقظة .. المرجع نفسه ص 42-44 .

(49) المرجع السابق ص 43 .

(50) نص هذه الرسالة محفوظ في الخزانة الملكية بالمغرب الأقصى ومؤرخة «7 جمادى الثانية عام 1315» أي سنة 1897 م .

المشكلة على هذا الشكل تتأكد الذّات المغربية وهي «مسألة .. تعود إلى مفاهيم الأصالة والاستمرار والشمولية والتعبير»[51] . أيقن الأجانب أن الإسلام هو التأكيد الذاتي للمغاربة فضلا عن كونه عقيدة . وبالإسلام يمكن مواجهة كل تيّارات التحقير المتأتية من الغرب المسيحي . لأن المغاربة يرفضون الاندماج والذوبان في مدينة الغرب مهما تباينت عناصرهم . وعندئذ ، لحلّ هذه المسألة ، جاءت الحملات التبشيرية قصد تضبيب البعد الحضاري المغربي . وتسرّب التبشير مع التغلغل الاقتصادي الأوروبي . والدلالة على ذلك فرضت الديون المغربية للمصارف الفرنسية ممارسة الفرنسيين سلطة التحكم في مرافيء المغرب[52] .

ومن الرافضين لظاهرة التأورب والتنصير بالمغرب الأقصى كرّد فعل هم اليهود[53] . وجاء في مجلّة «الوثائق» المغربية[54] رسالة تتعلق بشكوى يهود الصويرة من حركة التنصير . أي على عهد مولاي الحسن الأول وزمن وزير الخارجية محمد بركّاش لأن الرسالة تعود إلى سنة 1879 م . وقد فتحت الهيئات المسيحية الانقليزية خاصة بميناء الصويرة ، مركزا للتبشير بين اليهود وبإغراء الفقراء من رجال ونساء وفتيان وفتيات بالمال قصد نبذ الموسوية والدخول في المسيحية . وأطلقت هذه الحركة عقلاء اليهود ، ما جعلهم يكتبون الى السّلطان لايقاف العمل التبشيري ولمنع المبشرين من السكنى بين ظهرهم . فأمر السلطان وزيره ببذل الجهد لإبعاد الانجيليين عن المغرب وعاب عليه تهاونه . ولأهمية الرسالة وجب ثبتها :

«الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه

(الطابع السلطاني الصغير بداخله الحسن بن محمد وفقه الله)

خديمنا الأرضي ، الطالب محمد بركاش.

وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته .

وبعد ، فقد رفع الشكاية لحضرتنا العالية بالله تجار اليهود بمرسى الصويرة أن أصحاب الدّين الجديد الحادثين السكنى بالصويرة اشتغلوا بالوسوسة والخوض في دينهم وحض أولادهم ومساكينهم على ابدال دينهم بدّينهم الجديد ، وأعطوهم الدّراهم التي لها بال على ذلك . حتى جلبوا منهم نحو المائتين بين صبيان وصبيات وصاروا يقرؤونهم قراءتهم . وطلبوا رفع ضررهم

---

(51) د. بشارة خضر «الأساس الايديولوجي للنهضة العربية» في : مجلة **شؤون عربية عدد 1**، ص 63 ، تونس ، 1981 .

(52) **المصدر نفسه** .

(53) محمد المنوبي ، **يقظة ... المرجعه نفسه** ، ص 44 .

(54) مجلة **الوثائق** المغربية ، المجموع الرابع لسنة 1978 ، ص 457 .
وفضلت مجلة الوثائق استعمال لفظة «التنصير» لأنها أدلّ على المعنى المراد من كلمة «التبشير» التي أدخلها الى العربية نصارى لبنان، وكما ورّد في المدخل لهذه الدراسة لفظة التبشير ألسق بالانجليّة من كلمة التنصير .

عنهم بمنعهم من السكنى معهم . فنأمرك أن تتكلم مع باشدور جنسهم ، وأن لا تقصّر معه في كل ما يبعدهم ويجليهم ويقصيهم ويطردهم عن هذه الايالة المحروسة بالله ، وقد كنّا قدّمنا لك أمرنا الشريف بذلك وظننا أنك فعلت ، فإذا به أعادوا الآن الشكاية بذلك ، والسلام .

**في 6 رجب الفرد عام 1296**»[55] .

أمّا عن الإهانات التي تلحق المسلمين من الأجانب فترد الوثائق حولها مليئة بالحسرة والتأثر ، إذ أن الأجانب يسيطرون ويميزون محتميهم ، والمحتمون يتمظهرون بالصولة والجاه إزاء غيرهم من المغاربة . وقد أبلغ المغاربة تأثرهم ورفضهم للواقع في عديد من الرسائل ، إلى السلطة ، ففي رسالة بتاريخ 25 جمادى 1280 هـ (1863 م) من مغربي يسّمى محمد بن يحيى إلى أمين الأمناء محمد بن المدني بنيس ، يتألّم كاتبها ويشتكي من أمر الحماية التي أذلّت المسلمين ... ترى الذمي لا يساوي فلسا واحدا يدخل ويخرج ولا يؤدي في الأبواب ، والمسلم يؤدي شريفا أو مشروفا»[56] وأرسل هذا المشتكي زمام الأسواق للتدليل على شكواه . وعن التبشير يقول محمد بن يحيى هذا في رسالته « ... انقلب الأمر للنصارى ، وصاروا يؤلفون المسلمين ليدخلوا في الحماية» . وقد ذكر كل ذلك «من أجل الإسلام » .

وفي رسالة ثانية[57] وجهها محمد بن بو مهدي بتاريخ «8 رجب الفرد الحرام عام 1284 هـ» أي سنة 1867 م إلى وزير خارجية سيدي محمد بن عبدا الرّحمان ، السيد محمد بركاش ، اشتكى من الحماية ، ومن نزل بالجديدة مع التجار للأشغال «بالباطل والزّور» . و«يترّسون بالنصارى» ويبدي محمد بو مهدي في رسالته حيرته إزاء المحتمين بالنصارى فيقول : «... ونحن مكلفون بما لا يخفى عليك من جانب المخزن ... ولم نجد سبيلا للتوصل اليهم ... فأشر علينا بما يكون...» . وتعدّدت مظاهر الرفض لامتيازات الأجانب ومحمييهم. وكان الرفض بروح إسلامية وحميّة وطنية . فردّ المغربي على هذه الشاكلة هو تعبير على الذّاتية المغربية . اذ يريد التذكير بانتمائه الى شعب مسلم ، ويتوسّط بذوي الأمر لاعتقاده بأن هذه النماذج من السيطرة الأجنبية وما ترتّب عنها من مشاكل ، تجد حلها عند ذوي النفوذ المغاربة .

---

(55) أصل الرسالة محفوظ قسم الوثائق بالخزانة العامة ومنها نسخة مصّورة بمديرية الوثائق الملكية ، وأخرى بمجلة الوثائق ، المجموع الرّابع لسنة 1978 تحت رقم 605 .

(56) عن مجلة «الوثائق» المجموع الرّابع لسنة 1978 ص 303 ، وثيقة رقم 545 .

(57) المرجع السابق ، ص 368 ، وثيقة رقم 571 .

هذا الافتراض المتمثل في الرفض الجماهيري . يؤيده الواقع بدليل أن الرافضين من التركيب الاجتماعي الأوسط إذ هم يمثلون الثقافة المتواضعة . أما عن علماء المغرب فقاوموا جماعيا ظاهرة الحمايات ، فمنهم عن عارض بالتأليف[58] ومن عارض بواسطة الخطب الجمعية[59] .

ان هذه المواقف النموذجية تعبير على شعور المغاربة الرّافضين ظاهرة الحمايات وبالتالي هناك صورة من الامتعاض الجماعي . أما موقف السلاطين فكان شبيها بالمواقف الجماعية ، غير أن حتمية التناوب الدوري بين السلاطين ، جعلت الرّدود تقليديّة رغم تأكيدها على أهمية التعاون بين مختلف التركيبات الاجتماعية . من ذلك أن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان استلفت الانتباه حول ادعاءات الأجانب في حقّ حماية محتميهم . «... ولابدّ من مسألة وهي تسمية من يكون في حماية القوانين ليعرفوا وينضبطوا وينحصّروا»[60] ثم «لا يعطينا اللفظ ولا يؤخذ منه بيان شافي»[61] .

وهكذا ، فظاهرة الاحتماء من أشدّ المشاكل التي أحدثها الأجانب . وقد تكون أمرّ من الاستعمار لأن الاستعمار أصاب شعوبا كثيرة ويجد مبرراته حتى بالافتعال أما أن يتمرّد أناس عن ذاتيتهم الحضارية وعن هويتهم الوطنية فهذا انحراف وإهانة . وكانت بذلك جماعة المحتمين أداة حرب نفسانية ونموذجا يعتمد عليه كل دخيل . وأقل ما تفرضه هذه الظاهرة هو الاغتراب الحضاري اذ وضع المحتمي نفسه في وسط اجتماعي خارجي ، هو تعبير عن العجز وعدم القدرة على تقرير مصيره ، وهذا العجز يفّسر بانشطار السلوك والتناقض القيمي .

---

(58) أمثال :
— أبو محمد المأمون بن عمر ، الكتاني الحسني الفاسي (توفي سنة 1892 م) ألف كتاب : **هداية الضال المشتغل بالقيل والقال** .
— أبو حامد الحاج العربي بن علي المشر في الحسين المعسكري ثم الفاسي ، كتب رسالة سنة 1873 م بعنوان : **الرسالة في أهل البصيرو الحالة** .
— أبو عبد الله محمد بن ابراهيم السباعي الحسني المراكشي (توفي سنة 1914 م) ألف كتاب : **كشف النور عن حقيقة كفر أهل باصبور** .
— أبو محمد جعفر بن ادريس الكتاني الحسني الفاسي (توفي سنة 1905 م) آلف كتاب : **الدواهي المدهية للفرق المحمية** .

(59) أمثال :
— أبو الحسن علال بن عبد الله الفاسي الفهري (توفي سنة 1896 م) له عدة خطب ضدّ أصحاب الحمايات . أشهرها : **ايقاظ السكارى المحتمين بالنصارى والويل والثبور لمن احتمى بالبصبور** .
— **أبو عيسى الهدي بن محمد بن محمد بن خضر الوزاني الحسني الفاسي** (توفي سنة 1924 م) له : **رّد على من افتى بجواز الاحتماء بالأجنبي** .
عن محمد المنوبي ، **يقظة المغرب** .. **المرجع نفسه** ، ص 256-258 .

(60) رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان الى وزير الخارجية السيد محمد بركاش بتاريخ 14 شعبان 1280 هـ أي 1363 م . وأصل الرسالة محفوظ بالخزانة الملكية ، وأخذت منها نسخة مصوّرة .

(61) الرّسالة نفسها .

والمحتمي ساهم في توسيع الهوّة بين الأجانب وبين المغاربة الأصليين . وقد يكون هذا وجه إيجابي باعتبار يقظة الشعور الذّاتي المغربي . وفي نفس الوقت يكون المحتمي عنصرا سلبيا باعتبار اغترابه وانسلاخه ومساهمته في تركيز الحضور الأجنبي .

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر يبدو أن البعثات التبشيرية تقصر نشاطها بين أفراد الجاليات المسيحية المقيمة في المدن الساحلية لممارستها نشاط التجارة . ففي كثير من المدن المغربية أقليات مسيحية تحترف التجارة وتمارس طقوسها الدينية بكل حرّيّة ، وكانت لهم كنائسهم ومقابرهم حتى أن بعض أمراء المغرب اتخذوا حرسا خاصّا من المسيحيين وسمحوا لهم

## جدول (2)
## الأقليات المسيحية بالمغرب الأقصى
## من 1856 إلى 1905

| من 1856 الى 1905 المدن الساحلية | من اسبانيا | من انقلترا | من فرنسا | من ايطاليا | من البرتقال | من المانيا | من أجناس مختلفة | مغاربة متنصرون | المجموع | النسبة المائوية |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| أماكن مجهولة | — | — | — | — | — | — | — | 2 | 2 | |
| طنجـة | 54 | 21 | 1 | 2 | 2 | — | — | 1 | 81 | |
| العرائش | 1 | — | — | — | — | — | — | — | 1 | |
| الرباط | 1 | — | 1 | — | — | — | — | — | 2 | |
| الجديدة | 14 | 10 | 1 | 1 | 5 | — | — | — | 31 | |
| أسفـي | 1 | — | — | — | — | — | — | — | 1 | |
| الصويرة | 2 | 5 | — | — | — | 1 | — | 1 | 9 | |
| سبتـة | 6 | — | — | — | — | — | — | — | 6 | |
| الدار البيضاء | 217 | 53 | 21 | 12 | 18 | 2 | — | 2 | 325 | |
| الجملة | 296 | 89 | 24 | 15 | 25 | 3 | — | 6 | 458 | %42،6 |

— J.L Miège les Européens ...op.cit

بممارسة طقوسهم الدينية(62) . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر تجاوزت البعثات المسيحية حدود نشاطها بين الأقليات الأجنبية وقامت بحملات تبشيرية بين المغاربة المسلمين . ويبين الجدول التالي(63) التواجد المسّيحي للأقليات بمدن الساحل المغربي وذلك في الربع الأخير من القرن التّاسع عشر :

| الجالية الأوروبية | اسبانيا | انقلترا | فرنسا | إيطاليا | البرتغال | ألمانيا | أجناس مختلفة | مغاربة متنصرون | المجموع | النسبة المائوية |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ألمانيا | 0 | 0 | 0 | 0 | 0 | 13 | 0 | 0 | 13 | % 1،2 |
| اسبانيا | 394 | 10 | 4 | 1 | 4 | 1 | 0 | 1 | 415 | %38،6 |
| الجزائر | 1 | 0 | 2 | 0 | 0 | 0 | 0 | 1 | 4 | % 0،3 |
| فرنسا | 2 | 0 | 50 | 0 | 0 | 0 | 0 | 0 | 52 | % 4،8 |
| جبل طارق | 12 | 41 | 0 | 4 | 0 | 0 | 0 | 0 | 57 | % 5،3 |
| انقلترا | 2 | 9 | 2 | 0 | 3 | 0 | 0 | 0 | 16 | % 1،5 |
| ايطاليا | 2 | 0 | 2 | 11 | 0 | 0 | 0 | 0 | 15 | % 1،4 |
| البرتغال | 2 | 0 | 0 | 0 | 31 | 0 | 0 | 0 | 33 | % 3 |
| أجناس مختلفة | 2 | 0 | 2 | 0 | 1 | 4 | 2 | 0 | 11 | % 1،1 |
| مجموع الجالية الأوروبية | 714 | 149 | 86 | 31 | 64 | 21 | 2 | 8 | 1.075 | |

(62) الحبيب الجنحاني ، من **قضايا الفكر** ، ص 131 .
الشركة التونسية للتوزيع 1975 .

(63) عن — J.L. Miège **Les Européens... op.cit.,**

وباعتبار أن الأمة مجتمع إنساني طبيعي مؤسس على وحدة الأرض والأصل والتقاليد على نحو كامل متفاعل في الحياة وفي الوعي الاجتماعي[64] فان الشنائية الجماعية كظاهرة ليست هي المشكلة وإنما المشكلة في كيفية إقامة العلاقة بين حضارتين وبين عقيدتين وما يتبع ذلك من خلل وقلق وانغلاق . إذ لم يكن الحضور الأروبي في المغرب الأقصى ظاهرة وقتية لا تتعدّى حدود قيمها . بل ظلت حواجز حضارية في البيوت والمدارس والمجتمع وحتى في القيادة السياسية . حيث أصبح الغربيون بشتى انتماءاتهم يتحكمون ويلجمون المغرب عن مسيرته ويعملون على اقتلاع مكوناته باعتبارها القوة الثابتة للمجتمع . وإن لم يكن ذلك فكيف يمكن تعليل سيطرة أقلية لا تفوق الألف ونيف ، في أواخر القرن التاسع عشر ، على مكّونات شعب يعد 3.300.000 نسمة[65] .

## 3 ـــ التكامل العقائدي والطبيعي :

وفي المغرب ، كأي بلد إسلامي آخر ، ليس هناك فرق بين السلطة السياسية والسلطة الدينية ، فصاحب النفوذ في الدولة هو نفسه حاكم الأمة الاسلامية ، الذي يستعين بالقاضي الأكبر المهتم بشؤون الدّين . وفي بلاد إسلامية ، كل مجموعة عقائدية تمارس طقوسها بكل حرّية ، وتتمتع ـــ من وجهة القانون ـــ بقوانينها الخاصة ، مع استثناء المجرم إذا كانت ضحيته مسلما أو مسلمة ، فهو من مشمول العدالة الاسلامية . على أنّه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اتخذت سلطة المغرب مظهرا أوليقارشيا(oligarchie) إذ سيطر حاكم الأعيان ، أو القلة على مسار القوانين : يجمع حاكم الأعيان الضرائب بمساعدة قضاة للنظر في المسائل الكبرى . وقد يلتجأ الى سلطة المخزن ، غير أن **مناطق السيبة** ، لها الاختيار في قبول أو رفض إجراءات الادارة المخزينية[66] .

والظاهرة الإيجابية في مغرب النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن أزمات الوراثة اضمحلت وقوى نفوذ السلطان وتراجعت ضغوط رؤساء الفرق الدينية ونشأ نظام الوزارات . فأدخل سيدي محمد بن عبد الرحمان ، بعد توليه الحكم بقليل ، وزارة البحر للتعامل مع التجار الأجانب[67] . وهو ما يدلّ على تكاثر هؤلاء . وموظفو هذه الوزارة يختارون من بين التّجار . ولخبرتهم في مجال التجارة قلّت التجاوزات[68] على المستوى المحلّي بين المغاربة .

---

(64) د. ابراهيم أنيس ، **اللغة بين القومية والعالمية**، ص 171 دار المعارف بمصر، 1970 .

(65) عن **— J.L. Miège , Les Européens... op,cit.**

(66) **— Eugène Aubin. Le Maroc... op.cit.**, pp. 195-225.

(67) **Ibid.** —

(68) **Ibid.** —

وقد حاول مولاي الحسن (1873–1894 م) التقرّب من أهل السيبة ليعرّف بسلطانه ولتسهيل جمع الضرائب . ونجح في توطيد نفوذه الرّوحي فقط فيذكر اسمه في صلاة الجمعة(69) . بينما ظلّ جمع الضرائب مضطربا . رغم ما للمغرب الأقصى من وحدة طبيعية ، والتسمية ذاتها تحمل في ثناياها معنى وحدة البلاد ، والملاحظ أنّ بعض المؤرخين والرحالة الغربيين(70) اعتقدوا في التقسيم الإداري (بلاد المخزن وبلاد السيبة) . وكانت عوامل التفتت السياسي في بلاد المغرب الأقصى ، والخلاف الإداري تتناقض فيما بينهما ، وتؤثر بردود فعلها على حياة المجتمع الكبير . فالانقسام السباسي (بلاد المخزن وبلاد السيبة) يضعف من كيان الوحدة الوطنية ويسبّب قيام أوجه سلبية متنوعة ، ويسهل على الاستعمار اتخاذها ذريعة . وفعلا ترتب على ذلك ظاهرة — تبدو غير منطقية — أهمية الدور الذي قامت به الأقليات المسيحية في مجريات الأحداث وليس على المستوى السياسي فحسب بل وعلى المستوى الثقافي والاقتصادي مما كانت له آثاره المباشرة في الأوضاع الحضارية . على أنه رغم التأثير على العادات والتقاليد ظل المغربي محتفظا بعروبته الخالصة ، فضلا عما حافظت عليه الجماعة المحلية التي كان لها أثرها في تكوين الخصائص المميزة للمغربي . وهذا ما يؤكد — مرّة أخرى — مميزات المغرب الأقصى ، من الوجهة الاجتماعية علاوة على الوحدة الجغرافية . فليست هناك معلومات كافية عن معتقد بربري أو غيره باستثناء «أهل الكتاب» ، مما يسمح للإسلام أن يصل الى مركز القيادة المطلقة ، وأن عرف المغرب الديانتين السماويتين السابقتين على الإسلام . وربما القيادة المطلقة للاسلام هي التي رغّبت السيا مة الدينية المسحية في التفكير باستعادة شيء من ماضيها . ذلك أن المسيحية قبل الاسلام كانت مذاهب منشقّة ومتنوعة ، ولم يكن من الصعب على الاسلام «بمبادئه التي تدعو الى المساواة والاشتراكية أن يقضي على المسيحية بسهولة في المغرب عامة»(71) . فإذا كان من المهمّ أن يكون ثمة إجماع للغرب المسيحي على إسقاط الصيغة الماضية التي سادت سكان المغرب وتحكمت في

---

(69) — A. Ayache, Le Maroc... op.cit., pp. 45-48

(70) أمثال أوجين أوبان (Eugène Aubin) الذي كتب مجموعة من الرسائل تحتوي على العديد من الملاحظات والمعلومات في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . وجمع معلوماته في كتاب يحتوي على 492 ص ، تعرض ملاحظات المؤلف العديد من أوجه الحياة اليومية ، والحكم في بلاد المغرب . واعتمد في تسجيل ملاحظاته على مخبرين مغاربة وبعضهم من الجزائر (سي قدور بن غبريت) . ذلك أن بعض الجزائريين ظّلوا عيون فرنسا في البلدان المجاورة . واعتمد أوبان على معلومات جزائري ثان (سي علال عبدي) الملحق لقنصلية فرنسا في مدينة الصويرة (Mogador) . وفي معرض الكلام على «سلاطين المغرب» سّجل المؤلف «أن مولاي عبد العزيز حاول التفتح على حضارة الغرب ، ووجد معارضة شديدة ورفضا للحضور الأجنبي على السواحل خاصة ..» ومرجع ذلك في اعتقاد أوبان الى «العصبية القبلية والعادات المتصلة بتاريخ آخر » .

(71) د. سعد زغلول عبد الحميد ، **تاريخ المغرب العربي** ، ج 1 من الفتح الى بدايةي عصور الاستقلال . ص 125–126 . الاسكندرية ، 1979 .

مصائرهم ، فإن الصيغة الجديدة يجب أن تتجاوز الموروث بحكم وضع أوروبا الاقتصادي ومجابهة وضع المغرب بشكل التحدّي .

واجه المغرب ، إذن ، تحديات مختلفة تعود الى القرن الثالث عشر ، وتنوعت انذاك التحديات ، فهي إما عقائدية او استيطانية سكانية أو عسكرية سياسية . وكلها مظاهر تغريب تبدو على شاكلة محاولات كوّنت في مجموعها أرضية الحركات التبشيرية للقرن التاسع عشر . وقد تكون ظاهرة التبشير تعكس الروابط العدائية التاريخية بين العالم الإسلامي والغرب المسيحي . فقد تمكّن المسلمون من غزو الشرق البيزنطي والشمال الافريقي وشبه جزيرة ايبيريا ، وصقلية وسردانيا حتى وصلوا أبواب فرنسا . وقد فشلت محاولات الردّ المسيحي المتمثل في الحملات الصليبية . ثم توسع العثمانيون في البلقان وأروبا الوسطى ، وأوقف العثمانيون الاحتلال الاسباني لشمال افريقيا ، وجاء الردّ المسيحي الجديد وتمثّل في طرد العثمانيين من آسيا الغربية ثم تكّامل الوضع لصالح العالم المسيحي بفرض الاستعمار . ولم يهدأ الهجوم المسيحي أبدا[72] مستغلا في ذلك تفكك الامبراطورية العثمانية ، ومن هنا بدأ التفكير في بناء امبراطورية مسيحية في شمال افريقيا[73] . ففي أوائل القرن السابع عشر وعلى وجه التحديد في نهاية العقد الثاني ، اتجهت الاهتمامات الفرنسية نحو المغرب ، إذ ساند إسحاق دي رازيبي (Isaac de Razilly) ، مستشار الكاردينال ريشليو Richelieu) ، فكرة تعويض البرتغاليين المتخلين عن المغرب الأقصى ما عدا الجديدة (Mazagan) وذلك لتحقيق الضمانات التجارية والدينية . «فتحول آباء كبوشيون[74] الى مكناس وسلا وتطوان لرفع معنويات عبيد ومرتزقة مسيحيين...»[75] وفي سنة 1631 قدم الى مدن الساحل المغربي أربعة آباء آخرون[76] لمؤازرة مسيحي المغرب[77] . وقد كتب الرّاهب قودار (l'Abbé Godard) في مؤلفه عن المغرب الأقصى أنه مازال 300 أو 400 مرتدّ عن المسيحية يعملون لصالح المغرب في ميدان المدفعية خاصة»[78] وفي ذلك دعم وتأييد رسمي من فرنسا لاسترداد من فلت من المسيحية وأسلم ، على أنّ من أسلم من المسيحيين ينتمون باعتراف دولامر تينيار ، الوزير المكلف بعلاقات فرنسا بالمغرب[79]، إلى عدة جنسيات أروبية[80] .

(72) — J.M. Sédès, **Histoire...op. cit.**, p. 13

(73) جان بول رو ، **الاسلام في المغرب** ، المرجع نفسه ، ص 34 .

(74) هم القساوسة : بيار (Pierre) وم.د وفيزان Michel de Vesins ور. دانجير R. d'Angers .

(75) — Le Baron Henrion, **Histoire Générale... op.cit.**, pp. 209-211.

(76) هم الآباء : برنار مونيل ، وانياس برناند ، وبرنار ماج وجوزيف كاستال .

(77) — Henri de la Martinière, **Souvenirs...op.cit.**, chap. IX

(78) — L'Abbé Godard, **Notes d'un voyageur**, cf. J.L. Miège. **Le Maroc... op.cit.**, p. 465.

(79) بمدينة طنجـة .

(80) — H. de la Martinière, op.cit., chap. VIII, IX, X et xi.

# جـــدول (3)

## أربيون دخلوا في خدمة المخزن

| الاسم (كما ذكر) | الأصل (البلـد) | الصفة بالمغرب الأقصى |
|---|---|---|
| ـ رضوان (Radhouane) | ـ البرتقال (؟) | ـ حاجب السلطان أمد المنصور |
| ـ جودر (Djouder) | ـ البرتغال | ـ قائد عسكري |
| ـ بيرفيز أو بيريز (Perviz ou Pérès) | ـ البرتغال | ـ حارس السلطان أحمد المنصور |
| ـ فرناندو البينو (Fernando d'el Pino) | ـ اسبانيا | ـ عبد |
| ـ البـــارون ريبادرا (Le Baron Riperdra) | ـ اسبانيا | ـ ترجمان |
| ـ كورنيت (Cornut) | ـ فرنسا | ـ مهندس معماري |
| ـ بوسلان (Boisselin) | ـ فرنسا | ـ قائد الـ (مرتدين) |
| ـ م. دوسوتلي (M. de Sautly) | ـ فرنسا | ـ هندسة عسكرية |
| ـ سيريـاك بتروبلّـــي (Cyriaque Petrobelli) | ـ ايطاليا (ترياسات) | ـ ........ |
| ـ بتروموتي (Petro Muti) | ـ ايطاليا (طوسكانا) | ـ ........ |
| ـ فرانسيسكو شيباب (Francisco Chiappe) | ـ إيطاليا (جنوة) | ـ ........ |
| ـ مجهول | ـ ؟ | ـ قائد عسكري بعد أسره |
| ـ أسرى معركة القصر | ـ ؟ | جنود |
| 250 مرتدا | ـ فرنسا | ـ ........ |

اتبعت الكنيسة في ترغيب المسيحيين لمؤازرة مسيحي المغرب ، نظام «الحرمان» (Excommunication) ، وهي عملية يسهل بمقتضاها حرمان المرتدين من «الغفران» ، وتمنع المسيحي من قراءة ما ينقد أو ينتقد أو يخالف[81] تعاليم الكنيسة . وتحت غطاء «تمدين الشعوب البدائية» و «الريادة» الجغرافية تمكن المبشرون من دخول افريقيا عامة والمغرب المجاور للجزائر خاصة[82] . حتى أنه في سنة 1827 م — 1823 م تمكّن روني كايّي[83] (Caillé) من تسجيل كل ما يتعلق بمعلومات المناطق التي مرّ بها من السنغال الى تمبكتو فالمغرب الأقصى . وواصل الفرنسيان دوفاريي (H. Duveryrier) وشارل دوفوكو(CH. de Foucauld) زيارة المناطق الغربية الشمالية من القارة الافريقية . وبذلك تهيأت الأرضية التبشيرية .

ومن زاوية مقياس التحولات الحضارية ، التي تعلل بها الرّواد المبشرون لا أثر لها في مجريات الأحداث التي تطغى عليها النزعة السياسية المتسترّة . إذ تركز اهتمام الرواد بتسجيل المعلومات التي تستهدف استثمار الشعوب . فبالطريقة هذه حقّق الغربيون إنجازاتهم التي ما كانت تحقق لولا الريادة . وقد أكدّ ذلك دوايت بيكر (Dwight Baker) في بحث حول أسباب اختفاء الكنائس المسيحية في شمال افريقيا قال فيه « ... أمّا عن اختفاء الكنائس ، فالأمر لا يتعلق بإكراه المسلمين للمسيحيين على اعتناق الإسلام ، ذلك أن المسلمين متسامحون إزاء المسيحيين بالتمسك بعقيدتهم»[84] وإذن تبقى الناحية التاريخية للريادة التبشيرية ، إنها ارتبطت ارتباطا عضويا بالتوسّع الأوربي . والتبشير لا يمكن إغفاله في البحث على حساب دراسة الاستعمار أو المسائل الحضارية . إذ أن التبشير ليس شيئا من الماضي فحسب بل هو من جوهر الحاضر والمستقبل معا . فهو النبتة التي أثمرت الاستعمار . والتبشير في شمال افريقيا وخاصة في المغرب الأقصى حركة مستمرّة تستمدّ قوّتها من «الريادة الاستعمارية» وإذا لم تكن ظاهرة التبشير سريعة في الأقاليم الثلاثة لشمال افريقيا فلأنّ إسلام هذه المناطق متأكد في نفوس السكان . فقد قاوم الأهالي[85] حركة التمسيح للحفاظ على الإسلام[86] . حتى

(81) ذهبت موريس بوكاي (Maurice Bucaille) في كتاب «القرآن والانجيل والعلم» أن القرآن ينفرد بالحقائق العلمية . وهو كتاب لن يمكن أن يكون من عمل الانسان ، الشيء الذي لا نجده في الكتب السماوية الموجودة بين أيدينا . رغم أن الكنيسة ، مع تناقضاتها ، ترفض على المسيحيين الاطلاع على غير الأناجيل

(82) — M. Chaulanges et J.M. d'hoop, **Histoire Contemporaine**, pp. 329-340 Librairie Delagrave, Paris, 1961.

(83) روني كايي (1799 م — 1848 م) رّحالة فرنسي وأول أروبي وصل حتى تمبكتو وعاد سالما . ولتحقيق ريادته قدم من السنغال حتى تمبكتو ثم المغرب الأقصى وهو متنكر في هيئة عربي .

(84) — Dwight Baker, **How a whole church vanished,** in Christiany today, Vol. XI, n°4, novembre 1966. pp. 3-5.

(85) بعض المؤلفات الغربية تورد لفظة (Indigène) في معنى التسفيل .

(86) — M. Chaulanges et J.M. d'Hoop, **Histoire...op.**, pp. 329-340.

غير المبشرون أسلوبهم بالتعاون مع الاستعمار[87] . وبالسماح الى اللائكيين بالامتزاج بالمبشرين مع الاحتفاظ بكل خصائص اللائكية . وهو تجديد في أساليب التبشير[88] ، لاظهار الرهبان مهما كانت الاتجاهات العقائدية . فيكتفي أن يكون مبشّرا إذا كان المبشّر لاتينيّا . والتصوّر التبشيري هنا صار مشاعا . وقد يكون ذلك من أوكد أسباب ضياع الاحتفاظ بالمسيحية في أروبا وانتشار موجة الإلحاد . ويذهب الاعتقاد بأن عيسى هو الذي أوصى بالتبشير لجميع أصناف المسيحيين ولو تباينت اتجاهاتهم : « ... ليكتسب اللائكي ازدواج الثقافة ، الدينية والإنسانية ، فبانسانيته يعدّل انتماءه العقائدي ، وهو يستطيع توجيه الحضارة (الأروبية) إلى حدودها الإنسانية ،، وبتسلحه بالعقيدة المسيحية وبالأبعاد الإنسانية يصير المحرّك الفعّال لرسالة الرّب ... اللائكي المسيحي داعية بطبعه ، وبحكم تعميده هو عضو في الكنيسة ، التي تساهم باشعاعها وبكلمتها وبعملها وبسلوكها وبكينونتها في تحقيق دعوة المسيح ... ورسالته...»[89] .

بهذه الذهنية المتسامحة هاجر الأروبيون[90] واستقرّوا في شمال افريقيا وأدخلوا تأثيرات المدنية الأروبية المسيحية وعززوا الحضور الاستعماري بالجزائر وهيّأوا إيالتي تونس والمغرب الأقصى . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، تكاثرت أعداد المبشرين ، ووقف الإسلام حاجزا أمام الغزو العقائدي والسياسي حتى أنّ بعض مفكري الغرب ادّعى أن السيطرة الاستعمارية على بلاد الإسلام هي من أمر الله : «انتشار السيطرة الفرنسية في البلدان الإسلامية هي من أمر الله ذاته ، وهدفها الواضح هو مراجعة الإسلام لحمايته من انحرافاته التلقائية ...»[91] .

وقد لعبت هذه الذهنية العجيبة في تعجيل استعمار شمال افريقيا وتحقيقه بصورة شاملة وذلك بسياسة الغزو في الجزائر من طرف فرنسا وسياسة الحماية في كل من تونس والمغرب الأقصى . وتشابهت السياسة في شمال افريقيا على كونها تقضي بالسماح للجالية المسيحية بتملك الأرض وبتشجيعهم على الاشتغال بالمصالح الاقتصادية في جميع صورها وألوانها مع تقديم التسهيلات الرسمية خاصة في المغرب الأقصى إذ «يستطيع التجار الاسبانيون أن يمارسوا

---

(87) — Louis Girard, **Le monde...op.cit.**, pp. 317-319.

(88) — Louis Girard, **Ibid.**

(89) — Le Laïc Chrétien dans le Dessin de Dieu, **in Eglise Vivante.** IV, 2, 1952.

(90) المقصود بالاروبيين الذين توافدوا على شمال افريقيا هو من كاثوليك وبروتستانت ومن جنسيات فرنسية ، وايطاليا واسبانية وبرتغالية .

(91) — Auguste Mouliéras, **Le Maroc Inconnu**, p. 116- Paris, Challamel 1899. «L'expansion de la domination française dans les mays musulmans a été decrétée par Dieu lui-même, dans le but évident de vérifier l'Islamisme et le prologer contre ses propres excès...»

بحرية في الأراضي المغربية أعمالهم التجارية ويستخدموا من يشاءون من السماسرة والوكلاء لترويج تجارتهم ... ولا يتدخل العامل أو أي موظف مغربي آخر في المعاملات التجارية التي تقع بين الأسبانيين والمغاربة ...»[92] . ويبدو أن المصالح الاقتصادية الأوربية ونشاط الحركات التبشيرية سار جنبا الى جنب وخاصة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالمغرب الأقصى . فقد نشط كلاهما نشاطا واسعا .

ولمّا كان المسيحيون عندئذ يسيطرون على النشاط الاقتصادي فقد اضطر المغاربة على «الغيرة» ووقفوا موقف الحاقد الرّافض للوضع . ولم يكد ينسلخ العقد الأخير من القرن التاسع عشر حتى أحسّ الأوروبيون أن المسلمين المغاربة ، ينفرون من المسيحيين وكل من يستغل . وقد كانت كارثة الجزائر اطلعت المغاربة على وضع المغرب المتداعي ، إذ كانت الكارثة منطلقا ليقظة مغربية مرّت بثلاث مراحل[93] .

أ — من 1830 إلى 1860 أي من احتلال الجزائر الى موقعه تطوان ، عرف المغرب أصول ضعفه .

ب — من 1860 إلى 1900 (تاريخ وفاة الوزير باأحمد) ، مرحلة محاولة في التجديد والإصلاح ، رغم أن معاهدة تطوان كشفت تداعي الوضع العام للمغرب ، وفي الأثناء كثر الأجانب وكثرت الحمايات .

ج — من 1900 الى 1912 (تاريخ إعلان حماية فرنسا للمغرب) ، مرحلة يقظة شعبية وركود الموقف الحكومية[94] .

أضف الى هذا أن ظروف المغاربة المادية والبشريّة لم تكن عصرئذ تمكنهم من بذل جهد متواصل لرفض الحضور الأجنبي رفضا عمليا ، وقد كان الغزو الأوربي للمغرب على شكل مؤامرات متقطعة بدأت كأنّها تخلو من غاية الاحتلال ، وكان الغزو الحقيقي والرّسمي بدأ عندما وضعت النواة الاستعمارية بـ«الجنود المدنيين» وهم الرّواد والمبشرون . كما أن علاقة المسيحي بالمسلم لم تكن علاقة ثقة واستئناس . فمنذ بدايتها كانت ظاهرة سلبية في توجيه المغرب ، إذ استهدفت سيطرة المدنية الغربية على حساب المقومات الشخصية المغربية . وبدأ المغرب الأقصى من جرّاء ذلك في ...؟ أمام الأطماع الأوربية وأشدّها نشاطا التحركات الفرنسية بعد غزو الجزائر ثم تأتي سيطرة اسبانيا على مليلة وسبتة[95] ، وأولى علامات وهن

---

(92) الفصل السابع والاربعين من معاهدة 20 نوفمبر 1861 م ، عن مجلة «الوثائق» المغربية ، المجموع IV ، 1977 .

(93) محمد المنوني ، مظاهر ... المرجع نفسه ،ص 12–29 .

(94) أنظر أيضا :
— Le Siècle des Révolutions... op.cit., p. 325.
— Eugène Aubin, le Maroc...op.cit., pp. 195-225.

(95) — A. Ayache, Le Maroc...op.cit., pp. 49-52.

المغرب هي قبول معاهدة طنجة المفروضة[96] (10 ديسمبر 1844) إذ التزم بمقتضاها السلطان مولاي عبد الرحمان بالتخلي عن مساندة الأمير عبد القادر الجزائري ، وتتابعت الأزمات الحادة التي أدّت إلى اضطراب الأحوال الداخلية وشجعت أطماع الدول الأروبية . فانفتح الطريق أمام فرنسا التي أخذت تتدّخل شيئا فشيئا في شؤون المغرب رغم أنها تأتي في الدرجة الثانية بعد انقلترا في مجال العلاقات الاقتصادية ، بمقتضى معاهدة 1856 م التي ضبطت لانقلترا الامتيازات الاقتصادية والقنصلية في المغرب الأقصى . واختلفت السياسة الفرنسية حول طريقة السيطرة على المغرب ، فالعسكريون ومعمرو الجزائر . يرون اتباع سياسة الاحتلال العسكري بينما فضّل غيرهم اتخاذ طنجة كمنطلق للتوسع المستقبلي . أمّا دلكاسي (Delcassé) وزير خارجية فرنسا من سنة 1899 إلى 1905 م ، فهو يرى ضرورة التمهيد للاحتلال بعقد اتفاقيات ثنائية مع الدول التي لها أطماع في المغرب . وفعلا سعى دلكاسي الى الاتفاق مع اسبانيا لتقسيم المغرب بينهما على أساس النفوذ الاقتصادي أو الحماية أو الاحتلال العسكري[97] . وتمّ ذلك رغم الصعوبة الكبيرة لجرّ انقلترا للموافقة ذلك أن انقلترا تريد المحافظة على مصالحها وعلى أهمية طنجة الاستراتجية بالنسبة لها . وتمّ الاتفاق في 8 أفريل 1904 . فحدّد نفوذ فرنسا في المغرب ونفوذ انقلترا في مصر وضمان حياد مضيق جبل طارق . وكانت المانيا قد تحصلت بمقتضى معاهدة 1890 على امتيازات اقتصاديه في المغرب ، فحاولت عرقلة المفاوضات الاسبانية — الفرنسيّة ، واضطرت فرنسا الى قبول مؤتمر الجزيرة الخضراء (15 جانفي 1905) ، الذي اتخذ عدّة قرارات منها :

— تأليف قوة مغربية بإدراة ضباط فرنسيين وأسبان وخاضعة لنفوذ السلطان وذلك لحفظ الأمن في الموانى .
— تحجير استيراد الأسلحة دون ترخيص حكومي .
— تحديد نسبة الرسوم القمركية على المستوردات الأجنبية بما لا يتجاوز 2،5% .
— تأكيد مبدأ المساواة بين الدول في الاستيراد والتصدير .

وهكذا أصبح المغرب خاضعا لإشراف دولي ، فعمّ غضب مختلف الأوساط المغربية وأهمها الحركة الدّينية التي قادها «ماء العينين» في الجنوب لتخليص المغرب من الضغط الأجنبي . وفي كل الحالات تمحورت القضايا حول كيفية السيطرة على المغرب والتحيز لذلك مع إهمال الطرف المغربي لكي لا يحدّ من جموح الدول الأروبية ، ولكي تتم المعادلة هذه كان لا بدّ من «المتاجرة» بأقطار أخرى . فالأزمة في المغرب لم تنته بنهاية القرن التاسع عشر ، وبقى ملفها مفتوحا لتقييم ... ج وما يمكن أن ينتج من كل اتفاق على أسلوب إقرار الصيغة المستقبلية .

---

(96) — Ibid, p. 49

(97) — Ibid, p. 55.

وصراع النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو صراع وجود في الأساس ، وفشل في تأكيد الحضور التبشيري ، في تنفيذ مخطط الطموح للتبشيرية ، ومن هنا كان تبدل أساليب الاحتلال . وهو دليل أوّلي على أن الأجانب لم يجدوا الوسيلة لتحقيق هدفهم الدائب . وحتى يحظى الأجانب بالأمن والاستقرار اتبع الأروبيون أساليب المعاهدات والموافقات وخلق الظروف المواتية لهم ، واستخدموا أسلوب الضغط على المغاربة سكان السواحل . مستهدفين إرغام السكان على اتخاذ موقف سلبي إزاء الحضور الأجنبي . وحتى يصعب على كل مغربي اكتشاف مخططات الدخلاء بالملاحظات وبذلك يمكن توفير تمركز الأروبيين في أخصب مناطق المغرب . وابتدأت المتغيّرات السياسية والديمغرافية في مصلحة الدول الغربية ، في الوقت الذي كان المغرب فيه بحاجة الى تسوية وضعه . والحقيقة الظاهرة أن الأجانب كانوا يريدون اقتطاع الأراضي الساحلية المغربية فتتمّ عملية تهجير المغاربة بشكل يبدو طبيعيا ، وكان المغرب في الوقت نفسه يئن من وطأة الأجانب المسيحيين . ومن الأهمية بمكان القول بأن المغرب لم يستجب لنداءاته المطالبة بالاعتراف بكيانه بل اعتبر كطرف هامشي . وانطلاقا من هذين الاعتبارين بعث السلطان مولاي الحسن (1873 ــ 1894 م) الى وزير خارجيته محمد بركاش ، رسالة سنة 1876 م يذكر فيها «تفاحش أمر الحماية واتسع مجاله»[98] وفي ذلك تعبير رسمي للحالة الراهنة للمغرب ، واستلفات نظر المسؤولين الى الأخطار المحدقة بالمغرب .

وفي مرحلة الاستسلام وغياب الحقائق الواضحة لمؤامرات الدول الاستعمارية تجيىء حقيقة مؤكدة ، تمثّلت في الحركات التبشيرية إذ هي واكبت التطورات والأحداث التي رسمت سيرورة التاريخ المغربي وكوّنت قوّة مساعدة لكل الأطماع . وهي تعتمد في أساس وجودها واستمرارها على دعم القوى الاستعمارية من جانب وتعتمد في الوقت نفسه على الضعف المغربي ، حيث التفكّك والانقسامات .

---

(98) رسالة من مولاي الحسن الى وزير الخارجية محمد بركاش بتاريخ 13 جمادى الأخيرة سنة 1293 هـ انظر مجلة **الوثائق** ، المجموع الرابع ، 1977 ، ص 313 .

## النشـــاط التبشيـــري

### 1 ـــ المظاهر الأولى للتبشير .

يصعب التدليل عقليا على أسباب تفضيل دين سماوي على آخر إذا لم يراجع الانسان المعاني المتكاملة كإيحاء ينيره البعد المكتوب في صيغة صوره . وأقصد بالبعد المكتوب قدرة الرسل والأنبياء الذين جعلوا البشر يرون في الشيء عمقه . فرسالات الأنبياء كلها فضائل ، وإن اختلف معتنقوها . بيد أن المسلم ــ بحكم العقيدة ــ يؤمن بجميع الأديان السماوية ولا يستبعد منها إلا «ما لحقته الشوائب والخرافات»[1] . وعندئذ يفترض التوفيق والتمييز بين الأصول الصحيحة وما يجوز رفضه وما لا يجوز . والمفاضلة بين عقيدة وأخرى لا بدّ أن تخضع للعقل[2] . وإذا اتسعت ديانة لقبول المذاهب الفكرية والاجتماعية فهي تقيم قواعد الإصلاح الاجتماعي[3] .

والمسيحية لم تكن تشريعية ولا سياسية اجتماعية بحكم نشأتها في بيئة المدنية الرومانية ذات الشرائع والقوانين . وفي الإسلام تتلاءم المصلحة الاجتماعية والمصلحة كما يوجبها الدّين . فعقيدة المسلم تفرض كفالة العاجزين والضعاف والمحرومين وحق الفرد رهين مصلحة الجماعة يفسر كيف أن الأقليات المسيحية في البلدان الإسلامية ، كانت ــ في العصر الوسيط ــ تتمتع بحماية الدولة الإسلامية وبحرية ممارسة طقوسها الدينية ، وتخضع لمبادىء الشريعة الإسلامية[5] وبذلك كانت العلاقات تتسم بروح التسامح ، ولم تتغيّر طبيعة هذه العلاقات إلا بالعداوة المسيحيّة لمّا شنّت أروبا حملاتها الصليبية ضدّ المسلمين (1096 ــ 1270) . ومع ذلك طوى المسلمون صفحة الماضي وسمحوا للأقليات المسيحية من جديد بممارسة التجارة وأداء الطقوس الدينية . ولكن الكنيسة ، بدأت سياسة ديبلوماسية لمحو الماضي ،

(1) عباس محمود العقاد ، **التفكير فريضة اسلامية** ، ص 129 دار القلم ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(2) عفيف عبد الفتاح طبارة ، **مع الأنبياء في القرآن** ، ص 11-24 دار العلم للملايين ــ بيروت ــ بدون تاريخ .

(3) انظر د. ابراهيم حركات ، **تحريف التاريخ وانحراف العقيدة** ، ص 19-41 منشورات النهضة ــ الدار البيضاء ــ 1981 .

(4) عباس محمود العقاد ، **المرجع نفسه** ، ص 193 .

(5) الحبيب الجنحاني ، **من قضايا الفكر** ، ص 113-114 الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1975 .

وأرسلت بعثاتها الدينية لتمارس نشاطها بين أفراد الجاليات المسيحية المقيمة في المدن الإسلامية[6] . ذلك أن أوروبا المسيحية تأكدت من انهيار الدولة العثمانية ، حيث الرّكود الاقتصادي وتعفن نظام الحكم وأزمة خانقة وعجز أمام التوسع الاستعماري الأوروبي[7] . وأصبح بذلك للتبشير حقّ التوسع كحقّ الاستعمار . وغيرت الكنيسة أساليب سياستها التبشيرية في القرن التاسع عشر ، إذ أصبحت لا تدعو مباشرة الى اعتناق المسيحية بل ركّزت جهودها على الأعمال الخيرية من إنشاء المستشفيات ومآوي لليتامى ووضع شعار الطبّ في خدمة التبشير ، وإنشاء المدارس ، وفي ذلك تدعيم ثقافة المستعمر[8] . وفي المغرب الأقصى أثير تاريخ الأقليات المسيحية والعودة إلى القرن الثالث عشر ، لإعطاء رسالة التبشير أسساً تاريخية . فحينما وجه مولاي الحسن الأول (1873 ــ 1894 م) بعثات من الطلبة لأوروبا ، وبدأ اللقاء بين ثقافتي الشرق والغرب ولأول مرّة في تاريخ المغرب الأقصى ، تأكد لمفكري المسيحية أنّه لا يمكن طبع ثقافة هؤلاء بطابع النفور من عقيدتهم ، وجعلهم نواة للتبعية الثقافية والتمدّنية ، ولمّا عادوا إليهم نظرة ريب[9] وبدأ الأمر لا يتعلق بصراع عقائدي بل هو صراع ايديولوجي . وما العقيدة إلا جملة مبادىء يؤمن بها الإنسان عن اقتناع عقلي وعاطفي[10] . بينما الايديولوجية[11] هي إيمان شخصي أو جماعي لثبوت علل عقلية وبراهين عملية . فالعقيدة ثابتة ويقينية لا تضرّ بمصلحة الإنسان وهي تعايشه وتتفاعل معه وتحافظ على جوهرها أما الإيديولوجية هي تعقيدات ظرفية . والعقيدة إذا فرضت تتحول الى إيديولوجية . واجتهدت الديانات بتفاوت لتعكس سائر المجتمعات ولم يتمّ لها ذلك ــ ربّما ــ لعجز رجال الدّين والفلاسفة عن تكييفها بشكل يتلاءم مع الأصول والتطوّر . فقد استنفذ المسيحيون وسائلهم ــ في أوروبا ذاتها ــ لكبح تيارات الإلحاد وخابوا، فالتجأوا الى التغطية الاستعمارية ، ونشطت الارساليات لمساعدة الاستعمار وتحولت الذهنيات واختلّ التوازن .

وصورة الكهنوتي ــ في المسيحية ــ «ليست دائما هي الصورة الحقيقية التي يكون عليها في سلوكه الشخصي»[12] لأن الكاهن يطمح في أن يصبح «الدين أداة تسلط وحكم

---

(6) — **Noëlle Levingne, Histoire 1500-1848, pp. 535-539. Office pédagogique, Paris 1961.**

(7) — **Ibid, pp. 539-546.**

(8) الحبيب الجنحاني ، **المصدر نفسه** ، ص 135 .

(9) د. ابراهيم حركات، **تحريف التاريخ** ،،، **المرجع نفسه** ص 124

(10) **المرجع نفسه** ، ص 111-114 .

(11) لتحديد معنى عقيدة **Croyance** وايديولوجية **Idéologie** رجعت الى **Larousse Universel en 2 volumes Edition, 1922.**

(12) د. إبراهيم حركات ، **تحريف التاريخ**.... **المرجع نفسه** ، ص 120

وإخضاع»[13] لمساعدة الأوروبيين على فتح الأسواق والاتجار فيها أي «فتح المراكز التي تمهّد للاستعمار»[14] . وبذلك يتكامل التبشير مع الاستعمار .

اتضحت أساليب لتبشير في المغرب الأقصى مع شارل دو فوكو (Charles de Foucauld) (1858 — 1916 م) الذي كان يسجل الأخبار والمعلومات لتبليغها إلى رجال الاستعلامات الاستعمارية . واهتمّ بالمغرب اهتماما كبيرا لبحث الوسائل التي تسهل التغلغل الاستعماري . فقد تنكّر هذا المبشر في لباس يهودي . ذلك أن المغاربة اعتادوا رؤية اليهود يوميا ، ولأنهم يعاملونهم كمغاربة معاملة شرعية لائقة بوضعهم . وكان دوفوكو يخفي تحت ستارته آلات لمعرفة الطريق وللملاحظة والتقويم (بوصلة ، ساعة ، بارومتر جيب ، دفتر تسجيل وبداخله لفة فيلم) . وقدّم دوفوكو هويته بألوان مختلفة ، فهو من مواليد بيت المقدس وهو من موسكو وهو من الجزائر — تبعا للظروف — وفي أغلب الحالات يتقمّص صفة اليهودي المتسوّل (l'ermite) ليبحث عن وضع اليهود . وساعده في كل تنقلاته الرّبي مردوخ الذي عمل كحاجب لدوفوكو يمنع كل من يريد الوصول إليه أثناء عمله ، كما ساعده بعض شيوخ الطرق لجهالتهم وطمعهم . وأطلق دوفوكو على نفسه اسما مستعارا (الرّبي يوسف)[15]) .

حاول دوفوكو وهو في بني عباس (الجزائر) ان ينصّر الكبار ففشل وحاول استيعاب الصغار لتنشئتهم على المسيحية فخاب أيضا[16] . ولمّا طال انتظاره لاحتلال فرنسا للمغرب اتجه صوب الطوارق واستقرّ في الهقار بتما نراست على بعد 700 كم من «عين صالح» أين قتل[17] . واعتبر بعض مؤرخي الغرب[18] لشمال افريقيا «أن دوفوكو نموذج للتبشير لا في المغرب الأقصى فقط بل في كل شمال افريقيا»[19] . لأنّه وإن بدأ بالريادة ، اقتنع بأن تنصير المسلمين هو الوسيلة الوحيدة لتكتسح فرنسا هؤلاء السكان ويدوم بقاؤها . فكتب بتاريخ 5 جويلية 1916 ما ترجمته : « أعتقد أنه إذا لم يتم تنصير السّكان المسلمين في شمال افريقيا ، ستقوم حركة وطنية على غرار ما حدث بتركيا».

---

(13) علال الفاسي ، **حديث عن التبشير وبعض الوثنيات الطائفية الهندية** ، ص 4 سلسلة الجهاد الأكبر ، الرباط 1974 .

(14) **المرجع السابق** .

(15) كشف دوفوكو عن طريقة عمله لجمعية الجغرافيا بباريس سنة 1885 م ، واعتبرت الجمعية أن أعمال دوفوكو من أجّل الخدمات .

(16) علال سالفاسي ، **حديث** ... **المرجع نفسه** ، ص 10، 11، 12 ،

(17) يذكر علال الفاسي (المرجع السابق) أن دوفوكو استطاع بوسائل الاغراء لرؤساء الطوارق والمجاملة لهم أن يجعلهم يقبلون عليه ويشاورونه ويعرفونه بـ «المرابط» راجع مقال عن دوفوكو في (**المرجع التاريخية المغربية**) ، عدد 17—18 وكتاب علي مراد عن الشخص نفسه .

(18) — P. Jalabert, **Histoire de l'Afrique du Nord**, pp. 200-211 S.P.I.E., Paris 1946.

(19) — **Ibid.**

وستكون نخبة من المثقفين بالمدن الكبرى متأثرة بالفكر الفرنسي ولا يكون لها إحساس الفرنسيين ولا طيبتهم ، وأن هذه النخبة تتاح لها الفرصة للاحتفاظ بمظاهر الإسلام مهما تلاشت معانيه ، لتؤثر على السكان ، بينما سيبقى الشعب من البدو الرحل جاهلا وعديم الصلة بنا متمّسكا بإسلامه ، حاقدا على الفرنسيين ، محتقرا لهم بدافع الوازع الديني وبأشياخهم ، (وهكذا تكون) معاملة الفرنسيين من رجال السلطة ، ومعمرين وتّجار ممن لا يلمس فيهم دافعا على محبتنا ولهذا فإن الروح الوطنية ستشبّ في نفس النخبة المثقفة التي عندما تتاح لها الفرصة (بسبب صعوبات داخلية أو خارجية تحدث لفرنسا) فإنها ستخرج بالإسلام لتحريض الشعب الجاهل على الثورة وتحاول خلق امبراطورية افريقية مستقلة إسلامية .

إن ثلاثين مليونا من البشر يسكنون في مستعمراتنا بشمال غرب افريقيا بما فيها الجزائر والمغرب وتونس وافريقيا الغربية ، وإن هـذه العدد سيتضاعف بعد خمسين سنة وتصبح هذه البلدان غنيّة مزدهرة وقد تعوّد سكانها على استعمال أسلحتنا وتكونت منهم نخبة بمدارسنا ، وإننا إذا لم نجعل منهم رعايا فرنسيين فإنهم سيطردوننا ، وأن الوسيلة الوحيدة ليصبحوا فرنسيين هي أن يصيروا نصارى»[20] .

وبداية من هذ الوثيقة يمكن استخراج العناصر التي تدور في أذهان المبشرين لتحقيق أمنهم واستقرارهم بتحقيق الاحتلال التنصيري . وفي ذلك أسلوب تأكيد الاستعمار وتصور التنصير على أنّه القوّة التي لا يمكن التصدّي لها لما لديها من الإمكانات الاستخبارية الهائلة ، بحيث تتمكن من رصد تحركات الزعماء والقادة علاوة على الفئة «المثقفة» . والاستنتاج الثاني ، هو تذرع واستغاثة لحماية ودعم التبشير بشمال افريقيا وغربيّها ، وهذه الظاهرة تبدو كأنها غير قابلة للحياة بدون استعمار . والحقيقة أنه باستعراض أسس تكوين المبشرين ، يظلّ العامل الاقتصادي في الدرجة الثانية ، ذلك أنه يعتمد على المساعدات والهبات والى غير ذلك ...

ومن هنا يأتي الوضع الاجتماعي والبشري في أوليات سلم المشاكل ، فبسياسة التجنس ، أرادت فرنسا إخضاع المتجنسين للتبعية الفرنسية وخلق ظروف تجزئة وانقسامات جماهرية إذ «يعتبر دفن المسلمين الذين تجنّسوا بالجنسية الفرنسية في مقابر المسلمين من الظاهرات الهامة التي حدّدت العلاقات الفرنسية ــ التونسية وعكست الهيجان الشعبي...»[21] وما ذلك إلا مظهر من مظاهر تخطيطات دوفوكو .

---

(20) أورد علال الفاسي حديث عن التبشير ... المرجع نفسه ، ص 11-12 عن الدكتور عزالدين العراقي ، مجّلة «البينة» عدد 8 ، السنة الأولى ديسمبر 1962 ، ص 65-66 تحت عنوان «**شارل دوفوكو وهب حياته لتنصير المغرب العربي خدمة للاستعمار**»

(21) رتشاردو. جونسن، «أزمة التجنيس بتونس سنة 1933» ، تعريب د. عبد الجليل التميمي **المجلة التاريخية المغربية** ، عدد 8/7 جانفي 1977 ، ص 123 .

وحاولت فرنسا إحياء قانون العرف القبلي ، لجعل النّاس يقبلون القانون المدني الفرنسي على حساب الشريعة الإسلامية وذلك بالمغرب الأقصى عملا برأي دوفوكو من أن «سكان امبراطورية فرنسا الافريقية على أنواع مختلفة فمنهم البربر وهم أقرب النّاس لفرنسا ومنهم العرب وهم أقل استعدادا للتقدّم»[22] . وفي هذا الرأي قضيتان تنبثقان عن التركيب الاجتماعي . ففي الحالة الأولى إمكانية اندماج البربر بالفرنسية وفي الحالة الثانية استبعاد العرب عن التمدّن الغربي . وهذا التقسيم يولّد الزعامات البربرية وإبراز التناقضات الحادة التي تؤدي الى صراع مستمرّ بين البربر والعرب الذين يؤلفان مجتمعا واحدا في اللغة والعادات والتقاليد والطباع والحضارة . ويبدو أن العامل الرئيسي الذي يعتبره دوفوكو هو الخوف الداخلي لمستعمرات فرنسا وكذلك التخويف من احتمال خطر قادم من الخارج ، ولعلها إشارة الى الصراعات بين قوى دول أوروبا . واعتقد الفرنسيون وهم بالجزائر أن سياسة التنصير ستمكنهم من البقاء والدوام[23] . وذلك بتأمين الإنسان الأوروبي ليكون المقاتل والمزارع والفلاح والعامل والمبشّر والمستوطن الذي تستوعب بواسطته كل ثمار الاستعمار .

والسياسة البربرية ليست سياسة جديدة ، بل هي من تقاليد الاستعمار الفرنسي خاصة في شمال افريقيا ، وهي سياسة تهدف الى مقاومة الإسلام لأنه مصدر الشريعة والعقيدة و«الحارس للثقافة العربية ودستور الأمة المغربية»[24] . وحتّى يضمّ المغرب الأقصى ضمّا نهائيا «أجمع» الاستعماريون على إبادة «الإسلام لما فيه من عاطفة تحول دون التمدن»[25] ، حسب زعمهم .

فمعالجة الموقف يتمثل في استيعاب البربر باحياء قوانينهم العرفية وإدماجها في القانون الفرنسي حتى يتحاكم البربري والعربي على السواء إلى قانون فرنسا . وذهب الفرنسيون الى الاعتقاد بأن «البربر كانوا وما زالوا مسيحيين ، وأن دعاة المسيحية الذين بثّتهم فرنسا بين القبائل البربرية ، إنما هم وعاظ يذكّرون إخوانهم البربر بدينهم القديم ، لا دعاة الى دين جديد أو معتقدات غربية »[26] . ويتجاوز الفرنسيون ذلك في «البرابرة هم الذين فتحوا اسبانيا وغزوا فرنسا وفتحوا إيطاليا وكانوا مسيحيين»[27] .

ومن هذا المنطلق جعلت الأولوية ، في قائمة الاهتمامات الاستعمارية ، الاعتناء بالرواد والمبشرين وذلك للحيلولة دون تعاظم الشعور الديني الإسلامي في نفوس السكان . وقد

(22) د. عزالدين العراقي ، أورده علال الفاسي ، حديث عن التبشير ، نفس المرجع .

(23) محمد المكي الناصري ،تقرير ... المرجع نفسه .

(24) المرجع السابق، أنظر المقدمة .

(25) — P. Jalabert, Histoire...op.cit., pp. 58-81.

(26) — Ibid., pp. 167-200.

(27) — Ibid.

«عمل دوفوكو على نشر النفوذ الفرنسي وإدماج السكان في الحضارة الفرنسية وتنصيرهم ، والتنصير هو المقصود الأساسي في اعتقاد دوفوكو ، والتعمير وسيلة لتحقيقه»(28) وموقف دوفوكو هذا يتميّز بالعمل على طمس أساس قضية الاحتلال الظاهري لتنفيذ مخططات التبشير حتى لا تتبلور السياسة العسكرية المعادية التي تسود كل غزو عسكري . والوجه الغريب هو أن دوفوكو يتجاهل مكونات الحضارة العربية ـــ الاسلامية وذلك على الرغم من شدّة تفاعل هـذه المكونات بالسكان . وعلى أي حال واجه التبشير في نهاية القرن التاسع عشر أربعة تخوفات بالنسبة لتحقيق الاستعمار كما ينشده دوفوكو . التخوّف الأوّل هو في ابقاء الوضع دون انصهاره في الاستعمار . والتخوّف الثاني يتلخص في احتمال الوعي الجماهيري لطرد الغزاة . والاحتمال الثالث يتخوف دوفوكو من النخبة المثقفة التي تتنكر للاستعمار وتقاومه . والتخوف الأخير يأتي من تضاعف عدد سكان شمال افريقيا وتمسكهم بأصالتهم العقائدية .

والمسلّم به ، بعد هذا ، أن التبشير استخدم كطلائع عقائدية وثقافية وأمنية للاحتلال . وتعاون الاستعمار الصليبي والاستعمار الايديولوجي على ضرب الإسلام يقدم كبديل النصرانية والمدنية الغربية . واعترف دوفوكو نفسه من أنّ الأروبيين يشجعون الأهالي على المضي في الفراغ العقائدي ويخلو الجوّ لإيهامهم : «...وفي الجزائر نكاد لا نعمل شيئا لصالح الأهالي ، إن المدنيين ... يبحثون عن مصلحتهم الخاصة فقط ، وأن العسكريين يديرون الأهالي ، تاركينهم في طريقهم ، دون أن يعملوا فعلا على ترقيتهم»(29) ثم اعترف دوفوكو بفشل أعماله التبشيرية بعد عشر سنوات «غدا تمرّ عشرة سنوات منذ بدأت أقوم بالقداس بتامنراست ولم أتوصّل إلى تنصير شخص واحد»(30) . ذلك أن الكنيسة اعتبرت نفسها مكلفة بل مسؤولة على النشاط التبشيري غير أنها ارتبطت ارتباطا وثيقا بالاستعمار الذي لن تكون فيه العلاقات الإنسانية والسياسية طبيعية . لذلك انتقل المسؤولون الاستعماريون الى تبرير فشل المبشرين الأوائل ببثّ الخوف ويعملون على تركيز الأقليات المسيحية داخل المغرب وعلى سواحله ، خصوصا إذا كانت هذه الأقليات ترتبط حضاريا بأروبا وهم وراء الحدود ، فيكون لهم الارتباط القومي والديني والتطلعات السياسية . وهكذا خطر الحضور الأجنبي في المغرب الأقصى ليس ثمة ما يدعمه غير الولاء بجميع وجوهه إلى «البلد الأم» .

وعلى أي حال ، فإن النقاش حول النشاط التبشيري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالمغرب الأقصى ظلّ محاطا بالغموض وإن لم يمنع بلورة المواقف الاستعمارية . بيد أن

---

(28) د. أبو عمران الشيخ، «شارل دوفوكو في تامنراست» في **المجلة التاريخية المغربية**، عدد 17-18 جانفي 1980، ص 141-142 .

(29) المرجع السابق .

(30) — Le Maroc Catholique, n°1 de la 11e année, juillet 1931.

الدعوة إلى توطين الأجانب في المغرب كأقليات لها امتيازاتها ، تعطي صورة حول أوجه انتشار المراكز التبشيرية وإدراك خطورتها . وقد نشرت مجلّة «المغرب الكاثوليكي»(31) احصاء حول تطوّر التبشير في المغرب بعد الحماية . وهو كما يلي :

## جدول (4)
## تزايد مراكز التبشير بالمغرب الأقصى في أواخر القرن التاسع عشر

| المكـــان | عدد المراكز | تبشير أهلي | مراكز ذات كنائس | جهات عسكرية | مراكز دورية | مراكز في صدد التكوين |
|---|---|---|---|---|---|---|
| رباط الفتح | 2 | X | | | | ـ بوعرفـة |
| فــاس | 2 | X | | | | ـ العيون |
| مكنـاس | 2 | X | | | | ـ عين اللوح |
| الدار البيضاء | 2 | | | | | ـ سيدي بوقنادل |
| مـرّاكش | 2 | X | | | | ـ السخيرات |
| ســلا | 1 | | | | | ـ عين العودة |
| أسـفي | 1 | | | | | ـ بوزنيقة |
| أغاديـر | 1 | | | | | تــازرت |
| وزان | 1 | | | | | |
| بودنيب | 1 | | | | | |
| تــازا | 1 | | | | | |
| جرسيــف | 1 | | | | | |
| ميـدلت | 1 | X | X | | | |
| تــادلا | 1 | | X | | | |
| القنيطرة | | X | X | | | |
| وجـدة | | X | | | | |
| تارودانت | | X | X | | | |
| القبــاب | | X | X | | | |
| سيدي قاسم | | | X | | | |
| فضــالة | | | X | | | |

| | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| سطات | | | X | | | |
| الحاجب | | | X | | | |
| كريجة | | | X | | | |
| كورسيف | | | X | | | |
| أزرو | | | X | X | | |
| الصويرة | | | X | | | |
| بركان | | | X | | | |
| بوريد | | | | X | | |
| ميسور | | | | X | | |
| يطّو | | | | X | | |
| جرّامة | | | | X | | |
| الخنيفرة | | | | X | | |
| تمهديت | | | | X | | |
| تامنار | | | | X | | |
| تيزنيت | | | | | X | |
| آيت باها | | | | | X | |
| نيوقره | | | | | X | |
| ايجرم | | | | | X | |
| آزمور | | | | | X | |
| بير الجديد | | | | | X | |
| عين السبع | | | | | X | |
| بولحوت | | | | | X | |
| مارسند | | | | | X | |
| الخميسات | | | | | X | |
| بوفكران | | | | | X | |
| رأس التبودة | | | | | X | |
| برجانب | | | | | X | |
| الرجيح | | | | | X | |
| تافلالت | | | | | X | |
| ابن رشيد | | | | | X | |
| سيدي يحيى | | | | | X | |
| سيدي سليمان | | | | | X | |
| وادي زم | | | | | X | |

وكشف تقرير هانري دوفاريي (Henri Duveyrier) كم أنا فرنسا ترغب جادة في استعمار المغرب الأقصى . وكانت أولى المسائل التي أثارها التقرير هي مسألة التبشير بداية من المعلومات التي قدمها دوفوكو . وقد قوبل هذا التقرير بالتمجيد والافتخار . والتقرير يستعرض خلاصة أعمال دوفوكو فجّاء فيه : «توجد بلاد مجاورة لمقاطعة فرنسا (الجزائر) ينفر فيها الأوربي عامة والفرنسي خاصة ... هي بلاد المغرب ... لأنّ سلطانها قليل النفوذ على السكان . وأمام المسجد لا يذكر اسم فرنسا أو القسطنطينية ، وانما ينادي باسم السلطان الذي هو أمير المسلمين المالكيين ... ومع ذلك فان السلطان يتلجيء أحيانا الى تحكيم المدافع في جمع الضرائب ...

وقد اجتهد الشاب الفيكونت دوفوكو أن يقدم لنا ثمرات اكتشافاته وبدون المساعدة الحكومية ... فضحى بمكانته العسكرية ليعيش متنكّرا في لباس يهودي بين سكان يستفيدون من اليهود ... وأقام إحدى عشرة شهرا معرضا حياته للموت ... وكنّا تنكرنا من قبل متخذين هيئة طالب ودرويشين ]ريشارد بورطون (R. Burton) وارمينوس قامبيري (Arminus Vambéry)[ ولم نفلح كما أردنا ، لكن دوفوكو أفلح ... بمساعدة الرّبي مردخاي أبي السرور Mardokhaï Abî Sourour ...

وكان أعطى الجغرافي المخلص أميليان رونو(Emilien Renou) أول خريطة عامة على المغرب سنة 1845 . وبعد ثلاث سنوات كرّر النقيب بودوان (Capitaine Beaudoin) العمل لحساب الدفاع ... غير أن دوفوكو تمكّن من رسم دليل 12.208 كلومتر منذ أن بدأ رحلته في 20 جوان 1883 ... وبهذا العمل تنال فرنسا فخر السبق ذلك أنه من بين الواحد والعشرين رائدا هناك ستة عشر رائدا فرنسيا ... وبدأت فرنسا تتحمل تكاليف الرحلات وكذلك شجعت الجمعية الجغرافية بباريس مثل هذا العمل ...

ولم يستطع رولفس (Rohlfs) ولا لينز (Lenz) تقديم الملاحظات التي سجلها دوفوكو ... سجل دوفوكو كل ما يتعلق بالسكان ... بما فيهم البربر والزنوج وسكّان الصحراء المتكلمين بالبربريّة ... وقد دخل الفيكونت دوفوكو أرض الجزائر في 21 ماي 1884 ، بعد ان شقّ المغرب من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي ... وكانت معلوماته دقيقة جدّدت ما عرفناه عن المغرب وسكانها المتوحشين ، وبهذا ينال دوفوكو وسام التقدير الأكبر»(32) .

---

(32) مقتطف من : — Rapport fait à la Société de Géographie de Paris, dans la séance générale du 24 avril 1885. par M. Heri duveyrier sur le voyage de M. Le Vicomte Charles de Foucauld au Maroc.

والتقرير منشور في : — Reconnaissance au Maroc 1883-1884) par le Vicomte Ch. de Foucauld. Challamel et Cie, Librairie Coloniale, Paris 1888.

فيبدو أن فرنسا أيقنت بفشل التنصير الذي أراده دوفوكو ، ولكنه لا يعني بالضرورة تخلّى فرنسا عن دورها في تنشيط حركة التبشير خصوصا في المغرب الأقصى ، فهذا الاتجاه التبشيري لم يسحب من جدول أعمال الاستعمار الفرنسي . لأن الريادة التبشيرية هي أبرز محرك للمسيرة الاستعمارية . ولما اقتنع الفرنسيون بضرورة ذلك أصرّوا على متابعة البعثات الاستكشافية في المغرب ، للانطلاق في تحقيق الأغراض المرسومة . فهذا التقرير يشير الى «ستة عشر» رائدا فرنسيا من جملة «واحد وعشرين» رائدا أروبيا ، لأن الدول الأروبية الأخرى تأمل في دعم نفوذها في المغرب تجسيما لحلقة الاستعمار في القرن التاسع عشر . ولقد لخّص دوفوكو في تصدير كتابه«Reconnaissance au Maroc» طريقة الرحلة لاكتشاف المغرب .

1 ــ الاهتمام بالمناطق المجهولة التي لم يدخلها سابقوه .
2 ــ التنكّر استجابة لتجارب السابقين .
3 ــ التهوّد والتظاهر بالشيخوخة .
4 ــ الاعتماد على وساطة اليهودي أبي سرور .
5 ــ ملازمة العزلة وإن تعذرت فيجب افتعال خرافات خيالية أو عرض آلات .
6 ــ الاطمئنان لأهل المخزن وتجنب أهل السيبة لأن هؤلاء ينكرون الأروبي ويقول في مقدمة مؤلفه : «المسافر الأروبي لا يمكن أن يكون إلا عينا ليتعرّف على بلادهم ، وبدارسة المحيط يهيء الغزو ، فهو جاسوس ... وخشية الغازي أشدّ من كراهية المسيحي ...» .

إن العامل المتشرك الذي يجمع مختلف الرواد وعلى مراحل متفاوتة هو خضوعهم لاستراتيجية واحدة ولو عملوا في واجهات متعددة . وهي استراتيجية مزدوجة فهناك الريادة التي تحل مشكلة الغموض وتسهل الدخول لأي غزو محتمل . وهناك السعي لإثبات قدم المسيحيين . وهما عنصران متكاملان يتعلق كل منهما بإخضاع المغرب للسيطرة الخارجية . وقد نشطت حركة الريادة من أجل تهيئة الطرق الملائمة للسياسة والأهداف الأروبية . ذلك أن المغرب الأقصى ظلّ محلّ نزاع بين فرنسا وألمانيا واسبانيا وانقلترا . ففرنسا تعتبر المغرب امتدادا طبيعيا لها بعد احتلال الجزائر (1830) وخاصة بعد إخضاع القبائل والتوسع في واحات الجنوب . واستقرّ لها الوضع في غربي افريقيا[33] ذلك أنه لما كان الانقليزي لفنستون (D. Livingstone) (1813-1873) يتعرّف على مجرى نهر الزامبيز ، كان الفرنسي لويس فيدارب (Louis Faidherbe) (1828-1889) قد أسس ميناء داكار لاستغلال منتوجات السنغال في الفترة المتراوحة بين 1854 و1865 م[34] .

---

(33) — Maurice Baumont, **Essor Industirel et Impérialisme Colonial** (1978-1904), p. 72. Paris, P.U.F. 1949.

(34) — G. et M. Duchet-Suchaux, **Les Dates Clés de l'Histoire, p. 161**. Paris, Hachette, 1976.

وأما انقلترا ، فاعتمدت على علاقاتها الاقتصادية القومية مع المغرب إذ اعتبرته سوقا كبيرا لها[35] . وقد تعتمد انقلترا أيضا على جاليتها التبشيرية . واهتمت ألمانيا بالمغرب لتحقيق مصالحها ومشاريعها في الجنوب الغربي للمغرب[36] وخاصة أغادير ، وزاد اهتماما بعد سنة 1890 لما تخلّى القيصر عن بسمارك[37] . ويعود اهتمام اسبانيا الى عوامل تاريخية وجغرافية (الجوار ، احتلال سبتة ومليلة) . وأمام الوضع المتفجر بين القوى الاروبية فضل ممثلو الدول الأربعة الاشتراك في مفاوضات «مؤتمر مدريد» . وكان المغرب آنذاك مقسما بطبعه إلى منطقين[38] **بلاد المخزن** ، ويمارس السلطان نفوذه فيها بواسطة عمال السلطان على المدن (باشوات) وعمال المناطق الصحراوية (قواد) ثم **بلاد السيبة** ، يضعف فيها نفوذ السلطان ويستبدّ فيها زعماء القبائل وأكثر بلاد السيبة مناطق جبلية[39] . شجع هذا الوضع المتداخل تدخل الأجانب ونشاطهم ، وتأزم الوضع مع ثورة زعيم محلي[40] (أبو حمارة) ووجدت فرنسا ذريعة للتدخل ولجأت الى التملص من مقررات مدريد بإرسال رجال الأعمال ومؤسسي الشركات والهيئات الطبية والتجارية لإقناع السلطان مولاي عبد العزيز (1894–1908) بضرورة مساعدة فرنسا في تنظيم الجيش وتجديده[41] . وتقرّب الفرنسيون من أصحاب الطرق الصوفية في داخل المغرب وكسبوا ودّهم[42] . وفي نفس الوقت كانت فرنسا تعقد اتفاقيات مع ايطاليا ومع بريطانيا ومع اسبانيا ، وخطت فرنسا خطوتها الحاسمة لطلب زيادة حضورها العسكري بالمغرب ، وحصر جميع المهام العسكرية بيدها ، ومراقبة الشؤون الإدارية «حفاظا على مصالحها وحدودها المشتركة بين الجزائر والمغرب . وتواصل الوضع بين ضعف المغرب وتواطؤ دول أروبا حتى انتصبت الحماية الفرنسية مرورا بمؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906 .

ومما كان له الأثر المتكافىء في سيرورة هذا الدور الاستعماري أن الإرساليات التبشيرية ارتبطت بموقف الفاتيكان[43] رغم سيطرة فلسفة هيقل (Hegel) (1770–1831) على عالم الفكر للقرن التاسع عشر . ورغم الفلسفة اليقينية (Philosophie Positive) التي وضعها

(35) د. نيقولا زياده ، «استعمار المغرب» المنشور بمجلة **الشورى** ، السنة 1، عدد 3 1974، ص 126–127 .

(36) — Maurice Baumont, Essor...op.cit., p. 72
«Après avoir encouragé la France en Tunisie, Bismark lui promet son appui lors de la conférence de Madrid en 1880... pour régler la question de la protection au Maroc».

(37) لبيب عبد الساتر ، التاريخ المعاصر ،ص 158 . دار المشرق ، بيروت 1971 .

(38) — V. CH. de Foucauld, **Reconnaissance... op.cit.**, avant-propos.

(39) — G. Gorée, **Au Service du Maroc, Ch. de Foucauld**, p. 167. Ed. Grasset, Paris 1936.

(40) — Eugène aubin, **Le Maroc... op.cit.**, pp. 108-131.

(41) لبيب عبد الستار، **المرجع نفسه** .

(42) **المرجع نفسه** .

(43) — Encylopédie générale (met..Orc) Volume 8, p. 2860. Paris, Hachette, 1987.

أوقيست كانت (Auguste Comte) (1798-1857) . ومع ذلك رفضت الكنيسة القيم التحررية وتمسكت بقرار العصمة البابوية . فقد جاء في «الموسوعة العامة» «... أعطت الحركة الاستعمارية دفعا جديدا للتبشير ، بعد فترة ركود القرن الثامن عشر ، وفرضت حيوية المبشرين ـــ بما فيهم البروتستانت ـــ بعث إرساليات جديدة من نساء ورجال ... واستقرت الإرساليات في الشرق الأقصى وافريقيا فبعثت الكنائس وتجددت أساليب التبشير ...»(44) .

وبما أن المغرب موضوع المناورات والتآمرات الأروبية التي انتهت بوضعه تحت الاحتلال «أو الحماية» وبما أن الريادة تتابعت بشكل عجيب وبدون انقطاع (انظر جدول الرواد) فمن الطبيعي الاعتقاد في دور المبشرين في مساعدة الاستعمار . وفي هذا المجال يقول علال الفاسي مستشهدا بقولة موريس لوجولاي «يجب أن تعلم البربر كل شيء ما عدا الإسلام»(45) . وفي مدّة إقامة دوفوكو ببني عبّاس . كانت المؤامرات تحاك لاقتسام أجزاء الشمال الافريقي(46) . وفي رسالة الى سيقونزاك(47) (Ségonzac) بتاريخ 8 جوان 1903 كتب دوفوكو متوسلا ليرتفع علم فرنسا في المغرب الأقصى : «تأثرت لرسالتكم وأنا على أبواب المغرب . إن اكتشافاتكم أثارت عواطفي . لقد توصلتم الى اكتشاف ما كان مجهولا من المناطق الصعبة : جبل عياشي ، آيت زديق ، بني مقيليد ، آيت شروشن ، بني وراين ، رياطة ، الرّيف ، سوس ، وفي ذلك أروع ما أكبره ... عرفتم بني مقيلد ، وملوية العليا وجبل عياشي وآيت شروشن وبني راين ورايطة (تكرار أسماء المناطق أصلي في الرّسالة) . فمع إعجابي وتقديري لهذا الاكتشاف أسرّ لكم بأن ذلك يكوّن خطوة نحو الاحتلال . حب المغرب هو الرابطة العميقة بيني وبينكم . فلتواصلوا عملكم للمغرب ولفرنسا . وإني لأرجو ـــ من هذا المنسك أن يرتفع علمنا قريبا بين أولائك السكان الذين وهبتهم لفرنسا . وعلاوة على كل شيء أسأل الرّب ليمنحكم العفو والبركة . وفي ذلك رحمة السماء .

تفضلوا بعميق اعتباري وفائق اعترافي .

**الأخ شارل المسيحي»(48)**

---

(44) — Ibid, p. 2861.

(45) علال الفاسي ، **دفاع عن الشريعة** ، ص 163 ، مطبعة الرسالة ، الرباط 1966 .

(46) ليبيا ومصر والرّيف .

(47) ضابط فرنسي وبأحد رواد ساحل العاج والمغرب الأقصى ، وراسل دوفوكو سنة 1901 وأطلعه على جملة ما توصل إليه فيما يتعلق بالمغرب .

(48) نص الرّسالة منشور في : — G. Gorée, **Au Service...op.cit**, pp. 167-169

وكان قد اعترف دوفوكو أثناء إقامته ببني عباس التي وصلها في 30 مارس سنة 1903 وبعد سبعة عشر شهرا ، أظهر مشروعه التبشيري بالمغرب الأقصى «إن وجودي في بني عباس على الحدود لدليل على نيتي في التبشير»(49) وفي رسائل سابقة يقول دوفوكو «لتكن صلواتكم للمغرب ، صلوات الليل والنهار لعشرة ملايين يجهلون المسيح»(50) ثم يقول «أصلّي كثيرا للمغاربة ، فساعدوني..» (51) و«صلوا كثيرا للمغرب ، للصحراء ... لإرضاء الرّب»(52) .

وهكذا ساهم دوفوكو في التصورات التبشيرية بالمغرب متعجّبا من سكوت المصالح التبشيرية ومن ضعف الحركة التنصيرية . وكأنّه يطالب بالاهتمام الكافي والأكثر لتركيز المسيحية في المغرب . وفي ذلك تعاون بيّن وتكامل بين المؤسسات التبشيرية والاستعمار . فالعلاقة التي تربط عنصر التبشير وعنصر الاستعمار قد تكون استراتيجية تعامل لإزالة الذهنية الاسلاميـة التي تعلّق بها المغربي . وهي علاقة نفسانية دعائية لكل ما له صلة بالوضع المغربي في مواجهته للغزو الأجنبي . ولم تكتف الذهنية الغربية بالتعبير ورسم الآفاق بل تحولت الى حركة وعمل بما فيها من تعصب عنصري سيطر على مختلف الاتجاهات ، باسم الاشعاع الحضاري وتركيز المسيحية السياسية. وهذه العناصر جميعها تعرقل عملية مواجهة المغرب للغزو الأجنبي . وفيما يلي كشف للرواد وما كتبوه عن المغرب :

## جـــدول (5)

## كشف لرواد فرنسيين في المغرب الأقصى

### ـــ النصف الثاني من القرن XIX

| الترتيب | السنوات | أسماء الرّواد | | مذكرات ا |
|---|---|---|---|---|
| 1 | 1845 م | أميليان رنو | Emilien Renou | énérale du |

(49) — G. Gorée, **Au Service...op.cit.**, p. 168.

(50) كتب الرسالة (حسب المرجع السابق) بتاريخ 29 جانفي 1903 الى السيدة دوبونداي (de Bondy) .

(51) رسالة بتاريخ 2 مارس 1903 إلى السيدة دوبوندي .

(52) رسالة بتاريخ 25 ماي 1903 الى الرّاهب لوران (Laurain) بكنيسة سان سولبيس (Saint Sulpice) بباريس .

(53) مستخرج من مكتبة الدومينيكيين بالدّار البيضاء (بالمغرب الأقصى) .
قارن : — Les Voyageurs français au Maroc par Roland Lebel, éd. 1936.

| | | | |
|---|---|---|---|
| **— Carte (physique). du Maroc** | Cap. Beaudoin | النقيب بدوان | 1848 م |
| **— Le Maroc: Notes d'un voyageur.** | PèreGodar | الأب قودار | 1859 م |
| — Le Maroc Conteporain | N. Cotte | ن . كونت | 1860 م |
| — Sous la tente: Souvenirs du Maroc | Ch. Yriarte | س. اريارت | 1863 م |
| **— Intinéraire de Mogador à Maroc et de Maroc à Safi.** | A. Beaumier | أ. بومية | 1868 م |
| **— Un voyage au Maroc** | Dr. Bleigher | الحكيم بليقر | 1875 م |
| **— Itinéraire de Tanger à Rabat** | Ch. Tissot | س. تسّو | 1875 م |
| **— Relation d'un voyage dans l'intérieur du Maroc.** | Dr. Dégugis | الحكيم ديقوجيس | 1878 م |
| **— 15 jours à Wazzan Notes d'un voyage de Fes à la Frontière Marocaine** | Comte de Chavagnac | الكونت دوشاقانياك | 1885 م |
| | **— Le Maroc**Cap. Erkmann **Moderne** | النقيب أركمان | 1885 م |
| **— Voyage d'une mission fr. à la cour du Sultan** | Dr. Marat | الحكيم مرات | 1885 م |
| **— Le Maroc, Notes et Souvenirs** | M. Paléologue | م. باليولوغ | 1885 م |
| **— Un Empire qui croûle** | L. de Campou | ل. دوكامبو | 1885 م |
| **— Le chemin des ambassades** | H. Duveyrier | هـ. ديفرييه | 1886 م |
| **— Une ambassade du Maroc** | GabrielCharmes | جبرائيل شارم | 1887 م |
| **— Guide du voyageur au Maroc** | Keder de Ghény | ك. دوشيني | 1888 م |
| **— Au Maroc** | PierreLoti | بيار لوتي | 1890 م |
| — Un voyageur au Tufilalet | Dr. Linares | الحكيم ليناراس | 1898 م |
| **— Le Maroc inconnu.** | A. Moulièras | أ. موليراس | 1895/99 م |

## 2 ـ نماذج التبشير الكاثوليكي :

في المغرب الأقصى ، وجد الفرنسيسكان منذ القرن الثالث عشر[1] ، وأقاموا على السواحل حتى أواخر القرن الثامن عشر إذ قرّر مولاي اليزيد طرد المبشرين . ثم حاول هؤلاء العودة من جديد سنة 1794 مع بداية عصر مولاي سليمان (1795-1822) متذرعين «بإقامة الطقوس والشعائر الدينية للجالية المسيحية ، ولأنّ بعض السلاطين يأخذون بجانبهم بعض المسيحيين ، وهؤلاء مبشرون متسترون»[2] . ونشط المبشرون خاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حيث هيأت لهم الريادة ما يريدون فأقاموا من جديد على المدن الساحلية المغربية وفتحوا المدارس لاستيعاب فقراء الأطفال (Marmailles) وتدريسهم مبادىء العربية والاسبّانية والفرنسية[3] ولا يكون ذلك إلا بحمل الصليب[4] . وكانت بعثة طنجة أكثرالارساليات نشاطا، إذ فتحت مستشفى بإدارة الفرنسيسكان ، وأنشأت مطبعة عربية واسبانية ، وأسست مأوى للفقراء وبعثت مطعما لهم سنة 1887 . ثم انتشر أربعون مبشرا ومبشرة للعمل الإحساني[5] .

اهتمّ المبشرون بيهود المغرب بواسطة الإغراء والأموال ، حتى أن أحبار اليهود هدّدوا كل من يتعامل مع المبشرين أو يرسل ابنه الى مدارس الفرنسيسكان ، بالحرمان . واعترضت إدارة المخزن على إنشاء مراكز تبشيرية كاثوليكية في داخل البلاد وذلك رغم محاولات ديبلوماسية اسبانية سنة 1889 م[6] فامتنع المبشرون عن مساعدة الفقراء ، وحرمان الأطفال من الدراسة[7] وهو تعبير عن رفض النشاط بين مسلمي المغرب ، والاكتفاء بالنظر في وضع «المرتدين» ومحاولة إرجاعهم الى المسيحية[8] . ولم يتنصر سواء ثلاثة أفراد ، ما جعل الممثل الفرنسي يقول «لا نجد متنصرا واحدا في كامل المغرب ، في وقت أسلم فيه كثير من اليهود»[9]

---

(1) — Elisabeth des Allues, Toumliline à la Recherche de Dieu au Sercive de l'Afrique, p. 206. Paris, le cerf 1961.

(2) الشيخ أحمد معنينو، الرّابط ـ سلا ـ بتاريخ 1981.1.31 .

(3) — J.L. Miège, Le Maroc et l'Europe...op.cit., p. 469.

(4) — Seyyed Hossein Nasr, Le Chrétien en dialogue avec le monde, pp. 78-79. éd. Beauchesne, Paris 1971.

(5) — J.L. Miège, Le Maroc et l'Europe..op.cit., pp. 469-470.

(6) — Ibid.

(7) — The Gospel in North Africa, n°7, 1889, p. 100 et p. 191.

(8) — J.L. Miège, Le Maroc...op.cit., p. 314-315.

(9) — Ibid

وبالطبع يشير ممثل فرنسا الى عدم جدوى جهود المبشرين الفرنسيين . وقد «أعطى سلوك المبشرين الفرنسيسكان صورة مخلوطة للغرب ، ومتباينة مع حاجيات التجار الأوروبيين وعائلاتهم ، ذلك أن هؤلاء يبحثون عن الارباح فقط»[10] .

وظلت الجهود التبشيرية تبحث عن تفسير لها[11] لتحاول القضاء على الأديان غير النصرانية ، ولاستيعاب الضعفاء معتمدين في ذلك على السيطرة السياسية والاقتصادية لأروبا . فاستخدم المبشرون جميع الوسائل لتنصير يهود المغرب وبعض المسلمين واستغلوا لبلوغ ذلك مهنة التطبيب ، والتعليم كنقل الكتب وترجمتها من لغة إلى أخرى بأسلوب تبشيري ، واستغل المبشرون بالتمظهر بأعمال البرّ والإحسان . ولمّا اعترض المخزن عن مساعيهم للتوغل في داخل البلاد التجأوا الى المساومة . وبمجرّد التأمل في خريطة المغرب ، يتضح أن التواجد التبشيري استوطن بالسواحل لما هي عليه من خصوبة ولفرض الاختيار على المغربي ، فأما أن يستأنس بالمبشرين ويرضى بجوارهم وأما أن يرفض ذلك ويفضل الابتعاد على حساب شقائه ، وتخلو بذلك المناطق الممطرة وذات المناخ المناسب لتأهل بالأجانب . وأوردت «مجلة العالم الإسلامي» (Moslem World) لسنة 1930 «... أن شيئا من الخوف يجب ان يسيطر على العالم الغربي ... ان الإسلام ليس دينا فحسب بل إن من أركانه الجهاد ، ولم يتفق قط أن شعبًا دخل الإسلام ثم عاد نصرانيا ... (فليتبع الغرب) سياسة السيطرة على الشواطىء[12]» . استغل المبشرون «الامتيازات الأجنبية» التي لم تكن تمنح للمغاربة : إعفاء من الضرائب ، وإعفاء من الرّسوم القمركية ، ومع ذلك يمنع على المغاربة من الدخول إلى بيوت الأجانب إن لم يؤذن لهم . وما ملاحظة الممثل الفرنسي إلا مراوغة سياسة إزاء المخزن وفي نفس الوقت استلفات نظر فرنسا إلى هذا النشاط الذي يعتقده مثمرا للاحتلال .

ولم يكن النشاط التبشيري ــ بأنواعه ــ يقوم على نيّة سليمة إطلاقا ذلك أن «وجود المبشرين ونشاطهم المستمرّ بمثابة قرحة شنيعة وعقبة في سبيل التفاهم والتعاون»[13] . ذلك أن تناول قضية العلاقة بين الاسلام والمسيحية تتخلله خلفيات تاريخية وهذا يحجب رؤية المشكلة . فحجم المسيحيين بالمغرب الأقصى يمثل نسبة ضئيلة باعتبار السكان المسلمين في هذا البلد مما يجعل العلاقة بين المسيحية والإسلام في مجال اختلال . لكن المسيحية التي أريد التبشير بها هي مسيحية أروبا التي تمارسها الشعوب الأروبية الذين يعيشون نمط حياة جديدة ممزوجة بالعطاء الصناعي . وهذا ما يولّد الإشكاليات التي يمارسها الضرب بالتبشير وهم

---

(10) — Ibid

(11) د. مصطفى الخالدي ود. عمر فروخ، التبشير ... المرجع نفسه ، ص 125 .

(12) د. مصطفى الخالدي ود. عمر فروخ، المرجع السابق ، ص 129–130 .

(13) عبد الرحمان فرناس ، مجلة العلم والايمان ، عدد 5، 1975، ص 67 .

ينحازون بوضوح الى مسيحيتهم في نظامهم السياسي الاستعماري . وإذا كان المغربي يؤمن بأن الإسلام جزءٌ من عروبته فإن الأروبي يعتبر مسيحيته ضرورية لتوسعاته مع الشعور بأهمية الجانب الاجتماعي والاقتصادي . وإذا استخدم المغربي تعبيرات قلق وضيق فإن الأروبي يشعر بحماية الجاذبية الأروبية ولذلك فهو يرتبط بظروف استعمارية وبكل العناصر التي تدخل في تكوين واقعه . أما المبّشر فيتظاهر بأن عمله تلقائي ولا علاقة له بالتأثيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والايديولوجية[14] . في حين أن المغربي يعتقد أن هذه العلاقة علاقة ابتلاع تفسرها الامتيازات والممارسات غير الطبيعية . ذلك أن مشكلة الأقليات المسيحية في مجتمع ذي أغلبية إسلامية مطلقة تولّد النفور والحدّة في المواقف . ومع ذلك فإن المسيحي يعتقد أن السيطرة الفوقية هي في خدمة قضايا الإنسان .

غير أن ظاهرة انتشار حركات التبشير بالمغرب الأقصى تجاوزت نطاق الأقليات المسيحية لتعمل على تنصير اليهود والمسلمين باسم التمدّن ، مع أن الحضارة الإسلامية حضارة دينية ولها قيمها الذاتية وترفض التفوق الجنسي ، أمّا الحضارة الغربية فهي لادينية إذ تجعل الإنسان سيد موقفه وحرّا في إرادته وتعبيراته[15] . وانطلاقا من هذا تظل ظاهرة التبشير عنصرا أساسيا من عناصر الغزو بدليل ان المبشر غازي وليس مشارك أو معاون ، فهو مراقب أو باحث أو ناظر بعناية كاملة[16] ، فالظروف التي هيّأت ظهور التبشير تركت بصماتها لدى عدد من المسيحيين الأروبيين . لذلك عندما ينظر الى تعلق المبشرين بعقيدتهم إنما يرى كل الخلفيات التاريخية ، وربّما يكون ذلك ما يجمع بين حضارة أروبا اللادينية وعناصر التبشير .

وفيما بين سنة 1822 و سنة 1836 لم يبق من المبشرين الفرنسيسكان سوى مبشرين عاشا من مساعدات ا لقناصل والتجار المسيحيين[17] . ثم عوّض الأب فرنسيسكو بالما (P. Francisco Palma) المبشّر الأب جوزي بارون (P. José Paron) وبذلك تقلّص النشاط التبشيري الكاثوليكي في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ويلخصّ ج.ل.مياج — معتمدا على جملة من الوثائق والتقارير من بينها ما أوردته مجلة «موريتانيا»[18] (Mauritania) عدد سبتمبر 1942 — نشاط المبشرين في المغرب الأقصى لمدّة عشر سنوات :

---

(14) سمير كرم، المستقبل العربي (مجلة) عدد 26 سنة 1981 ، ص 106 .

(15) د. وليد سليم التميمي ، **المرجع نفسه**، ص 47-51 .

(16) د. حامد ربيع، **الثقافة العربية في مراجعة الغزو** ، نشر مجلة «شؤون عربية» عدد 1 مارس 1981 ، ص 106-112 .

(17) — J.L. Miège, **Le Maroc... op.cit.**, p. 463.

(18) — Mauritania, 9, 1942, p. 352.

## جدول (6)

| سنوات | عمليات تعميد | احتفال زواج | مأتم وفاة | المجموع |
|---|---|---|---|---|
| 1834 م | 7 | 1 | 8 | 16 |
| 1835 م | 9 | 3 | 4 | 16 |
| 1836 م | 7 | 3 | 4 | 14 |
| 1836 م | 11 | 2 | 3 | 16 |
| 1838 م | 7 | 5 | 3 | 15 |
| 1839 م | 7 | 3 | 4 | 14 |
| 1840 م | 6 | 1 | 10 | 17 |
| 1841 م | 10 | 2 | 5 | 17 |
| 1842 م | 8 | 3 | 5 | 16 |
| 1843 م | 8 | 1 | 1 | 10 |
| 1844 م | 6 | 2 | 4 | 13 |

ويستفاد من هذا الجدول اقتصار النشاط التبشيري على الجالية المسيحية . ويؤكد ج.ل. مياج أن هذا النشاط يتعلق بالإرساليات الإسبانية في المغرب الأقصى التي نشطت وتضاعفت أكثر بداية من سنة 1860 بمقتضى المعاهدة الاسبانية المغربية بتاريخ 26 أفريل من نفس السنة إذ استقرّ المبشرون أولا في مدينة تطوان وتعاقب على إدارة إبرشية تطوان كل من الأب ميكال سيرزال (P. Miquel Cerzal) والأب لوبيز (P. Lopez) ثم الأب جوزب لورشندي (P.J. Lerchundi) .

وعمل المبشرون الإسبان بوصية الأب ورئيس الدير قوادار (P. Godard) التي تقول: «يجب على المرسلين أن يزوروا الموانيء من حين إلى آخر ... حتى لا يبقى أبناء المسيحيين دون تعميد ولا يظل المسيحيون دون مسارّة وحتى لا تضطرّ المسيحيات الورعات ـــ وهذا ما يحصل فعلا ـــ الى التعرض الى عناء ركوب البحر وتحمّل أهواله في سبيل المجيء الى جبل طارق من أجل الاعتراف . وقد تبدو السواحل المغربية أقلّ جفاء وخطرا ، وتحلّ عندئذ أسر شريفة مكان أخرى متعفنة تعودت على التسرّي وهي عادة كثيرا ما دنّست تلك المقاطعات»[19] .

وقد عرفت الأقليات المسيحية تحوّلا منتظما تبعا لعناية المبشرين . ففي سنة 1868 م استقرّت إرسالية فرنسيسكانية جديدة بالدار البيضاء . ونشط رئيسها فيصانت ريفز (Vicent Rives) ليزور مدينة الرّباط ومدينة الصويرة ، ولم تلبث أن استقرت بعثة أخرى سنة 1869 بالصويرة بإدارة الأب خوان مانوال مريكنا أوكانيا (Père Juan Manuel Marquina Ocana) الذي مكث بالمغرب من سنة 1868 م الى سنة 1871 م وبعث مجلة «صدى الفرنسيسكان» (El Eco Francisnano) في سنوات 1884 م و1887 م وهو خارج المغرب . عمل الفرنسيسكان بالتجوال لمداواة المرضى ، ونظموا لقاءات أروبية ـــ مغربية ، لتهيئة مناخ قبول المسيحيين[20] ذلك أن الدين هو الموجه والملون لكل الفعاليات والتحركات السياسية ، و «الكنيسة تتدخل في كل شيء»[21] واعتبر الدّين «بمثابة الضمير الوطني للشعب الإسباني والباني لوحدة العقيدة والإيمان...»[22] .

وتذكر بعض المراجع[23] «أنه فيما بين سنة 1861 م وسنة 1864 م ، وهي مرحلة تأكيد الحضور الاسباني بالمغرب ، لم يتنصر غير ثلاثة منهم يهودي ويهودية رغبت في الزواج من مسيحي فرنسي[24] . وفي أغلب الحالات لا يتنصر إلا اليهود واليهوديات..»[25] . وقد أثبت هذا الرأي السلطان مولاي الحسن الأول في رسالة الى وزير خارجيته ، محمد بركاش ، مذّكرا بأن المغرب دولة إسلامية وسلطانها أمير للمؤمنين ومن المفروض ان يعتزّ المسلم بالإسلام في أرض الاسلام ، وان من احتمى بالأجانب المسيحيين كاليهود يضايق المسلمين ، «وأن

(19) عن جان لويس مياج ، ص 465 — Godard, Notes d'un Voyageur. p. 19

(20) — Revue Politique et Parlementaire, 1904, p. 202 «**Questions Diplômatiques et Coloniales**»

(21) د. عبد الجليل التميمي ، «الخلفية ... نفس المرجع»، في **المجلة التاريخية المغربية** عدد 10-11 .

(22) **المرجع نفسه** ، ص6 .

(23) — J.L. Miège, **Le Maroc... op.cit.**, p. 446

(24) المسيحي التونسي هوفاقير (Vaguer) من العرائش .

(25) — J.L. Miège, op.cit.,

يهودية أسلمت ، وتخوفت فهربت الى البادية»[26] . وخلال هذه المرحلة ـــ ذاتها ـــ ظهر استعمال التبغ بالتدخين أو بالنشوق ، فحظر الفقهاء والمعنيون بالأمر[27] لما في ذلك من ضرر على الإسلام وذويه ونفع لأهل الكفر واستبداد بالمسلمين[28] . ويبدو متأكدا أن هدف المبشرين الإسبان هو السعي إلى إدماج اليهود المغاربة وإبعادهم عن المغاربة المسلمين أو على الأقل خلق تباغض وتنافر .

وفي تقرير نشرته مجلة «العالم الإسلامي»[7] استقرّ المبشرون[30] تدريجيا بمدن الساحل المغربي ، وبرعاية الأب لورشندي (P. Lerchundi) المستعرب في ثقافته والرجل الذي مهّد استعمار طنجة[31] إذ كان يتلقّى المساعدات اللازمة من إسبانيا وتمكن من الحصول على أرض لبناء الكنائس والمساكن التبشيرية[32] في عهد مولاي الحسن الأول . ثم تتابعت البعثات الاسبانية على المغرب ولها نفس الامتيازات التي تحصّل عليها الأب لورشندي :

1888 ........................ بعثة العرائش وبعثة طنجة

1890 ........................................ بعثة آسفي

1891 ...................... بعثة الرّباط وبعثة الدار البيضاء

1894 ...................................... بعثة الجديدة

وكان في سنة 1859 قرّر مجمع الدعوة المقدسة تأسيس مدرسة بسانتياقو (اسبانيا) ، تخرّج منها الابوان جوزيف سباطي (P.J. Sabaté) وبيايرلوبيز (P.P. Lapez) بمساعدة أخوين قدما الى طنجة . ولما استحال على الجميع المقام في المغرب نتيجة للحرب الاسبانية المغربية دخل جميعهم في الخدمة العسكرية بسبتة . ثم دخلوا مدينة تطوان أين اشتغلوا بالشعائر الدينية المسيحية في مسجد استبدلوه بكنيسة[33] .

---

(26) راسلة بتاريخ 13 جمادى الأخيرة من عام 1293 هـ (1876 م) ونص الرّسالة أوردته مجلة **«الوثائق»** في مجموعها الرابع من سنة 1977 ، ص 313 ، ومنها نسخة مصورة ـــ على شاكلة مخطوطة ـــ بالخزانة العامة بالرّباط وأخرى بالخزانة الملكية .

(27) محمد المنوني ، **ملامح من تطور المغرب العربي في بداية العصور الحديثة** ، ص 73-112، المطبعة العصرية ، تونس 1979 .

(28) محمد المنوني ، **المرجع نفسه** ، ص 36 .

(29) **— Revue du monde musulman, Juillet 1911, p. 90.**

(30) المبشرون الفرنسيسكان الراجعون بالنظر لاسبانيا .

(31) **— J.L. Miège, Le Maroc...op.cit., p. 312.**

(32) **— Ibid., p. 313.**

(33) تقرير الأب اندرياس قزيمانس (P. Andreas Ximenes) الى جمعية الدعوة بروما ، وبدن تاريخ ، منه نسخة أصلية بدار الدومينيكيين بالدار البيضاء .

ويذكر تقرير الأب أندرياس أن «الأب سباطي توفي بحمى التيفوس في 13 أفريل من سنة 1860 م . وبعده تمكنت المؤسسات الكاثوليكية من العمل بحرية في كل من طنجة وتطوان وفاس ، واسترجعت امتيازاتها التي كانت في عهد السلاطين السابقين : ففي شهر مارس سنة 1868 أسس الأب ميشال سيريزال المركز التبشيري بطنجة ، ولكن هذاالأب توفي ، وعوّضه الأب لورشندي الذي أعطى دفعا جديدا للتبشير حيث المدارس والمستشفيات ... وخاصة بطنجة .

أسس الأب لورشندي مستشفى ومعهدا ثانويا للذكور ، وبعث مطبعة ليستحقّ تقدير السلطان مولاي الحسن الأول ... مات لورشندي بطنجة في 8 مارس 1896 . وبأمر من الفاتيكان عوضه المطران فراسنواماريس سيرفيرا(F. Maris Servera) ... وبلغ عدد المسيحيين في أوائل القرن العشرين ما بين 4.000 و5.000 مسيحيا وأكثرهم من اسبانيا . وكان هناك نحو العشرين كاهنا لسبعة أو ثمانية مراكز على السواحل»[34] .

وبذلك تكون الجمعيات التبشيرية الإسبانية الفرنسيسكانية قد مرّت بأدوار عديدة . وكانت لبنة في خدمة الاستعمار . فمن المراكز التبشيرية ترسل جماعات التنصير ، ومن المدارس تنشر الكتب الدينية المسيحية . وفي المرحلة الأولى انصرف نشاط المبشرين الى الثقافة الدينية ثم تطوّرت لتشمل بالإضافة الى النشاط الثقافي الديني ، الميدانين الاجتماعي والاقتصادي حتى أنّها أسست جمعيات جديدة .

ومن استعراض الآثار التبشيرية تبرز ثلاث مراحل تاريخية يجمع بينها رباط واحد : المرحلة الأولى ، تتمثل في دخول المبشرين وموجة الامتداد نحو الداخل والجنوب . والمرحلة الثانية ، فترة صراع بين المغاربة والمسيحيين . أما الثالثة فهي تمثل الاتجاه الاستعماري والصراع الدولي على المغرب . ويجمع بين المراحل الثلاث شدّة الإحساس بالعمل التبشيري . هذا الارتباط الذي يجمع بين الدّين وظاهرة الاستعمار . وما الفترات التي جاءت فيها المنشآت الدينية المسيحية إلا تعبير عن القوّة التي تقف وراء التبشير . وهذا التحدّي الذي يقابل الدول الصناعية على تفاوت بينها ، هو في الحقيقة تنافس مستمرّ لمطالب الحياة الصناعية ، ففتح أبواب الاستزادة مع الصلة الدائمة بالعناصر البشرية . ومهما تباينت وتفاوتت وجهات نظر السياسة التبشيرية باعتبار المصالح الدولية فإنها تتفق في النهاية لرسم طريق «التغريب» في جميع ألوانه . فمنذ حدث غزو الجزائر تحولت العلاقات المسيحية ــ الإسلامية الى عداوة[35] . ولتأكيد رغبة فرنسا في ضمّ ما بقي من الشمال الإفريقي تضاعف الحضور العسكري[36] :

| السنة | عدد الجنود | اضافات |
|---|---|---|
| 1830 | 40.000 | — |
| 1839 | 40.000 | 14.000 |
| 1840 | 54.000 | 9.000 |
| 1844 | 63.000 | 27.000 |
| 1847 | 90.000 | 17.000 |

وفي السنغال لقي فيدارب (Faidherbe) مقاومة المسلمين الحاج عمر وابنه أحمد ساموري ، مما استوجب سياسة فرنسية جديدة تعتمد على العنصر البشري المدني وهم المبشرون ، لازاحة النفوذ الإسلامي وتقديم المسيحية كبديل له وفي ذلك انتصار الغرب المسيحي . فالأمر يتعلق أساسا بصراعين عقائدي وايديولوجي .

## 3 ـــ نماذج التبشير البروتستاني :

بدأت المحاولات الأولى في الربع الأخير من النصف الأول من القرن التاسع عشر في كل من الصويرة وتطوان إزاء يهود المغرب . وكانت المحاولات عن طريق «جماعة التمسيح اللندنية بين اليهود» (London Society For Promoting Christianity Amongst the Jews) التي أصبحت تسمّى في سنة 1875 م بـ«الجمعية اليهودية اللندنية» (London Jews Society) لما تولى رعايتها الأب كرايتو قنسبورغ (Le Pasteur J.B.C. Ginsburg) . ونشطت هذه الجمعية في أكثر مناطق العالم الإسلامي . وأنشأت ثلاثين مركزا تبشيريا منها ثلاثة مراكز في شمال افريقيا : الصويرية بالمغرب الأقصى والجزائر العاصمة ثم تونس العاصمة . وذلك قبل سنة 1890 م . ولم يستطع المبشرون النشاط في مراكز لاعتراض المخزن .

---

(34) تقريز الأب اندرياس ، **المرجع نفسه** .

(35) ج . بول رو، **المرجع نفسه** ، ص 66 .

(36) **المرجع السابق** ،ص 70

ولمّا أسّس الأب ماكنتوسن[1] «جماعة الأنجيل البريطانية» (British and Foreign Bible Society) لتوزيع الإنجيل مترجما للعربية والبربرية ، عرف التبشير البروتستانتي دفعا جديدا . وكانت الطبعة الأولى للإنجيل بـ «الريفية» سنة 1885 . وتمكن مبشّرو جماعة الإنجيل من توزيع كميات هامة من الإنجيل المترجم[2] . فخلال سنتي 1887 م و1888 م وزّعت 783 نسخة من الإنجيل ، وخلال سنتي 1888 م و1889 م وزعت 2.585 نسخة من الإنجيل[3] . تفرعت عن هذه الجماعة بعثات فرعية لتنصير البربر ومن بينها خاصة «مبشرو القبايل وبربر شمال افريقيا الآخرون ، Missions to the Kaby (les and Others Berbers of North Africa.) التي عرفت باسم نشريتها[4] «بعثة شمال افريقيا» (North Africa Mission) وتتابع تأسيس البعثات البروتستانية :

جدول (7)

تأسيس البعثات البروستانتينية

| السنة | البعثة | المسؤول |
|---|---|---|
| 1884م | — طنجة | فرعية في بدايتها ثم أصبحت المركز الرئيسي. |
| 1886م | — أرزيلا | — الآنسة هرمان (Herdman) |
| 1888م | — فاس | — الآنسة هرمان (Herdman) |
| 1889م | — تطوان | — بادارة و. سومر (W. Summer)<br>— وج.ج ادوارد (J.J.Edwards)<br>— وكز مانسنك (C. Minsink) |
| 1889م | — الصويرة | — بادارة كورتبارت نيرن |
| 1891م | — الدار البيضاء | — بادارة قريف (Grive) ثم ادوارد (Edwards) |

(1) ماكنتوسن (Makintosin) من الرواد المبشرين ، تطوع لخدمة الانيجل . تحول بين مناطق كثيرة بالمغرب الأقصى يوزع المناشير والانجيل ولم ينقطع عن النشاط حتى توفي في سنة 1900 م .

(2) — J.L. Miège, d'après «**The encyclopedia of Missions**» Vol. 2 New-York, 1891.

(3) — **The Encyclopedia...op.cit.**, Vol. 2.

(4) توجد المجموعة الكاملة لهذه النشرية في مركز بعثة طنجة .

ولبعثة الصويرة إشرف على مبشري مراكش والجديدة . وبلغ عدد مبشري الدّار البيضاء وحدها 25 مبّشرا . وهم من أنشط المبشرين حيث أشعوا حتى على الجزائر وتونس ، وساهموا في فتح مراكز بطرابلس ومصر . أما في المغرب الأقصى فقد اتسعوا حتى ينابيع وادي ام الرّبيع[5] . ونشطت «بعثة كنيسة انقلترا الانقليكانية» (England Presbyterian Church Mission) بربط علاقات يهود فاس ويهود دمنات ويهود الجنوب . وذلك بمساهمة متمسحين سوريين من عائلات (عيسى فرح ، ولطيف ، وسليمان ، وأزرد) ومنهم ملحقين بمفوضية بريطانيا (Légation)[6] . وبنفس طريقة الرّواد يتنكر بعض البروتستانت ويقدمون أنفسهم بأسماء مستعارة لمخالطة المسلمين[7] ولزيارة مناطق عرف أهلها بورعهم في الاسلام .

وفي سنة 1895 م التحقت بعثة سابعة وتمركزت في مكناس وهذه متأمركة وبروتستانتية ، بإدارة البطان (Nathan) وزوجته وأصبح بالمغرب الأقصى :
75 مبشرا رسميا . و15 مبشرا مساعدا و15 مركزا ببلاد المخزن .

ويتلخص عمل هؤلاء المبشرين في التنصير وتوزيع ومناقشة الإنجيل وتفسيره ، كما تثار المحادثات في الأسواق والديار ، وتغطى هذه الأوجه من النشاط بالأعمال الاجتماعية كالتطبيب[8] وقد أنشأ البروتستانت مستشفى بطنجة[9] سنة 1887 م يحتوي على قاعة للرجال وأخرى للنساء . وبعثت مستوصفات فرعية لكل مركز تبشير[10] فسياسة التبشير هي في اعتبار الناحية الطبية أولا ثمّ الأخلاقية والعقائدية أخيرا .. إذ بدون العمل الطبي تغلق الأبواب»[11] وجاء في «نشرية شمال افريقيا» ان المبشرين عرفوا كحكماء لما وزعوه من أدوية وتلقيح ولما زاروه من منازل كفاس خاصة .. فحتّى موظّفو المخزن يلتجئون اليهم . أمّا مسؤولو

---

(5) — J.L. Miège, d'après, **Missionary Journeys in South Morocco** Londre 1892.

(6) J.L. Miège, op.cit.,

(7) يذكر جان لويس مياج أن كرّ حكيم ومبشر بين اليهود ، وإستعان بمرتدّ اسكتلندي . واستعار هذا الطبب اسم (عبد القاسم) ليتمكن من زيارة منطقة الغرب .

(8) — J.L. Miège, **Le Maroc...op.cit.**, pp. 314-317.

(9) احتفظ مستشفى طنجة بقائمة المرضى ونوعية الأمراض الباطنية (Pathologie) . وفي سجلات المرضى ذكر أصل المريض ومهنته وتشخيص مرضه (Diagnostic) وتطوره . مما يكّون ملفا مفيد المعرفة . هذه الحقائق في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . — عن جان لويس مياج — .

(10) كتب نشرية North Africa العدد 6 من سنة 12894 ، ص 67 «لنا الآن بعثة طبية ومتسشفى بطنجة يديره الحكيم تيرّي (D. Terry) وبعثة ثانية بالدّار البيضاء يديرها الحكيم كرياف (Dr. Crieve) وثالثة بفاس ورابعة بتطوان..» .

(11) — J.L. Miège, **Le Maroc... op.cit.**, p. 320.

داخل البلاد فيستضيفون المبشرين حتى يستلموا منهم الدواء وحتى تقع معالجتهم»[12] .
ومن نشاط البروتستانت فتح المدارس :

| السنة | المدرسة |
|---|---|
| 1879 | مدرسة صويرة للبنات |
| 1892 | مدرسة طنجة للبنات |
| 1892 | مدرسة طنجة للذكور |
| 1893 | مدرسة فاس للذكور |
| 1893 | مدرسة تطوان للذكور |

ثم بعثت ضيعة فلاحية تجريبية بالدّار البيضاء سنة 1893 ومشغل(Ouvroir) بطنجة[13] . وتمثّل العمل الإحساني في ملجإ ليلي للرجال وفي توزيع إعانات للمحتاجين والمساجين : «... أعطيت إعانات لسبعين سجينا في تطوان»[14] .

وقفت انقلترا وراء التبشير البروتستانتي منذ سنة 1890 م بكل صريح ، فقرّرت مصالح المخزن إيقاف النشاط التبشيري بجميع أصنافه . وتمثلت قرارات المخزن في :
— منع الديار على المبشرين .
— منع ربط العلاقات مع المبشرين .
— تهديد كل من يرسل ابنه الى مدارس البروتستانت .
— احتجاج رسمي ازاء حكومة انقلترا بتاريخ ماي 1891 م .
— غلق مدرسة بعثة شمال افريقيا بفاس سنة 1898 م .

وجاءت هذه المواقف نتيجة مباشرة لمزج العمل التبشيري بالسياسة . فقد قال الوزير الانقليزي السيرايان سميث (Sir Euan Smith) يجب الاعتراف بصلوحية المعاهدات لفائدة المواطنين البريطانيين»[15] . أما موقف فرنسا فساند قرارات المخزن كما ساند أمر مولاي الحسن سنة 1891 م القاضي بإيقاف نشاط المبشرين بالجنوب المغربي . ذلك أن فرنسا تعتقد المبشرون البروتستانت من أن النشاط الانقليكاني هو مؤامرة ضدّ فرنسا بشمال افريقيا حتى أن نائب وهران طلب فتح حوار لإبعاد التبشير الانقليكاني[16] . ويقول ج.ل. ميا «هناك

---

(12) — North Africa n°7, 1889, p. 277.

(13) — North Africa n° 2, 1890, p. 28.

(14) — North Africa n°2, 1890, p. 100.

(15) — N.A. n°10, 1889 p. 284.

(16) N.A. n°12, 1896 p. 144.

تزايد يومي لمبشري البروتستانت من الجنسين وبتعلة المداواة المجانية يدخلون في كل مكان ويطّلون على كل شيء ، للعمل على فخر انقلترا»[17] . فبحكم الاقامة ومعرفة اللغة والسلوك وعلاقتهم مع بعض المسؤولين تمكن المبشرون البروتستانت من أن يكونوا مصالح مخابرات لانقلترا . ففي أفريل سنة 1894 م اعترف المبشر سطاو (Staow) بأن «نيرن (Nairn) اتصل عديد المرات بأخبار هامة تخص الوضع بالمغرب»[18] .

وإذا كان يمكن متابعة اتجاهات التبشير الكاثوليكي منه والبروتستانتي فإنه ، مع تنوع السبل والمناهج ، يمكن اعتبار النشاط التبشيري من مسببات الهجمات الاستعمارية . فكانت الجزائر مهدا لظهور الاستعمار الفرنسي وهيّأت لظهور الاستعمار بتونس والمغرب الأقصى في ظروف لاحقة وبتحالف ومساومة بين القوى الاستعمارية الكبرى . وبذلك تراخت الروابط بين الأطراف الثلاثة لشمال افريقيا ، كما تصادمت المصالح والأغراض الأوروبية . وهكذا لم يمض النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى سار شمال افريقيا يجمع الرّواد والمبشرين والاستعماريين . وفي هذا الدور لمعت أسماء كبار المبشرين أمثال شارل دوفوكو بالمغرب الأقصى والكردينال لا فيجري بالجزائر وتونس . والملاحظ أنه ليس هناك فلسفة ولا علم مبتكر يخلّد الأثر لكل مبشّر ، فالحقبة التاريخية تميّزت بخصوبة الاستعمار ولا سيما في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، بالمغرب الأقصى مع البروتستانت حيث الكنائس والمدارس والمستشفيات والمستوصفات .. وفي الواقع أن ما بقي يجمع بين سكان المغرب الأقصى ، كان الدين الإسلامي . ولم يكن المغربي الواعي يدّعي أن ما تضمنته معرفته من القرآن والحديث هو كل المعرفة ، بعكس ادعاءات الغربيين من أن التمدن الأروبي هو المثال الأعلى الذي يجب التفاعل معه والأخذ منه مساهمة في «التراث البشري» .

وإذ كان القرآن مليئا بالمعتقدات المسيحية واليهودية ما يجعل الباحث يعتقد أن الإسلام والمسيحية صيغتان لدين واحد هو دين التوحيد والقيامة وخلود النفس ، فان الجماعة المسيحية كانت على نقيض من ذلك ، فالصورة النهائية عندهم لا يمكن أن تكون إلّا مسيحية وبدون تسامح مع الدّيانتين الأخرتيين . ومن هنا جاءت حملات التبشير معزّزة بالاستعمار وما أثراه من عواقب وخيمة على المسيحيين أنفسهم ، حيث صار المسيحي في ذهنية المغربي يساوي المحتلّ الاستعماري . وليس المهم كله في ذلك ، ولكن ما بقي من ترّسباته في النفوس . فحتّى بعد زوال الاستعمار بقيت رواسب عقلية موجودة عند الكثير من المغاربة المسلمين . ولم تعد النظرة إلى المسيحيين بأنهم ساهموا بشيء في تمدين المغرب . والحقيقة أن المبشرين عملوا بتوجيهات مجتمع روما (1736) الذي توجه الى المطارنة ورجال

---

(17) — J.L. Miège, Le Maroc... op.ciy., p,322.

(18) — Ibid, pp. 322-323.

الدين ورؤساء الأديرة بالتوصية التالية : «إنّنا نأمر بأن تفتح في المدن والقرى والأديرة مدارس يتلقّى فيها الصبيان العلوم . إننا نحثّ المطارنة والكهنة ورؤساء الأديرة على التعاون في سبيل تعيين المعلمين وتسجيل أسماء الصبيان القادرين على تحصيل العلم وحمل أهلهم على التوّجه بهم الى المدارس ... وعلى المعلمين الذين يختارون من مدرسة روما أن يعلّموا الأولاد في المدارس ويثقفوا الأهليين في القرى المجاورة»[19] وأضاف المبشرون خوفهم من طغيان الأكثرية العددية المسلمة ، فراحوا يرفعون شارات التجديد والتصحيح لتوجيه مستقبلي للاسلام حتى تزال منه الأصالة الحقيقية ويكون مغتربا ومقّيدا بمفاهيم الكآبة والحرمان .

---

(19) جوزيف مغيزل، «الاسلام والمسيحية والقومية العربية والعلمانية» في مجلة **المستقبل العربي** عدد 26، 1981، ص 91-92.

## 4 — من سلوك الأجانب والمبشرين :

سلك الاوروبيون طبيعة التعبير عن المصالح الاستعمارية التي ترتبط أساسا بالاحتكار الرأسمالي . ذلك أن قسما منهم يعملون لصالح الصناعيين عن طريق البنوك وأن الرأسمال الموظف يرجع للذين يستخدمونه للإثراء . فاعتمد الأجانب التجارة وهي نشاط عملي يهدف الى سلب خيرات المغرب الأقصى ووضعها تحت تصرّف الرأسمالي الأجنبي[1] . وبهذا الوجه يساهم الأروبي في تسميم الروابط التي كان لها أن تكون عادية وطبيعية . بيد أن هذه السلوكية هي قاعدة للاستفزاز والإثارة لشعور المغاربة . فكان تعبير السكان المغاربة خاضعا لظروف سياسية ملتزمة حدود القوانين . حمل الأجانب معهم بعض المفاهيم من حضارتهم وسلوكهم واستخدموها كسلاح لإذلال الأصالة المغربية . فكانت معركة السلوك الخفية التي تدخل في عدّة مجالات ، وواجهها المغاربة بأعصاب مضطربة وتسلحوا بالذاتية «ووجوب» الحفاظ على المكاسب العقائدية»[2] :

1 — استورد النصارى كميات كبيرة من الخمر ، أكثر من حاجتهم ، وروجوها بين المسلمين ، مما استلفت انتباه أمناء القمارك بمدينة الصويرة خاصة . ووصل الأمر الى علم السلطان مولاي محمد بن عبد الرحمان (1859-1873 م) ، فأمر السلطان أمناءه بمنع دخول ما يزيد عن حاجة النصارى واليهود من كميات الخمر ، كما أمر بتبليغ هذا الأمر الى ممثلي الدول الأجنبية بالمغرب[3] .

2 — تحدّى المستوطنون الأجانب بعاداتهم وأعمالهم وأنشطتهم كل ما يتعارض وطبائع السكان الأصليين ، فمارسوا تربية الخنازير وأكثروا من انتاجها مستهدفين التصدير . وتحدّوا بذلك عقيدة المسلمين المغاربة ، وتذمّر السكان واستاؤوا ، وأجبروا السلطة العليا باتخاذ موقف . فطلب من ممثلي دول النصارى من أن يحدّوا من هذا العمل «...ما أحدثه بعض النصارى .. من تربية الحلاليف حتى كثروا وصاروا يسرحونها في الخلاء ويروحون بها للمدينة ... فلا بدّ تكلم مع نوّاب الأجناس في أمرها ...»[4] .

---

(1) لينين ، المرجع نفسه ص 61-62 .

(2) — G. Ayache, Etudes...op.cit., p. 181.

(3) مجلة «الوثائق»، 4، 1977، ص 231، وثيقة رقم 516 .

(4) «الوثائق» المرجع نفسه ، ص 239، وثيقة رقم 519 .

3 ــ ومن انتهاكات حرمة الواجبات الدينية ، قطع الطريق من طرف تاجر انقليزي[5] ، المؤدية الى مصلي الصويرة ، فطلب السلطان من وزير خارجيته[6] ليكاتب وزير بريطانيا[7] بمدريد ليعلمه بأن هذا السلوك المستفز ظلّ يتزايد وينتشر[4] .

4 ــ شمل العداء الأجنبي كذلك ثبط فريضة الحج ، فقد منع رؤساء البعثات الديبلوماسية والقنصلية الحجاج من النزول بطنجة ، من سفينة مصرية بتعلة أن هؤلاء الحجاج. وحملت مسؤولية ما وقع على وزير الخارجية، كما يفهم من رسالة عامل فاس، إدريس السراج ، إلى وزير الوزراء الطيب بين اليماني بوعشرين[9] .

5 ــ تعمّد بعض الإسبان تزوير السكّة وترويجها بمراكش . ولما اتصل بسفير اسبانيا بطنجة ، اتفق على توجيه المحتال الى طنجة[10] .

6 ــ أقدم الأجانب على إنشاء مكاتب بريدية تابعة لدولهم ، في طنجة ثم في جميع الموانىء التجارية وحتى في داخل البلاد . وقد تكون «وسيلة من وسائل التجسس ، ووسيلة لإرسال كتب التنصير بين المغاربة»[11] .

ومن البديهي أن يتذمّر المغاربة ، ويقلق المسؤولون أمام هذه الظواهر السلوكية . فأمر السلطان مولاي الحسن (1873 م ــ 1894 م) بوضع حدّ لذلك ، مذكّرا بسيادة المغرب ومهدّدا بتدويل المسألة «... إن هذه المسألة مما لا يسوغ أحداثها الا بعد رفعها للدول والكلام معهم فيها...»[12] .

إن الشعور بالتفوق الأروبي هو الذي تحكم في مثل هذا السلوك ، وقد يراد كشف نفسية المغربي[13] وردود فعله ، شأن الأروبين في ذلك شأن المستشرقين في نظرتهم الى التراث

---

(5) التاجر الانقليزي هو كورتيس .

(6) محمد بركاش .

(7) السيد جون هاي .

(8) الرسالة بتاريخ 9 جوان 1863 م ، عن مجلة «**الوثائق**» المصدر نفسه ، ص 253 .

(9) مجلة «**الوثائق**» ، المرجع نفسه، ص 333 وثيقة رقم 573 .

(10) رسالة بتاريخ 4 جوان 1960، عن مجلة «الوثائق» المرجع نفسه ، ص 373-374 م، رقم الوثيقة 573 .

(11) «**الوثائق**» نفس المرجع، ص 458-459 .

(12) رسالة بتاريخ 27 رجب 1296 هـ .

(13) لفظة [المغربي] لم ترد في وثائق القرن التاسع عشر ، والسلاطين يتسعملون عبارة المجتمع الإسلامي للدلالة على الرعية (Ouaille) والسلطان في نظر الرعية هو أمير المؤمنين . وتبقى عبارة [عرب المغرب] لتفيد المعنى الجغرافي .

الاسلامي ، حيث وقعت صياغته — باسم المنهجية — في قوالب تتلاءم مع الاستعمار ، وتجد هذه الملابسات تفسيرها في مواجهة المجتمع المغربي الاسلامي للمجتمع الأروبي المسيحي .

تأكّد الغربيون من أن مقومات الذاتية المغربية تكمن في روابط الدّين واللغة والوطن ، فوضعوا إرهاصات لشدّ المغربي الى الخلف واعتمدوا في ذلك على حالة سكان المغرب يومئذ . ويعتقد أندري لبلان (André Leblanc)) في رسالة دكتوراه سنة 1906 تحت عنوان «السياسة الأروبية في المغرب المعاصر» : «يتكون مجتمع المغرب من التحام سيء لقبائل غابت عنها لفظة الوطنية ، وغابت عنها الطاعة لأولي الأمر ... والأروبي يتخيل امبراطورية مغربية يجعل من شبح السلطان صورة ...للسكان»[14] . ولكن هذا الباحث تناقض مع نفسه فقال : «الدين الاسلامي وحده يكوّن الربط بين القبائل ...»[15] وكان المغرب احتفظ بهيبته وقوّة أساطيله في البحر وباستحكام دفاعه في البرّ وحرّر أكثر ثغوره بطرد الأجنبي[16] عنها وذلك في أوائل القرن التاسع عشر[17] . «وقد كانت الجالية الأروبية تعتقد أن الدّين هو العائق الوحيد بينها وبين المسلمين ما دام الجهل والبربرية تسودان هذه الشعوب . وقد بلغ الصراع شدّه بين الفريقين خصوصا في كل ما يمسّ المعطيات الأخلاقية والدينية»[18] «لاشك أن مثل هذه العلاقة توضح الأهمية البالغة التي كان يعلقها الساسة على المبشرين ، حيث كان هؤلاء يمهدون للتغلغل والتسرب الاستعماري الأروبي سياسيا باديء الأمر ، ثم سرعان ما يشمل مناحي الحياة الدينية والثقافية والحضارية لتكون في خدمته ، وتاريخ التبشير في عدد من الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية ما زال يشهد على تعاون الساسة والمبشرين وازدواجية نشاطهم في خدمة مصالحهم المشتركة»[19]

وإذا كانت الحضارة هي نتاج تفاعل الحضارات جميعها ، فإن الحضارة الاروبية هي وريثة لحضارات إنسانية أخرى : حضارات شرقية ويونانية . فأخذت أروبا ازدهارها منذ عصر

---

(14) — G. Ayache, **Etudes...op.cit.**, p. 178.

(15) — A. Leblanc, **La Politique Européenne au Maroc à l'Europe Contemporaine.** Thèse de doctorat, Paris 1906, p. 27.

(16) المقصود بالأجنبي هنا ، البرتغاليون والاسبان ، وهي إشارة الى أن المغرب الأقصى ظل يعاني هجمات الغرب المسيحي منذ احتلال سبتة أي منذ القرن الخامس عشر .

(17) محمد المنوني ،**مظاهر .. المرجع نفسه** ، ص 2 . الذي يضيف : «كانت دول أروبا .. تؤدي للمغرب ضريبة سنوية ليستديم الصلح بينها ... حتى اذا دخل القرن التاسع عشر ميلاديا ، أخذت المدينة الغربية تأتي ثمراتها ...» .

(18) د. عبد الجليل التميمي «التفكير الديني والتبشيري لدى عدد من المسؤولين الفرنسيين في الجزائر في القرن التاسع عشر» في : **المجلة التاريخية المغربية** عدد 1 جانفي 1974 ، ص 16.

(19) **المرجع نفسه** ، « التفكير الديني ...» ، ص 24 .

النهضة (في القرن الرّابع عشر) واستمرت حتى القرن السادس عشر تعمل على إحياء العلوم والفلسفة اليونانية والنظم الرومانية ، وتقتبس من مراكز الحضارة العربية ـــ الإسلامية في الأندلس وفي جزيرة صقيلية وشمال افريقيا والشرق الأوسط اثر الحملات الصليبية ثم جاء عصر الاستنارة (Siècle des lumières) في القرن الثامن عشر ، حتى أخذت مكانتها بين الحضارات . فالمدنية الغربية ليست غربية الأصل ، إذ هي من أصول افريقية وعن طريق العرب . وحتى المسيحية كانت شرقية الأصل ، فهي ليست غربية . وهذا لم يمنع الأروبيين من التغني بحضارتهم ، وارتبطوا بها حتى في سلبياتها الاستعمار أما السلوك الأجنبي بالمغرب الأقصى كجلب كميات الخمر وتربية الخنازير وقطع طريق المصلّي وثبط فريضة الحج وتزوير العملة ، وانفصالية البريد ، فهي إثارات عجيبة وأبعد ما تكون عن فهم التمدّن ، وبالاضافة إلى كونها استفزازات .، فهي تعكس التكالب على السيطرة . ويمكن إيجاز مستهدفاتها في خمس عناصر :

1 ـــ درس طبيعة المجتمع المغربي الاسلامي .
2 ـــ سبر العقيدة الاسلامية .
3 ـــ محاولة ادخال الأثر السلوكي الأروبي .
4 ـــ تذويب العاطفة الروحية والوطنية .
5 ـــ طمس الذاتية المحلية وفتح المجال للاستعمار .

«إنه من الحكمة أن يعمل الملك والحكومة على تمدين هذه الشعوب البربرية ، هل يظن أن ننجح في ذلك بغير الدّين المسيحي ؟ لا نستطيع أن نصل إلى هذا الهدف باستعمال قوة السلاح أو الوسائل ذات البذخ التافه . إنّ القوّة لا تخلق إلا العبيد . أما البذخ فسيفسد القلوب ويذبل الأرواح ، وعلى العكس من ذلك ، أن الدّين الكاثوليكي يملك وحده ، وبدرجة عالية ، في كل مكان أردناه سرّ إدخال حضارة ، هي بدون جدال ، أكثر كّما من غيرها ذات الفلسفات الباطلة»[20] .

وإزاء هذا السلوك برز الشعور الوطني للمغاربة . فمحمد المنوني يسمّي هذه المرحلة بـ «اليقظة» بينما أطلق جرمان عياش على نفس المرحلة اسم «العاطفة الوطنية» . فالأول يعتقد «إنه لم تتخذ اليقظة شكل حزب وطني إنما كان هناك بعض مؤلفي يبثون أفكار يقظة في مؤلفاتهم»[21] ويعتقد الثاني أنه «لابدّ ، وجوبا ، من الحديث عن شعور وطني كقوّة سياسية»[22] ولفظة وطنية استعملت حديثا (حوالي 1800 م) في معنى الافتخار بالانتماء

---

(20) أورده الدكتور عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق ، ص 33 ، وهي وثيقة حول «أهمية الدّين في الممتلكات الفرنسية بافريقيا» . ولأهميتها أوردت منها هذه الفقرة .

(21) محمد المنوني ، مظاهر يقظة ... المرجع نفسه ، ص 13-14 .

(22) — G. Ayache, Ayache, Etudes...op.cit., p. 177

الخالص الى وسط اجتماعي له مكوناته التاريخية والجغرافية واللغوية والعقائدية . وفي ذلك شعور متكامل لمجموعة بشرية . وفي المغرب الأقصى تجتمع كل هذه الأسس فالأرض واحدة وإن اختلفت ألوانها وصورها واللغة اليومية واحدة إذ هي واسطة التفاهم العقلي والتعامل اليومي ، والتاريخ تتلاقي أجزاؤه ليكون واحدا . وطبع الاسلام الحياة العقلية واليومية بتفكير وتقاليد وعادات معيشية متكاملة أو متقاربة وتخضع لحضارة واحدة وعقيدة واحدة .

أما اليّقظة فمن البديهي ، متوّلدة عن وضع يعاني مظالم الحضور الأجنبي بآثارها ورواسبها ما يجعل ردّ الفعل حقيقة ظاهرة لتأليف فيئة غاضبة لهو «الخرافة التي استقرت في أذهان الكثيرين من أن الأروبي جاء إلى المغرب وافريقيا عامة بوصفه وصيّا عليها لينتشل الشعوب من الجهالة والتأخر . وليس هناك دليل واحد للاعتقاد بأن «العرب يرفضون التقدمّ»[23] . إن إن الاجانب الأروبيين سلكوا مسلكا غربيا وكأن المغاربة لا يعرفون المدنية وكأنهم أناس لا ثقافة لهم ففي القرن التاسع عشر تعرّض المغرب الأقصى إلى ضغط أروبي متزايد ما جعل المغرب يفقد ذاتيته أو يكاد . وكانت الهجمات الأروبية تخضع لعقيدة واحدة وهي المسيحية . وبذلك تندرج جملة سلوك الأروبيين في مجال العقيدة المسيحية . ومن ثمة يدخل تصوّر الفكر السياسي الاستعماري . وعرف النصف الأخير من القرن التاسع عشر اهتماما نظريا بالتراث العربي — الإسلامي ، ولم يكن ذاك الاهتمام ناتجا عن وعي بقدر ما كان تعبيرا عن حيرة صماء لم تهتزّ لها الظواهر الفكرية والاجتماعية في أروبا . وكلما أمعن الإنسان في دراسة التبشير وتاريخه وتحركاته ، ازداد دهشة من طغيانه وخداعه وعنصريته .

ولم يحدث للتبشير أن كشف عن وجهه الحقيقي ليشكل فرعا من مدرسة الاستعمار ولما يستخدمه من حيل ازاء الجماعات المطمئنة. وتمثلت صيغة التحدّي الجديد في الربط بين مختلف المشكلات . ويجمع بينها شدّة الإحساس بالحاجة الى حشد جميع القوى لمقاومة ردّ الفعل المغربي . فكما أن الوجود العربي — الاسلامي كان في عصوره الأولى بحاجة الى جيش يحميه والى قوّة تدفعه ، التقى العمل التبشيري بالعمل العسكري من أجل صيانة هذا الوجود . ولكن الفارق هو أن في مرحلة القرن التاسع عشر كان العلم يسجل كل يوم تغييرا جديدا . وبذلك يتعرّض العمل السياسي والاقتصادي — ومعهما العمل الديني — للنفع والتقدم . وبهذا المفهوم «أصبح الدين تارة قائدا وتارة مصاحبا وتارة تابعا»[24] . ومع تنوع الأعمال التي مارسها المبشرون، تلتقي القدرات الذهنية والحركية في مجال التكامل والصلة بين التبشير والاستعمار . وتسرّب هذا حتى الى اللغة اليومية وأحدث الانفصال بين الأفراد

(23) د. علي عيسى ، «العلوم والدّين في الحضارة الافريقية» ، نشر مجلة الثقافة الجزائرية ، السنة الثامنة عدد 47 ، أكتوبر — نوفمبر 1978 ، ص 51 .

(24) د. عبد العزيز كامل «الدّين ومصير العرب» ، مجلة شؤون عربية ، عدد 1 مارس 1981 ، ص 27 .

والجماعات . ذلك أن «التبشير والاستعمار لفظتان تداخلتا وتكاملتا وظلتا تتعاونان في سياق الواقع الفعلي»[25] في حياة سكان المغرب بنفس المعنى أي استخدام الدّين لقضايا التقدم والتمدن ، وعند الممارسة يتحول المفهوم لاختلاق إطار لمشكلة أوسع لا تكتمل إلا بالتطرق الى الجذور التاريخية[26] ، يجد فيها الإنسان مخرجا من «الاغتراب» الذي يحس به تجاه مجتمع المغرب الأقصى . فظاهرة الحركة التبشيرية تجاوزت نطاقها لتعيش في الفكر والسلوك السياسي . إذ «اقترن ظهور المبشر والإداري والجندي في ثوب واحد ، هو الاستغلال ، ولصالح الاستعمار الامبريالي ، وفي كل الحالات اقترن العمل التبشيري بما فيه من الخدمة الاجتماعية والخبرة العلمية بطريقتي لفنستون[27] (Livingstone) وشويدزر[28] (A. Schweitzer)[29] ويدخل في ذلك الاعتقاد بأن التداخل بين مفهومي عربي ومسلم هو صيغة مقصودة تستخدمها فئات لتحديد مواقفها وسلوكها . فالروّاد المسيحيون آثروا عدم التمييز بين اللفظتين حتى لا ينفر المغربي من التواجد المسيحي في صيغته التبشيرية . واعتقد المسيحيون أن هذا التصور كفيل وحده لحلّ مسألة الأقليات في مجتمع إسلامي كبير . ويمكن عندئذ الادعاء بالمشاركة الغربية ــ المسيحية في تكوين التراث الحضاري المغربي . وما الانتماء إلّا واقع لخلفيات تاريخية وارتباط بمجتمع يمثل التفوق العنصري . وفي كل ذلك تحويل للواقع التاريخي الى مجال سياسي يستمدّ أصوله من التفوق الحضاري الاقتصادي ، وهو تعبير عن حركة سياسية تستهدف خدمة الدّين للاستعمار . لأن المسيحية بفصلها الدّين عن الدولة لم تطرح إمكانية التكامل بين العقيدة والحياة الاقتصادية ، فيصبح التعالي بالمكاسب الاقتصادية أمرا يتناقض مع تجديد الحضارة الغربية ــ المسيحية . وهذا التمجيد يمكن أخذه من وجهة عنصرية يرى معها الأوروبي صفة التفوق لمجرّد انتمائه ، كما يمكن تأويل هذا التمجيد باظهار الرخاء الحضاري الأوروبي والتقليل من شأن الشعوب الأخرى . وأقرب تفسير في هذا الموقف السلوكي هو ظاهرة المفارقة بين الأوروبي المتمدّن وبين ضآلة الموقف الرسمي المغربي ما جعل المغربي لا يتصور وضعه الوطني والقانوني إزاء الأجانب الذين جعلوا قاعدة فكرهم السبق والزعامة . وبدأ مغرب النصف الثاني من القرن التاسع عشر يمثّل لوحة ضعف وانحطاط «هذا الضعف استدعى التدخل الخارجي وأيده فقد المغرب توازنه»[30]. ومع ادعاء الأوروبي

---

(25) سمير كرم ، «تعقيب على الاسلام والمسيحية» ... لجوزيف مغيزل مجلة المستقبل العربي عدد 26، أفريل 1981 ، ص 108 .

(26) المرجع نفسه .

(27) دافيد لفنستون ، من رواد انقلترا في افريقيا الوسطى (1813 ــ 1873) .

(28) ألبير شويدزر ، طبيب ومبشر ومفكر ألماني تطرّق الى العمل التبشيري بواسطة الاستطباب . وكان تحصل على جائزة نوبل للسلام سنة 1952 م . وهو من مواليد 1875 م .

(29) — Encyclopaedia Universallis V.2, pp. 102-103 11e publication, France 1978.

(30) د. عبد الله العروي ، تاريخ ... المرجع نفسه، ص 227–228 .

ـ المسحي بالمشاركة في التركيب الحضاري للمغرب الأقصى ، وقف الغربيون «على هامش الحياة المغربية واعتنوا بالزعماء المحليين الذين كانت تصرّفاتهم وأقوالهم تؤخذ وتنقل عن ضوء ممسوخ»(31) لخدمة جميع الارتيادات وجميع الأطماع الأروبية . وفي جوهرها كانت مسألة اقتصادية توجه ضرباتها للتجارة الاسلامية في البحر المتوسط ، ما جعل الدّول المسيحية تواصل الصراع في كل مكان يوجد الإسلام ، فبالإضافة إل النفع الاقتصادي هناك دفع للكنيسة كي تساهم في الصراع وكانت حصيلة هذه الظروف سلسلة من الهجمات على الموانيء المغربيه»(32) وقد أكّدت تلك الهجمات معرفة وضع المغرب بكل دقّة . وكان الجانب الديني يلعب دور الوسيط بين الاستعمار السياسي والاستعمار الاقتصادي ، فقد أخذت الكنيسة على عاتقها إيجاد تناسق معين في سياسة الدول المسيحية . وعندئذ من التبصّر في شيء أن يوصف هذا العصر بالصليبية الغربية التي وجدت أرضية ملائمة في ضعف دولة المغرب الأقصى لامتداد الامبريالية التجارية ولاختناق الموانيء المغربية واحتكار التجارة . وكان المحرك الأساسي في كل ذلك الحمية الدينية التي بدأت منذ النصف الأول من القرن السادس عشر وتواصلت حتّى حلول الاستعمار الصريح فتوطّدت السلطة الاستعمارية(33) . فيدخل المغرب الأقصى مرحلة التاريخ الحديث وهو في حالة تفكك ، إذ «تغير الوجه الطبيعي للبلاد وانفجر المجتمع وانحرفت العقول»(34) وهي في كلياتها مشاكل تعطي ولا تجد حلها . وهذا الطور الاستعماري ينطلق من ردّ فعل السكان الأصليين : أغاني ، حكايات ، تقاليد ، مجموعة اجتهادات(35) ، وكلها تعبيرات عن المبالغة في تقدير الأجنبي وتسفيل المغربي . ذلك أن احتلال الجزائر سنة 1830 م لم يكن ليخص الجزائر وحدها ، بل تحملت ، الدولتان المجاورتان والمستقلتان استقلالا كاذبا ، مفعول الصدمة ، فاتسع الاستعمار على حساب الاستثمار وعلى تبديل الأفكار وعلى تراجع الزراعة المحلية أمام التجارة والمضاربة والمال الغربية . فتحول المغرب الى «خادم مطيع للمصالح الأجنبية»(36) ، وكانت مفاوضات «فيّنا» منحت الوعي السياسي لدول أوروبا سنة 1815 م ، فتدخلت باسم الحرية ، وتحرير العبيد وإلغاء القرصنة وحرية التجارة وأمن البحار . ونشأ بذلك وضع جديد لسلطات غربية غير محدودة .

---

(31) المصدر نفسه ، ص 230 .

(32) المصدر نفسه ، ص 230-231 .

(33) — Encyclopaedia Universallis V.2, pp. 102-103 11e publication, France 1978.

قارن :

— Le Maroc, dans Alpha Encyclopédie Universelle t. 10 pp. 3831-3832. Grange Balelière, Paris, 1971.

(34) د. عبد الله العروي ، تاريخ ... المرجع نفسه ، ص 293-294 .

(35) — G. Ayache, Etudes... op.cit., pp. 185-186.

(36) د. عبد الله العروي ، تاريخ ... المرجع نفسه ، ص 314 وما بعدها .

وفي الجانب المقابل ، أي في المغرب الأقصى ، كان كل شيء يرمز الى الضعف والأزمة . وقد نظر زعماء الاستعمار ومناصروهم الى أن المغرب يكوّن أمثل نموذج لمراحل التوسع الأروبي، وهو معبر وحلقة وصل بيني قارتي أروبا وافريقيا ، وقد سيطرت على هذه النظرة عناصر البداوة . فكان هناك تركيز على الأوضاع البدائية للزراعة والحياة اليومية ، وتصوير لتخلف الحياة في المدينة والقرية . «أما الاهتمام الكبير فوقع تركيزه على الرّوح القتالية في الإسلام»[37] كتغطية بسلبية لما يمكن أن يكون عليه المغرب الأقصى . وأهملت الفلسفة العقائدية الأساسية إهمالا تاما . وكما أن المغرب الأقصى خضع لعملية غزو ايبيري تتابعت مراحله في أطوار متعددة ولكنها جميعها تعبير عن علاقة عدائية دائمة للإسلام والمسلمين فكذلك النشاط التبشيري خضع لاثار الاحتلال بأنواعه ، وتسلسل الى النواحي المعنوية والفكرية . فعلاقة الغزو السياسي والاستعمار الحضاري ، والتسلسل التبشيري ، هي عملية قيم سلوكية ترتبط بتماسك سياسي في إطار دولي يعكس تحديد التعامل بين الشعوب . وعندئذ فإن «دعوى التبشير لا تنتسب ، في جوهرها إلى الرسالات السماوية بقدر ما تنتسب الى أغراض بشرية»[38] . ومن الحقائق والصور للتدليل على الصلة الوثيقة بين الاستعمار والتبشير بالنظر الشامل لطبيعة العلاقات ، أثبتت الأبحاث أن هدف الاستعمار هو الحصول على الطاقة البشرية المتمثلة في العبيد[39] ، وكانت الكنيسة قانعة بأن تطالب بتعميد الرقيق المرسلين الى الغرب ، ولم تكن الكنيسة ترى في المسألة أية مخالفة[40] . وبذلك استنزف الاستعمار الثروة البشرية في ظل تعميد المبشرين لها ولم تعترض عليه لا الكنيسة الكاثوليكية ولا الكنيسة الانقليكانية فبررت تجارة الرقيق بالاكتفاء بالتعميد . ولقد أدرك المستعمر أن مصلحته تعتمد كل الاعتماد على القوى البشرية وموالاتها له ، ولتحقيق ذلك لابدّ من مواكبة جهود المبشرين لكشف المجهود من عادات وعقائد ، فاستنهض نشاط العلماء المغامرين بجانب عمل المبشرين للاستقصاء والبحث . وتبيّن أن الدّين في المغرب الأقصى — خاصة — هو العنصر الفعال والقوّة المحركة في حياة المجتمع . وفي هذا الاطار تركّز نشاط الهيئات التبشيرية ، فترجموا ووزعوا ما أمكن من الإنجيل ، وأنشأوا المستشفيات والمآوي . في حين أن أروبا ذاتها تعاني من الإلحاد وماله من قوّة وتأثير . ومن هنا «جاءت معالجة الإسهامات الاسلامية (في الحضارة) مختصرة للغاية حتى بدت غير ذات أهمية . والتأكيد على الخصائص السلبية مثل نزعة الإسلام الى الحرب ، قد طغى على تسامح المسلمين تجاه

---

(37) د. أياد القزاز، «صورة الوطن العربي في المدارس الثانوية الأميركية» في مجلة المستقبل العربي ، المرجع نفسه ص 26 .

(38) د. حسن عيسى عبد الظاهر ، «التبشير والاستعمار» ، في مجلة ، عدد أكتوبر 1976 ، ص 1185–1187

(39) المرجع نفسه .

(40) المرجع نفسه .

المسيحيين واليهود مع التأكيد على الأمية وتعدّد الزوجات الى المزيد والتشويه لصورة الإسلام»(41) . كذلك جاء تصوير الصراع الإسلامي ـــ المسيحي في المغرب الأقصى ، في جملة مبهمات وخلط ، ونوقش بشكل سطحي بجانب تمجيد المدنية الغربية(43) . يقول أ.هومبرغ «ليكن المغرب منطلقا لنشر والأفكار العقائدية ... ونكون بذلك رفعنا معنويات الشباب وتعقّبنا كل حواجز ...»(44) بهذه الذهنية المزدوجة ـــ استعمار ، تبشير ـــ اتمت انقلترا منذ 1880 بالسواحل الصحراوية لما في ذلك من نظرة مستقبلية إزاء الصراعات والأطماع الأروبية(45) . والفكرة السائدة التي كانت تسيطر على رجال الدّين والكهنوت في ضرورة إعادة المجتمع الإسلامي إلى المسيحية(46) . وتعمدت انقلترا ، لتجتذب وتغري ، مدّ السكان بجنوب المغرب بكميات من الأسلحة ، في ظرف كان فيه سكان المغرب الجنوبي يعيشون في فقر مدقع وحاجة ملّحة(47) . وتزعم هذا التصرّف المهرّب الانقليزي كورتيس (Curtiss) سنة 1884 م . وقد افتعل إذنا خاصا يمرّ بالأسلحة بين جماعة آيت باعمران (Aït Ba Amran) . وقد انكشف أنه زوّر إذن المرور . وتوقّف نشاطه(48) . كذلك حاول محمود الجزائري أن يقنع أهل الفقيق (Les gens de Figuig) وبني غيل (Beni-Guil) وأولاد سيدي علي بوشنافة (Ouled Sidi Ali Bouchenafa) ، بأن فرنسا منذ سنة 1862 م . تحاول ربط علاقات اقتصادية وتشريك المغاربة في ذلك . وفي كل المحاولات أراد الأروبيون التمظهر بالوّد والسلم في دخولهم إلى المغرب(49) . ومن هذه الناحية يحتل الفكر السياسي الأوربي مكانة خاصة طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وهي اعتماد الإغراء وجذب الأهالي تحت ستار المساعدة. ذلك أنه كانت العلاقات الاقطاعية هي السائدة في مختلف أنحاء المغرب ، وقد استتبعت هذه العلاقات ظروف الفقر والتخلف . وقد كان لذلك كله الأثر الكبير الذي انعكس على التطورات السياسية ، وعلى تطوّر وعي القوى البشرية الرافضة لتغلغل الأجنبي بمختلف أشكاله . وفيما يتعلق بمنطقة المغرب الأقصى على وجه التحديد فإن القوّة الاقتصادية الأروبية (فرنسية وبريطانية وألمانية وإسبانية جزئيا) شكّلت أخطر سيطرة

(41) د. إياد القزاز ، صورة الوطن العربي ... المرجع نفسه، ص 28 .

(42) — G. Ayache, **Etudes...op.cit.**, p. 181.

(43) — Octave Homberg, **La France des Cinq Parties du Monde**, pp. 23-25. Paris, Plon 1927.

(44) — Homberg, **La France ....op.cit.**, pp. 25-29.

(45) — G. Ayache, **Etudes...op. cit.**, p. 185.

(46) — P. Jalaber, **Histoir...op.cit.**, pp. 56-57.

(47) — G. Ayache, **Ibid**, p. 186.

(48) — G. Ayache, **Ibid.**

(49) رسالة من محمد بركاش الى السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان بتاريخ غرة أوت 1862 م . أصل الرّسالة محفوظ في دار الوثائق الملكية بالرباط .

أولية ، في ظرف كان فيه المغرب يعيش تناقضات داخلية في مجالي السياسة والمجتمع . الأمر الذي ساهم كثيرا ، بالاضافة الى الوضع الاقتصادي ، في تصدّع وانحلال مجمل الأوضاع ، والأمر الذي سهّل على دول الامبريالية بسط نفوذها الفعلي على المغرب الأقصى . وفي هذا الظرف بالذات احتدم صراع الامبريالية الأوربية وتنافسها على اقتسام افريقيا[50] . وإذا لم يقف المغرب في مواجهة التحديات الحقيقية فلأن وضعه متداع وضعيف . فقد سيطر التجار الأجانب على النشاط الاقتصادي في البلاد وكان التبادل غير متكافىء . ومن جانب آخر شملت الامتيازات الأقليات المسيحية التي أفرزت هي الأخرى ، عن طريق الإرساليات الدينية ، جدها لفتح المجال لتقلّص الشعور الوطني وانتعاش حركية الاستعمار . وفي الحقيقة لم تكن الطبقات المغربية حتى نهاية القرن التاسع عشر قد تبلورت بمفهوم التمايز ، بل كان التداخل بين الطبقات مرنا يختلط فيه ملاك الأراضي بالتجار وأصبح العديد من التجار مالكي أرض . وشمل التداخل المدينة والرّيف على السواء . لكن لم تعط السيطرة الأجنبية فرص عمل لاستيعاب مختلف الطبقات لتتسلم الدور القياد في إظهار «الوطنية» . وذلك لأنه كان عليها أن تكوّن ذاتها في ظل مواجهة قوى الغزو الأجنبي ، بل اقتصرت أساليب مقاومة الامتيازات والتعبير عن غضبها على إعار ذوي السلطان . ومن أمثلة ذلك في سنة 1861 م ، سارعت جماعة من سكان توات (Touat) الى سيدي محمد بن عبد الرحمان لإعلامه بأن «أعداء الدّين الفرنسيين»[51] حولوا استمالة سكان توات بالهدايا وبتكريم «الأعيان» لإخضاعهم الى سلطانهم . ولكن كان الرفض لكل العروض . وفي ذلك ردّ فعل محدود مكانيا[52] . ومما يؤكد الشعور «الوطني» الواحد أن قبائل بني زروال (Beni-Zeroual) أو ما يسمونهم بزرهانة (Zerhana) تطوعوا للقتل بجانب الجيش النظامي في حرب اسبانيا (1860 م) ، ولم تكن الحرب على أراضيهم أو تهدّد ديارهم ولكن دفاعا عن البلاد[53] — المغرب الأقصى — وهو ما يعكس في نفس الوقت مرارة التجزئة ببلاد المغرب وعجز مصالح المخزن لمقاومة الأجانب[54] . ومهما اختلفت القوى الامبريالية إنها لم تترك فرصة للتدخل في الشؤون الداخلية للمغرب . و«تشير الوثائق جميعها»[55] إلى الاهانة والتحقير الغربيين للسلطة المغربية . ذلك أن السلطان يمثل الرابطة بين الجماعات على مختلف صورهم وطبقاتهم . وبهذه الذهنية تقدم الإسبان سنة 1876 بطلبين الى مولاي الحسن ، لفتح ثغرين عسكرين حول مليلة ولم تتم الرغبة الإسبانية لرفض السكان

(50) — R. Cornevin, Histoire, ...op.cit., pp. 531-533.

(51) — G. Ayache, **Etudes... op.cit.,** p. 186.

(52) — **Ibid.**

(53) — Cornevin (R), **Histoire...op.cit.,** p. 511.

(54) — G. Ayache, **Etudes...op.cit.,** p. 190.

(55) — **Ibid,**

ومساندة السلطان لهم[56] . وهو دليل آخر على تكامل الشعور «الوطني» بين السلطان ورعيته[57] .

وربما كانت التدخلات الامبريالية في شؤون المغرب أكثر أشكال الصراع المغربي ــ الأروبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، واتخذ الصراع أشكالا عديدة بين مسلمين ومسيحيين

وبين مغاربة وأروبيين وفي مظهر استغلال اقتصادي ، ويأتي هذا الصراع بكل ما تحمله الكلمة من تعددية المفاهيم ، كجزء من رغبة السيطرة على المغرب. وإن هذه السيطرة هي الصيغة المعقّدة ، إذ بدأت مع بعثات التبشير ، ثم بعثات التجارة لضرب الاقتصاد المغربي الطبيعي ، ثم أتت كتعبير عن عجز المغرب وقوّة أروبا . غير أن هذه التركيبة ليست صراعا من أجل غلبة فحسب بل رفعت في الجوهر التفوق في الدين «ويعود ذلك الى مجاهدات قديمة ترجع إلى أكثر من أربعة قرون كانت تبرم بيننا وبين بعض البلاد الأروبية فتخوّل لهما حقوقها في بلادنا من جملتها إنشاء أماكن للعبادة لجاليتها ... ولكن هذا الحق جعل الجاليات تنشيء على أرضنا منشئات دينية كبرى ، كنائس ومراكز اجتماعية ومقابر تكون أحيانا أكبر مما لنا في أرضنا»[58] وبذلك يصبح الدين واسطة مواجهة وصراع . ومن النظرة الى الامتيازات وما استقطبته من المغاربة ظل المغرب الأقصى يعاني مواجهة معسكرين ، معسكر ما اصطلح على تسميته بـ «المحتمين» الذي يرتبط بالقوى الخارجية المسيحية ، والمعسكر الامبريالي الذي يقود الصراعات السياسية والعسكرية والاقتصادية ويحاول إذابة العقيدة الإسلامية لصالح المسيحية

وهكذا تتولّد «جدلية» خاصة من خلال الصراع نفسه . وتدخل في ذلك مسألة التبشير والمبشرين ، إذ هي ليست مسألة عقيدة فقط بل هي العامل المشترك لمسار الاستعمار الامبريالي . ولذلك كانت طبيعة الصراع تأخذ صفة المساومات الأروبية لاخضاع المغرب الأقصى وهو يدخل تاريخه الحديث . وباعتبار سلوك معين للمبشرين دخل المجتمع المغربي بكامل طبقاته وفئاته في الصراع وإن اختلفت درجة المشاركة من فئة لأخرى . وتعتبر مساهمة المجتمع المغربي بشكل أو بآخر نقطة تصعيد لمعركة الأيديولوجية العقائدية . هذا ما وضع الصدام في مكانة سلوكية . ولهذه المسألة أهمية من حيث إنها تعكس سياسة أروبا إزاء المغرب الأقصى . لذلك كثيرا ما تظهر النزاعات السياسية وكأنها خلافات حول المغرب . وفي الحقيقة هي مساومات بين الأطراف الاوروبية المتنازعة . فعندما سارت المفاوضات بسرعة وتمّ التوصل الى مؤتمر مدريد (3 جويلية 1880 م) استعصت المشكلة إلى أن تمّ الاتفاق على اعتبار «نظام المحاكم القنصليّة وتحديد عدد المحميين بالأجانب ... بما لا يتجاوز الاثني

---

(56) يطلق السلطان على رعيته لفظة «المسلمين» أو عبارة «عرب المغرب» .

(57) عبد الله كنون ، **شؤون إسلامية** ، ص 121 . دار الطباعة الحديثة الدّار البيضاء (بدون تاريخ) .

(58) الهاشمي الفيلالي ، **دروس تاريخ المغرب** ، ص 231 الطباعة مجهولة وبدون تاريخ .

عشر...(59) اتضح تلقائيا بأنّ الصراع ليس بين الدول المتنافسة على المغرب بل بين المغرب وقوّة أروبا الامبريالية التي استخدمت عملاء (المحتمون) محليين . وكانت الصيغ الديبلوماسية هي قوالب المواقف السياسيّة باعتبارها اجراءات ذات أهمية تطرح على مستوى ارضاء الأطراف الاستعمارية . وصيغة الحقوق المغربيّة لا تتجاوز حقوق القوّة الضّاغطة التي تتمتع بها الأقليات المسيحية خاصة . وهي صيغة موفقة وذكيّة لاستمرار الحضور الأجنبي وصيانة سلوك الأجانب . وهذا ما يفسّر التزاحم الدولي حول المغرب في عهد المولى الحسن حيث «تنوعت مطالبهم حول الامتيازات الاقتصادية وواجبات الديوانة والجبايات الداخلية وحقّ حماية رعاياهم ومن اليهم ...»(60) ولم تكف المطالبة بهذه الامتيازات بل كان «كذلك التخفيف أكثر ما يمكن من سلطان الاسلام على السكان ، لبدىء بالبربر الذين كان يحلو للاستعمار أن يعتبرهم ضعيفي الإسلام»(61) مع أن البربر أكثر استعداد لرفض التنصير والتمسك بالإسلام . ولقد أخطأ الغربيون في «إلغاء السلطات القضائية الاسلامية منذ 1874 م في بلاد القبائل ومنذ 1914 م كانت السياسة البربرية في مرّاكش سائرة في ذاك الاتجاه»(62) وقبل ذلك بذلت جميع الجهود الأروبية المسيحية لكسب زعماء الزوايا كما شطّت فريضة الحج الى مكة وأقيمت العراقيل في وجه الصلات بين إسلام الأرياف والمدن . وفي الحالات العادية «لم تكن نسبة الأطفال المغاربة المسجلين في المدارس لتتجاوز 2% من عدد الأطفال العام الذين هم في سنّ التعليم وهذه الحالة استمرت بالمغرب الأقصى حتى سنة 1939 م(63) . والظاهرة هذه عرفتها الجزائر منذ 1890 م(64) . والهدف هو قهر المكاسب التاريخية دينا ولغة . وبدأ التبشير وهو أحرص وريث لهذه المفاهيم ، فترجمها الى واقع حتى لو لم يعترف لها بذلك إنسان إذ أن المبشرين على استعداد متواصل للتحاور اللانهائي وفي اتجاه مدروس تقرّه الدول الاستعمارية . وفي ذلك تمكن الحواجز الحضارية التي تحدّ من وعي الإنسان المغربي وحتى يبقى المجتمع غارقا في الأساطير . وليس هناك من يملك ان يضع تقديرا دقيقا لظاهرة الأمية بالمغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ومن هذا المنطلق تصبح مشكلة الأمية تستعصي على الحلّ ، وفي نفس الوقت تكوّ ن بابا لدخول الأجنبي . فالمسألة ليست مجرّد إحصاء سكاني فقط إنما تصبح ظاهرة اجتماعية تهيء السيطرة الخارجية وتتحول الى مسلمات وعقبات فعلية لا تقل أهمية عن اختناق الساحة المغربية

---

(59) الهاشمي الفيلالي : «دروس ... المرجع نفسه» ص 230 .

(60) د. عبد الله العروي بتاريخ ... نفس المصدر ، ص 336-340 .

(61) المصدر نفسه .

(62) المرجع السابق .

(63) د. عبد الله العروي ، تاريخ ... نفس المرجع .

(64) العبارة مستعارة من «راسلة الأديان في العصر الحديث» للاستاذ عبد الوهاب بوحديبة ، المنشورة في «الملتقى الاسلامي المسيحي» سلسلة الدراسات الاسلامية (5) 11-17 نوفمبر 1974، ص 12 .

لتسمح بأي نشاط ــ مهما كانت بواعثه ــ يهدد الكيان المغربي ويجعل المغرب في قلق وارتباك . وتجاهل المسيحيون هذا الوضع لأنه يستجيب الى مخططات الغرب التي تستهدف «انتحار الفكر»[65] الإسلامي . ويبدو ــ كما أشرت سابقا ــ أن المشكلة الرئيسية التي واجهها مغرب النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كانت العزلة السياسية المفروضة عليه . وقد استمرت العزلة الى ان حصلت الوعود والمعاهدات ثم الحماية . وكل ذلك يساهم في تنسيق وجهات النظر وخلق المصالح المشتركة بين الساسة والمبشرين .

وهكذا تساعد دراسة التبشير «على فهم عدد من القضايا التاريخية وإلقاء أضواء جديدة عميقة على عدد آخر ... وهي ذات أثر بعيد المدى على مجريات الأحداث . وحركة التبشير من الحركات التي يجب أن يتوقف عندها الباحث والمؤرخ على الخصوص لا لتفسير وفهم الأحداث العقلية السائدة فحسب بل يجب فهم الإيديولوجية الدينية المسيحية التي كانت وراء تطلعات الكنيسة بافريقيا الشمالية خلال العصور الحديثة ...»[66] ففي المغرب الأقصى ظلت الفئات الصغيرة كاليهود والزنوج وعرب الأندلس تدور غالبا في فلك المغاربة ، بينما «كان الاسبانيون أثناء حمايتهم المنطقة الشمالية من المغرب يعظمون ذكر سيسنروس الرّاهب المتعصّب في تتبع الجالية الإسلامية واستئصالها بالوسائل الوحشية ، وهو بطل محاكم التفتيش الاسبانية ، أثناء الاكتساح الإسباني لمملكة غرناطة ... وفي أواخر القرن الماضي تعاون رجال الدّين مع الاستعمار لتنصير المغاربة»[67] . وفي اعتقاد مسيحي التاريخ الحديث أن التبشير بالمسيحية أمر به عيسى . وأراد هؤلاء أن يبدل النّاس في طاعتهم كل الخضوع واتهم من حاول التمرّد والعصيان بالخطيئة[68] ، في حين أن المبشرين تأخذهم الرغبة لاحتلال عقائدي متبوع بغزو عسكري وسياسي ، وخرجوا بذلك من التستر الى الجهر . ومن الخفية الى الاعلان[69] . أما رابطة المبشرين بساستهم فقد كشفتها تقارير والتزامات تقدّم إلى وزارة الداخلية[70] . ومن الطريف المعجز أن الاباء المسيحيين يتجاهلون صلتهم بالاستعمار «فأقصى ما يخصب أذهانهم هو تعليل خدماتهم الاجتماعية ...»[71] بينما تسللوا الى المغرب

---

(65) د. عبد الجليل التميمي، «دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس 1830–1881» في المجلة التاريخية المغربية عدد 3، جانفي 1975 ، ص 5–17 .

(66) عبد الله كنون ، شؤون ... نفس المرجع ، ص 87–91

(67) الامام محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية ، ص 198–205–217–218 دار الفكر العربي (بدون تاريخ) .

(68) نفس المرجع ، ص 113 .

(70) أنظر التقارير والالتزامات ... المثبوتة في الملحق .

(71) عصام الدين حنفي المسيح في مفهوم معاصر ، ص 88 دار الطليعة ، بيروت 1979 .

الأقصى في ثوب الريادة ، وتابعتهم دولهم «فاتخذت انقلترا جبل طارق موقعا استراتيجيا ، واندست فرنسا من الجزائر معتمدة على جهود الرواد»[72] واعتمد الوجود المسيحي على الأساس الديني اعتمادا تاما . وبتزايد الحضور المسيحي أدار الأجانب شؤونهم بأنفسهم ، وتعاملوا فيما بينهم بكل حرية[73] .

ومنذ بدأ استيطان الأقليات المسيحية في التاريخ يالحديث ، ارتبط هؤلاء بتاريخهم وعقيدتهم ، وانطلى ذلك على سكان المغرب الذين كانوا ينظرون الى الحضور المسيحي نظرة عادية . وما لبث هؤلاء الأجانب ، لمّا اشتدّ ساعدهم ، أن شكلوا خطرا على المغرب الأقصى واستعانوا بمخططات استعمارية وبالمشاريع الاستيطانية . وفي ذلك مؤشر عن نوايا الغرب . فوقف المغاربة أمام ثلاثة اختيارات :

ــ الاكتفاء بالرجوع الى الحضارة الاسلامية ورفض الحضارة الغربية لأنها وجدت لمحيط غير محيط المغرب ، ولما احتوته من الآثام ، ولكن هذا الاختيار سلبي لأن التفاعل بين الحضارات من الأمور الطبيعية .

ــ اختيار الاستسلام وقبول ما في حضارة الغرب من خير وشرّ ونسيان الأصالة المغربية . وهذا تقليد ببغائي : أخذ الكل أو ترك الكل . وهي نظرة مبعثها مركب نقص ، إذ تترك مجال التأورب مفتوحا والإقبال عليه بدون وعي . فيصبح الإنسان المغربي العوبة في التيارات الأجنبية بما فيها العدائية . فتعلم لغة أجنبية على حساب اللغة العربية ، وإقحام ألفاظ في اللغة العربية بدون مبرّر ، يكفي لسحق الشخصية الذاتية .

ــ والاختيار الثالث هو الاعتصام بالعطاء الحضاري وتغذيته بما لا يتجاوز الامكانيات الاجتماعية فتدمج فضائل الحضارة العربية الاسلامية مع فضائل ما في حضارة الغرب . لأنّ المقومات الأساسية للمجتمع المغربي هي الدين واللغة والوطن[74] . ذلك أن المغرب الأقصى واجه تحديات خارجية . وتنوعت تلك التحديات واختلفت أشكالها وصورها ، كما تنوعت نماذج الحور الأجنبي ، ما يحتم الاستعداد الذهني والنفسي أي الادراك والوعي لهذه الحقيقة والطبيعة المشكل . لتثبت أمام الاختيار المستحسن . فخطة التبشير قامت على تطويق أوروبا للاسلام بما في ذلك المغرب ، أمام غياب التفكير لمواجهة هذا الخطر في إطار تحركت فيه القوى الاستعمارية دون مخاوف وهواجس[75] . فقد بدأت صليبية الغرب ضدّ عرب الأندلس قبل أن تبدأ في الشرق

---

(72) عبد الله كنون ، «**معارك**» ، ص 87 . مطبعة ديسبيريس ، تطوان ،بدون تاريخ .

(73) «**الاسلام في نظر الغرب**» ، دار الطباعة بيروت ، ص 102–109 . تعريب د. اسحاق موسى الحسيني وتأليف مجموعة .

(74) د. محمد فاضل الجمالي ، «**توحيد الفكر التربوي في العالم الاسلامي**» ص 11–29 ، الدّار التونسية للنشر 1972 .

(75) د. أنيس قاسم ، **تأملات** ... **المرجع نفسه** ، ص 41–56 .

العربي ، وكانت تستهدف نصرة الإسبان . ثمّ تحولت الحرب الى حرب دينية ضدّ الاسلام . ونجح رجال الدّين في تحريك ساسة الغرب ، واختلط الهدف الديني بالغاية السياسية . وكان الحرص على السيطرة الكاملة على جميع الوطن العربي الاسلامي لفرض مسيحية الغرب على العالم الإسلامي(76) .

والأساس الذي تدور عليه معاملة أتباع الديانات يختلف في المسيحية عنه في الإسلام ، فبينما يقبل المسلمون أديانًا مغايرة لدينهم ويرفضون الإكراه في الدّين ، ويرضون أن يتألف المجتمع من مسلمين وغير مسلمين ، تتبرم المسيحية من الديانات الأخرى وترسم سياسة لابادة خصومها أو تحقيرهم(77) أو تحاول اجتذابهم للنصرانية . وقد نشأ عن هذا التفاوت بين الديانتين أن نشطت حركات التبشير ، كظاهرة عادية في تاريخ المسيحية . لكن أسلوب الإغراء والتعصب ضدّ الإسلام ، هو من الحقائق التي لا يجوز تركها(78) . ويقول أحد مفكري المسيحية «... يجب نشر الإنجيل لإنقاذ الإنسان على كامل المعمورة ، فأساقفة (évêques) المسيحية هم بحق الدعاة خلفاء الرسل المبشرين ... وبحيوية الكنيسة يتطور النشاط التبشيري ... فرسالة المبشّر ترتبط من الأساس بالكنيسة . وبذلك نستطيع القول بأن الكنيسة توجد في كل مكان ، في حين بقيت جماعات بشرية على هامش المسيحية . فليعمّ التبشير ولتكون الكنيسة المبشرة في كل مكان ...»(79) ولذا أصبحت مقاومة الاستعمار هي في نفس الوقت مقاومة لسياسة الكنيسة التبشيرية ، وجهادا في سبيل العقيدة الإسلامية(80) . ولقد «عمل (ولاة) الجزائر على الحطّ من المقدسات الإسلامية كالسير قدما في تحويل المساجد الى كنائس ومستشفيات وملاجيء ، وإلغاء الأحباس وإلحاقها بالادارة الفرنسية ، وتحويل قبور المسلمين الى طرقات عمومية وإرسال رفات الأموات الى مرسيليا لصنع فحم العظام»(81) . ومع هذا التكامل الصريح بين التبشير والاستعمار ، كثيرا ما تتعلل الكنيسة — دفاعا على شرعية مبشريها — بتمدين الشعوب وخدمتها ، «كإحياء أثر المسيحية الرومانية بشمال افريقيا»(82) ففي مجال القرن التاسع عشر احتضنت انقلترا واستفادت من جهود مبشريها بالقارة الافريقية . وكانت فرنسا تملك طاقة تبشيرية هامة ما

---

(76) نفس المرجع .

(77) محمد الغزالي ، «**التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام**» ، ص 53 دار الكتاب العربي بمصر — بدون تاريخ .

(78) المرجع السابق ، ص ص 57–59 .

(79) — Paul evdokimov, **Les âges de la vie spirituelle.** pp. 49-53 Desclée de Bruges 1964.

(80) الحبيب الجنحاني ، من قضايا ... المرجع نفسه ، ص 143 .

(81) د. عبد الجليل التميمي. «التفكير الديني والتبشيري ... نفس المرجع» في **المجلة التاريخية المغربية** ،عدد 1 ، ص 16 .

(82) — Pierre Jalaber, **Histoire ...op.cit.,** pp. 56-57.

يسمح ضمان مساهمتها . وما يستلفت الانتباه في كل ذلك في التحركات التبشرية هو الاهتمام المتزايد والتركيز على اللغة الغربية[83] . ومنذ أن تطلعت أوروبا للتوسعات الاستعمارية استخدمت أسلوب الهجرة التلقائية في بداية الأمر ثمّ لجأت الى تعمير المناطق الخصبة بالجاليات المسيحية . وامتدّ هذا الأسلوب — بالمغرب الأقصى — ضمن سلسلة من الاستيطان فبدأ التعمير الأوروبي كظاهرة تمدينية . وتواصل هذا الشكل من الاستعمار مدعما بخبرات الرواد والمبشرين حتى معاهدة الحماية (1912) ، وفي المقابل بقيت المواقف الرسمية المغربية لا تتجاوز الاحتجاجات والشكاوي المتلاحقة لممثلي دول أوروبا . ومن يواكب مسار التبشير في ساحاته المختلفة يتبيّن كيف أن الغرب في حالة عقائدية مضطربة بينما يتجه الاهتمام الى تغريب الإسلام ، وتحاول الكنيسة إعادة سابق سيطرتها على العالم الأوروبي ، وتسعى جاهدة لاسترداد ما فقدته من سلطان على الضمائر والنفوس والقلوب . ولقد ثبت «أن السبب الرئيسي ، بل السبب الوحيد الذي جعل «الامبراطور قسطنطين» يتخذ المسيحية دينا رسميا ، إنما هو ما رآه فيها من التعصب الذي لا يوجد في غيرها من الأديان التي كانت منتشرة إذ ذاك في روما ، ورأى أنّ هذا التعصب نفسه هو الذي سيربط الأمبراطورية برباط من حديد ، فيكون ذلك مقاوما لعوامل التفكك التي تسري في شرايين الامبراطورية»[84] . وإذا كان الاسلام واضحا جليا ، وتعاليمه سهلة ميسورة ، تنسجم مع العقل والمنطق ، فإن الكنيسة الحديثة أتقنت فنّ النظام فيما أعدته : التبشير وصدّ الهجوم على الديانة المسيحية . والتبشير عند الكنيسة من الأوليات ، فيعرف المبشر لغة المرسل اليهم ، ويدرس عاداتهم ، وتقاليدهم وديانتهم ومواطن الضعف فيهم ، والوسائل التي تجذبهم كمبادىء الطب ، وكيفية الدعوة للديانة المسيحية ويرتكز اهتمامهم باستمرار متجدد على أحداث الوسائل لنشر المسيحية[85] . ورغم التباعد المظاهري بين المسيحية والاستعمار فإن المغرب الأقصى عاشهما معا ، فكانت ثنائية تشدّه الى الخلف وهي مشكلة الخلل والانغلاق ثم الانكسار . وإذا جاز القول ، ببروز العداء بين أوروبا الاستعمارية والمغرب الأقصى من هذه الثنائية . يظلّ الغربيون يستمدّون فكرتهم عن المغرب من مجرّد رؤية الارساليات التبشيرية وتقارير الحملات العسكرية . فكان الحوار الأوروبي — المغربي يقوم بينهما كطرفين منفصلين ، احدهما متعال الى درجة الاكتفاء الكلي والمنطلق والثاني تحكمه شروط وقوانين تابعة منه ولا يمكن لها أن تضارب التأورب إلّا بالانصهار أي باختفاء الذاتية العربية الإسلامية والتمسك بالصيغ الغربية وهذه علاقة مفارقة وتسفيل . فحين تبحث مقومات الشخصية المغربية والشعور الوطني — كما

(83) — Robert Cornevin, **Histoire...op.cit.**, p. 457.

(84) د. عبد الحليم محمود ،«أوروبا والإسلام» ص 24 . المكتبة العصرية ، بيروت — بدون تاريخ .

(85) **المرجع نفسه** ، ص 30-31 .

يسميه جرمان عياش[86] ـــ أو اليقظة المغربية ـــ كما يسميها محمد المنوني[86] ، وهي جميعها ترتبط بامكانية التعبير الواحد والرؤيا الواحدة لحتمية رفض أشكال التبعية ، عند ذاك تكون العلاقة علاقة تباعد طبيعي وتكون الثنائية سرابية بقدر ما هي عنصر بارز ، لتترك مكانها للحقيقة أي رفض الاستعمار بأشكاله ، عندما تتكامل روابط السيطرة السياسية والاقتصادية والبشرية والعقائدية أي عندما تسيطر الحضارة العربية بكامل معانيها ويتقاطع التغريب بدعوة الأصالة والذات .

---

(86) — G. Ayache, **Etudes...op.cit.**, pp. 177 et suivantes.

(87) محمد المنوني ، مظاهر ... المرجع نفسه ، ص 13-15 .

# استنتاجات

## 1 — تقديرات عامة :

من وجهة النظر العقائدية البحتة يعتزّ المغاربة بانتمائهم الإسلامي . فالقرآن مصدر دستورهم الرسمي . وهذا لا يعني أن النص القرآني — على صيغته الدستورية — لا يتجاوز حدود المغرب ، ذلك أن عالمية الإسلام بدأت في محيط ضيق ثم أخذت في الاتساع والانتشار ، أي من محلية الى قومية ثم عالمية إنسانية . والإسلام بديل لنظم متوارثة ، فحددّ الروابط الاجتماعية من حيث القيم والمعايير السلوكية ، وإذا كان النص القرآني بلسان عربي فإن الإسلام يفضل خصائص المجتمع العربي دون سواها : [ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ][1] . وهذا على تباين وتفاوت للعمل التبشيري . فمن خصائص المبشرين دراسة اللغات واللهجات الافريقية حتى صارت عندهم اختصاصا علميا مستقلا بذاته[2] . فالأعمال الأولى للتبشير هو الاهتمام باللغات . وما زال هذا الاهتمام يتزايد وقد تمكّن من دراسة اكثر من ثلاثمائة لهجة افريقية ، وهذا العمل يدخل في أوكد حاجة المبشر ليتسنى له إمكانية التخطاب اليومي[3] .

ولمّا قسّمت افريقيا بين القوى الاستعمارية الأوربية كان المبشرون قد هيأوا أرضية «تفاعل الحضارة الأروبية بالحضارة الإفريقية»[4] فباسم التمدّن والتفتح على أروبا وقعت عملية مسح للتراث الافريقي . وعملية الاهتمام بـ «اللغات» الإفريقية تقام على اختيار لهجة ما وإقرارها كلغة تعامل رسمية ، وتطعيمها بمفردات من اللهجات المجاورة . وتتمّ العملية بتخصيص مصلحة للكتابة وأخرى لانتقاء الألفاظ وثالثة لضبط المصطلحات الفنية مع طبعها بالطابع

(1) قرآن ، 4، سورة ابراهيم .

(2) — H. Baumann et D. Westermann, Les Peuples et les Civilisations de l'Afrique. PP. 485-487. Paris, Payot 1967.

(3) — **Ibid.**

(4) — **Ibid.**

الأروبي[5] . وعمل كهذا لا بدّ أن يشكل حاجزا حضاريا حيث المدرسة التبشيرية تفصل الإنسان الإفريقي عن بيئته ، وتوقعه تحت سيطرة مؤثرات المدنية الغربية ، ومن طبيعة الظواهر الاجتماعية الاستمرارية في السلوك وحمل الرواسب البئوية . وهذا التعارض يمزق الذهنية الإفريقية .

وما أن هيأ المبشرون أرضية الاستعمار بافريقيا حتى سارعت أروبا لاحتضان مبشريها ثم اقتسمت كامل اجزاء القارة باستثناء المغرب الأقصى وأثيوبيا لوضعهما الخاص . وتمّ اقتسام افريقيا في مدّة عشرين سنة (1880 م — 1900 م)[6] . يقول كورنفان(Cornevin) : «إن مسار الحركة الاستعمارية لافريقيا يعكس أهمية الدور الذي لعبته الإرساليات المسيحية ، حتى أن هؤلاء (المبشرين) تبوأوا مكانة الاستعمار»[7] حيث بينت الدعوة التبشيرية التأكيدات الجازمة لروابط التبشير بالاستعمار ، ولئن كانت التبشيرية تتظاهر بإدخال الأفارقة في المدنية الغربية ، إلا أنها ساهمت على المستوى العملي في السيطرة الفعلية . وظلّ العامل المشترك الذي يجمع بين حملات التبشير وهجمات الاستعمار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر هو الاستراتيجية الواحدة لاستئصال وتفكيك الأصول . وفي ذلك عمل الى نقل الفكر الافريقي في مجال الأصالة الى مجال عبودية التمدّن الأروبي ما يؤدي الى صراع الأجيال ، وما يؤول الى تعدّد وجهات النظر وتباين الآراء دون الاستناد الى قاعدة معلومة ، فتصاغ المفاهيم بأشكالها المختلفة وينشأ الحقد والخصومة والانتقام بين المجموعات الافريقية ذاتها ولحساب الاستعمار . وفي تشويه الحضارة الافريقية ، تحطيم للعوامل النفسية والعقائدية التي تجمع بين الأفارقة . وفي الاعتناء بخدمة اللهجات صورة الاستعلاء للجنس الأبيض على الجنس الملون . ولا بدّ من الإشارة ، هنا ، الى دليل يعتبر الفعل بوجوهه السلبية والإيجابية هو الأمر الهام : «المبشّر رسول ومحسن ، ومرّب ، ومحرك للبشرية»[8] ويضيف صاحب هذا الرأي «التنصير بحقّ هو التمدّن الكامل»[9] . وفي هذا السياق تظهر رغبة الاستعاضة لتشمل أوسع مجموعات السكان وفي أرق أشكالها إذ تضع نقطة استقطاب مركزية (التنصير الحق : التمدّن الكامل) لمجرّد معطيات مبهمة تعتمد على السياسة التبشيرية . وتبدو الصورة خالية من الجدل الذي يجب أن يكون . وقد قبلت القيادة الاستعمارية تقسيم افريقيا معتبرة جهود المبشرين ، ولم تتمدّن افريقيا وهي حقيقة تاريخية بديهية . وليس من المستغرب في شيء أن تقترن مصالح الاستعمار بمصالح التبشير ، وذلك بفضل تماثل المصالح بين الطرفين ، ومن خلال هذه

---

(5) — Ibid., pp. 485-489.

(6) — R. Cornevin, Histoire... op.cit., pp. 531-532.

(7) — Ibid, p. 461.

(8) J.M. Sèdès, Histoire... op. cit., p. 114.

(9) — Ibid, p. 115 «... Christianiser, vraiment c'est civiliser totalement»...

الرؤية الأولية يمكن استعراض نتائج التبشير بمغرب النصف الثاني من القرن التاسع عشر ولو أن مسار المغرب الأقصى يختلف عما عليه شعوب افريقيا السوداء خاصة . تدور النتائج التبشيرية في المغرب بمضمونها الثقافي أو التراثي حول جملة من المتغيرات في نماذج سلوكية فردية أو جماعية . وتأتي المفاهيم الدينية أو التنصيرية في الدرجة الثانية لتدعم أو تساند ما ظهر من النتائج ، إذ أن الحركة التبشيرية تخفي وراءها أهدافا استعمارية لا تعدو أن تكون بلورة ذاتية لاحتكاك الأقليات المسيحية بالمجتمع الاسلامي المغربي ذي المبدإ الثابت المستقر حتى ولو تنوعت التقاليد وتعددت النماذج . ولقد تشكلت القيم والمواقف الأجنبية بتأثير الجانب المادي .

ولما كانت حضارة المغرب ترفض اللادينية ، فهي لا تستطيع أن تتصوّر الفصل بين الدينية المسيحية والمدنية الغربية لاعطاء وضع يواكب الحياة اليومية . وإذا كان الفكر المغربي أكثر التصاقا بالعطاء الاسلامي فإن التطور الحضاري الأوروبي ينطلق من التحولات الاجتماعية بالتفاعل المادي للتعبير عن مكانته ووضعه ، باعتبار أن الاقتصاد الأوروبي أصبح يتحكم في توجيه السياسة بعناصرها المتغيرة وملابساتها التاريخية . وقد ترد الصعوبة في فرز النتائج بعضها عن بعض وفي تقدير حجمها بقدر ما هي عليه من اختلاف وتداخل .

ومن وجهة الواقع التاريخي بالنسبة للمغرب الأقصى كما بالنسبة للمجتمع العربي — الإسلامي يكون الإسلام ، بالإضافة الى العقيدة ، الرّباط السياسي والثقافة المكتملة[10] أي ليس هناك فارق في مجالات الفكر والثقافة والحضارة ، وكلها تنبع من مصدر واحد . فالهيئة الدينية المغربية تشكل جهاز الشريعة والقضاء ، ومنهم تتكون هيئات التدريس وأئمة المساجد ومديري المؤسسات الخيرية ونظّار الأوقاف . على أنه هناك شبه انفصال بين الجهاز الحاكم وبين رجاّل الشرع ، وهذا الانفصال هو الثغرة التي دخل منها الفكر المسيحي والأوروبي وولّد الازدواجية الثقافية والحضارية التي تأكدت في مسيرة التاريخ[11] . حدث دخول الرواد والمبشرين ، وتكاملت حلقات الاستعمار ، وكان الجهاز الحاكم بالمغرب تنقصه القدرة على انتقاء ما يفد بل لعله يتناقض مع نفسه فينشيء المؤسسات الحديثة الوافدة جنبا الى جنب مع الحروف القديمة[12] . ومع نهاية القرن التاسع عشر لم تلبث الحضارة الغربية أن تغلب على حساب الكيان المغربي الاسلامي ولم يلبث العنصر الأوروبي أن زاد عددا ونفوذا وأصبح التعايش ثنائيا وصار الأجنبي يقوم إزاء المغربي — كما لو كان أصلا يساويه — بالتحكم في النفوذ . وأكدّ ذلك التدفق الاقتصادي والفكر السياسي وبالتالي تدعمت الإرساليات التبشيرية وأصبحت مؤسساتها مركز العلم والناشرة الوحيدة للثقافة الغربية . وزاحمت المعاهدة الدينية

(10) طارق البشري ، «موقف النخبة وموقف الجماهير» **مجلة المستقبل العربي**... المرجع نفسه ، ص 58 .

(11) طارق البشري ، **المرجع نفسه** ، ص 59 .

(12) حول هذا الرأي انظر محمد المنوبي ، **يقظة... المرجع نفسه** ، 76-79 .

التقليدية للمغرب ، وكانت البعثات التبشيرية التي وفدت على المغرب تدير جلّ المؤسسات الحديثة . ورغم ذلك فإن التعليم الديني لم يضمحل وإن كان معدل نمّوه بطيئا «ولمّا تبين أن الجهود التي يبذلها المبشرون لا تتناسب مع النتائج التي يجنونها ... لجأ المبشرون الى حكوماتهم ورضوا بجعل انفسهم الة طيعة في يد دولهم ، فانتهزت تلك الدول هذه الفرصة وجعلت تساعد المبشرين وتسعى الى أهدافها السياسية والاقتصادية الخاصة باستغلال المبشرين والدّين»[13] المبشر يسبق العسكري إلى كل مكان . ويأتي في الظاهر يعتبر خطيئة ومعصية تستوجب فصل المريض وعزله عن الناس كأحد رعايا وإذا وجد مراقبة لجأ الى قنصله وكأن القناصل يدافعون عن المبشرين كرعايا أجانب واعتبارا لهذه الحماية السياسية حرص المبشرون على أن يسلبوا الإسلام كل معاني الشخصية[14] فاتجهدوا في قطع أواصر العرب والمسلمين بنشر اللغة العامة وإحياء كتابة البربر . وفي ذلك حقد على اللغة العربيّة وبغض لأهلها[15] فالتبشير إذن خطر ديني بمثل ما هو خطر سياسي واقتصادي .

ولقد أخفق المبشرون في المغرب الأقصى كما أخفقوا في البلاد الاسلامية في نقل الناس الى النصرانية اعتقاداً وعملا . والحقّ أن جهد الجمعيات التبشيرية في المغرب كان ضئيلا إلى أقصى حدّ الضآلة في النصف الثاني من القرن التاسع ، بالمقارنة الى الجهود المبذولة في أماكن أخرى ، وفي مرحلة متأخرة نسبيا . وبالاضافة الى نشاط التعليم وإحياء الثقافات الافريقية اتجهت عناية المبشرين الى المجالات الاجتماعية والصحية والدينية فترجم الكتاب المقدّس الى العربية وفتحت المدارس بإدارة كهنة[16] ، وانتشر المبشرون في عديد المدن الساحلية للمغرب وبعض المدن الداخلية ، عملا بالاتفاقيات التي فرضتها الدول الاروبية على المغرب الأقصى ، والتي تنصّ على الحقوق التجارية والسياسية للدول الأروبية ، وعلى الحريات الدينية للأقليات المسيحية . غير أن الكنيسة غيّرت أساليب سياستها التبشيرية خاصة في القرن التاسع عشر ، نتيجة تجاربها الطويلة ، فأصبحت لا تدعو مباشرة الى اعتناق المسيحية وخاصة في المجتمع الإسلامي ، بل ركّزت جهودها على ميداني «الأعمال الخيرية» و «الطبّ في خدمة البشر»[17] فأنشأ المبشرون المستشفيات والماوي الى غير ذلك من التمظهر بالإحسان . أما فيما يعود الى تعاطي مهنة الطبّ فإن المبشّر يعتقد في «أن مرض الجذام (La lèpre) . ولما

(13) مصطفى الخالدي وعمر فروخ ، **التبشير والاستعمار** ... **المرجع نفسه** ص 113-114 .

(14) **المرجع نفسه** ،ص 191-208 .

(15) د. زاهر رياض، «**استعمار افريقيا**» ، ص 67آ138 . الدار القومية للطباعة والنشر ، بيروت 1965 .

(16) — **Bordes Encyclopédie,**, Chap. Histoire Universelle, **Le Maroc** pp. 83-84. Iprimerie, georges Lang 1968.

(17) الحبيب الجنحاني ، من قضايا ...**المرجع نفسه** ، ص 132-134 .

فشلت محاولات التنصير بالأسلوب الإحساني ، اقترحت الكنيسة طرح موضوع «فتح الحوار بين المسيحية والإسلام» وهي سياسة جديدة لا تتعلق بالحوار الديني العقائدي وكفى بل هي قضية غزو مسيحي بأسلوب مرن ، لارتباط الكنيسة بسياسة الغرب الامبريالي[19] .

وما محاولات الإصلاح وفي طليعتها حركة البعثات التي اتجهت للدراسة في أروبا إلّا تعبير غير مباشر لوعي متواضع لدى رجال الفكر المغاربة . وكان من المتوقع ان يؤسس أولئك المبعوثون حركة سياسية ، إلّا أن ذلك لم يتم ، وقيل فيهم أنهم بعدما أقاموا بأروبا سنتين عادوا منها جهالا منتصرين[20] . أما عن اليقظة الشعبية التي اتخذت شكل حزب وطني ، فكانت تطالب بتجديد الجيش المغربي وتنادي بالجهاد لا لمواجهة غزو محتمل على المغرب فحسب وإنما لتحرير الجزائر أيضا . ويوجد في الخزانة العامة بالرّباط تحت رقم 1623 مقطع من رسالة منسوبة لابن عزوز[21] الذّي ألفها للسلطان عبد الرحمان . وموضوعها يدور حول تنظيم الجيش المغربي ، ومما جاء في الرسالة : «.... أن النصارى ملكوا الجزائر وسبوا نساءها ، وأخذوا أولادها وغنموا أموالها ... وطمعوا في هذا المغرب وفي الوصول الى مدينة فاس التي هي دار ملكك ... فوجب عليك — نصرك الله — التهيء لهم وجمع العساكر للقائهم»[22] . ومن هذه النظرة العاجلة تتأكد الدّلالات على يقظة أولية تعبّر بخوف عن موقف متواصل للصمود في وجه الاستعمار بأشكاله . وقد أثارت هذه اليقظة اهتمام بعض مصلحي المغرب لتسجيل مواقفهم ازاء جانب الحياة الدينية الذي تؤكده التسلّلات التبشيرية ، وليس هذا من باب تقييم لشخصيات عايشت التبشير ، وتطلعت الى جوانب الدّين عند القائمين به ، وإنما هي وثائق تشير بانتباه وتفكير إسلاميين الى مرحلة سيطرة فرنسا على الجزائر ، مما أتاح استنتاجا سابقاً وله بعد مستقبلي . ومن هؤلاء المصلحين أبو الحسن علي بن عبد السلام التسولي[23] الذي تناول واقع الحياة إذ ذاك بالمغرب الأقصى معتبرا بما عليه الوضع بالجزائر «... إذ نزل عدّو الدين بأرض الاسلام أو قريبا منها مريدا الدخول اليها فإن الجهاد فرض عين على أهل ذلك البلد..[24]» فالحركة الشعبية المغربية التي ارتبطت في بدايتها بالرّدّ على

---

(18) — Abdelhak (Mouldi), **Contribution à l'Etude epidemiologique de la Lèpre en Tunisie.** pp. 5-6. Thèse de doctorat en Médecine, 1979.

(19) الحبيب الجنحاني ، **من قضايا ... المرجع نفسه** ، ص 144–148 .

(20) محمد المنوني ،**مظاهر يقظة**... المرجع نفسه ، ص 303–304 .

(21) يعتقد محمد المنوني أن ابن عزوز هذا الامام عبد الله بن عزوز القرشي المعروف عند العامة بسيدي بلة المتوفي بمراكش في آواخر القرن الثالث عشر هجريا . وهو صاحب كتاب «السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية» .

(22) عن محمد المنوني ، **المرجع نفسه** ، ص 16 .

(23) التسولي توفي عام 1842 م .

(24) عن محمد المنوني ، مظاهر يقظة .. المرجع نفسه ، ص 17 .

الاستعمار الغربي وهي ظروف لها قوّاها وفكرها وملابساتها ، يمكن دمجها في قوالب بداية الوعي . وفي ذلك يتبيّن اختزال التاريخ المغربي وحصره ، في بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اذ يصبح التاريخ في صورته هذه تاريخ نخبة على المستوى الجماهيري وبمنظور علماء المغرب . وفي ذلك ملابسات وفرضيات تحتاج الى بحث مستقل والى مزيد من التوثيق .

والهدف من اثارة نماذج هذه النتائج المتعارضة هو محاولة وضع الاطار التاريخي والاحاطة بالظروف الاجتماعية. قد اعتقد الغربيون لاثبات مؤشر القوة التي تحافظ على مصالح المهاجرين والتجار والمبشرين حتى يظلوا مرتبطين بأوطانهم، بأن «الحماسة التبشيرية، والمعرفة الجغرافية، هي عوامل تكوّن تعلّة التدخلات الاستعمارية[25]. ويحاول روديار كيبلينغ[26] (Rudyard Kipling) تقويم الحركة الاستعمارية الغربية وتبرير مواقفها ولا سيما بالنسبة للمبشرين . فيضع الاستعمار كنتيجة للعمل التبشيري ، ثم يؤكد استعلاء الجنس الأبيض وانتقاء العناصر القومية للردّ على الادعاء باحتمالات الشطط : « .. من قديم ربط الدينيون علاقات مع شعوب افريقيا وآسيا واستهدفوا تمسيحهم ومداواتهم ومقاومة تجارة العبيد . واعتمد بعض الحكومات على جهود المبشرين لتقعيد الروابط التجارية والسياسية . وفي القرن التاسع عشر ، ذهب بعض المفكرين الى أن «تمدين السذّج» يعني عطاء سلوكيا ، وادخال العادات الأروبية ، والتطور العلمي — في مجال الطبّ خاصة — بالاضافة الى المخترعات التنقنية . ومثل هذا العطاء لا يمكن اعتباره خاصا برجال الدين وحدهم ، بل يحتّم ويكشف قدرة «الرجل الأبيض» الذي يستحقّ الاجلال[27] . فمن حيث الفاعلية والتحرك ، يأتي الاستعمار كنتيجة حتمية لجهود المبشرين . وهي من أهمّ مشكلات هذا البحث . إذ جاءت الحركة الاستعمارية مدعّمة في مضمونها الاجتماعي والسياسي بفعل تصورات وفهم رجالات السياسة كالانقليزيين ديزائلي (Disraeli) وشامبرلان (Chamberlain) وكالفرنسيين قامبطّا (Gambetta) وجول فيري (J. Ferry) وتغطي هذه النتيجة في سياقها العام تمحور النشاط السياسي المركّز على جهود المبشرين جلّ المستعمرات بالمفهوم الواسع وتأكيد الامبريالية . ولعلّ أبرز هذه المسلمات هي مسألة تشابه الأوضاع الاستعمارية في كل مواقعه

---

(25) — A. Madalle, V. Prévot et A.M. Sifflet, **Histoire du Monde 1848-1939** pp. 110-111 Librairie classique Eugène Belin, 1970.

(26) ر. كيبلينغ من مواليد بومباي (الهند) سنة 1865 م . وهو كاتب وشاعر انقليزي . له عدة روايات تستعرض المغامرات وتدرس اخلاق وطبائع الشعوب مع تحليل عواطفها ومشاعرها مثل : **La lumière qui s'éteint, et les livres de la jungle** ومن أشعاره المشهورة : **Les sept mers, Ballades de la Chambrée** . وكثيرا ما يجيء أسلوبه القصصي في صورة العنف والخشونة . بينما يتغنّى بالوطنية الانقلوسكسونية وبالاستعمار ، وعملا بما جاء في كتاباته وتغنيه بمجد انقلترا ورحالاتها ، تولد حركة الاكتشافات والريادة فكان ناستيقال **(G. Nachtigal)** وبارث **(H. Barth)** الالمانيان . ثم دي فاريه **(Duveyrier)** الفرنسي وغيرهم. عن .
— Larousse Universel en 2volumes, éd. 1922.

(27) — A. Madalle, V. Prevot et A.M. Sifflet, **Histoire...op.cit.**, p. 112.

وقطاعاته . ولعلّ المسلّمة الثانية هي ارتقاء مجابهة الشعوب للاحتلال العقائدي أو السياسي ... على المدى المستقبلي وهنا أيضا تبرز النتيجة الايجابية على مستوى الشعوب المقهورة . ذلك أن أروبا «أخذت تغزو البلدان غزوا استعماريا عن طريق التبشير ... وأصبحت الجمعيات التبشيرية هي الموجهة للحركات القومية»(28) . وعمل الاستعمار على افراغ مستعمراته من كل مضمون اجتماعي ولا سيما السياسي وذلك بوضعه مخططا يقوم على أساس الفلسفة الحضارية الغربية . واجتهد الاستعمار بتعاون من التبشير ليلصق بالتاريخ الاسلامي المثالب والشوائب . وفي هذا المجال نجحت الحملات التبشيرية في تحقيق جزء كبير من الهدف المرسوم وهو فصل الثقافة الإسلامية عن ذهنية الدارسين الذين يعودون بالولاء الى الثقافة الغربية الى حدّ فقدان الشخصية الإسلامية ، وأصبحت المفاوضة بديلا للجهاد ، فصارت اليقظة الشعبية ويقظة النخبة مضطربة وانتهت باليأس والاستسلام . وقد يكون هذا تأويل فشل البعثات المغربية بعد عودتها من أروبا . لأن قادة الحركة السياسية فقدوا مركز قوتهم ولم يخططوا للمستقبل(29) . وبالرجوع الى نقطة التعاون التبشيري ــ الاستعماري فإن أهم ما تمخضت عليه الجهود التبشيرية في المغرب الأقصى هو تركيز الاستعمار باستيعاب المبشرين جوهر الاتجاه المغربي ومكوناته ، حيث تعقيد الفكر والسلوك الى درجة الغرابة . فالبحث عن أصل البربر وإحياء لغتهم وتفضيل سكان السواحل على سكان المناطق الجبلية وفتح مآوي للخارجين من السجن ... هي شواهد ودلالات على نزعة المبشرين لافتعال الملابسات التي تتفاعل مع ظروف التوسعات الأروبية ، فباعتبار الانفجار السكاني بأروبا إذ بلغ فيما بين 1815 م و1870 م حوالي 190 مليون نسمة ثم 300 مليون نسمة أي 20% من سكان العالم ثم 23% .

فتدخل التوسعات الاستعمارية في هذه الظاهرة بما فيها من كثافة سكانية وتزايد ديمغرافي سريع . وقويت أكثر في السنوات التي تلت 1870 وذلك بحساب الملايين(30) .

| السنوات | 1850 م | 1870 م | 1900 م |
|---|---|---|---|
| عدد السكان | 266 | 310 | 400 |
| النسبة المائوية | % 24،2 | % 25،6 | % 26 |

(28) سميح عاطف الزين ، **عوامل ضعف المسلمين** ، ص 29 دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، بدون تاريخ . والقصد من الحركات القومية ، الحركات الأروبية .

(29) محمد المنوني ، **مظاهر ... المرجع نفسه** ، ص 303 .

(30) — J.L. Miège, l'Expansion Européenne et Décolonisation 1870 à nos Jours. pp. 144-168 P.U.F., 1973.

وساعدت وسائل النقل على تشجيع الهجرات البشرية الأروبية . إذ وقع تغيير هام في الملاحة في سنوات 1850 — 1963 م ولعبت الملاحة دورا أساسيا سنوات 1880 — 1885 م حيث استبدلت السفن الشراعية بأساطيل بخارية . فالتقت أهداف الساسة بأهداف رجال الأعمال حتى أن موانيء لهافر ومرسيليا وبوردو ، بفرنسا ، أصبحت تتحكم في 3/4 التجارة البحرية فيما بين سنة 1884 م وسنة 1906م[31] . فكانت يقظة الشركات التجارية ، التي لعبت أهمّ دور في بناء الاقتصاد الأروبي ، فشركة الترانزتلانتيك الاسبانية تدخلت في شؤون المغرب الأقصى ودافعت على مرابيح الأجانب الأوربيين . وهي التي تستطيع ارسال سفنها في عرض سواحل المغرب الأقصى . ومن الجانب السياسي أنتجت هذه الظروف الشعور بالوطنية «فالدولة العظمى هي التي تكون حاضرة في العالم والتي يسمع لها صوتها في كبريات المشاكل»[32] . وتغنّت ايطاليا بصورة روما وانقلترا بمساهمتها في الحضارة ، كما تغنت إسبانيا بتخليص ارضها في الحضور الإسلامي أما فرنسا فادّعت توزيع «المبادىء الكبرى»[33] كما ساهمت جمعيات الجغرافيين في ميلاد ايديولوجية جديدة «يوحي علم الجغرافيا بأنبل الإخلاص ،،، وأصبح فلسفة الأرض»[34] . أما على مستوى داخل أروبا ذاتها ، فظلت مشاكل الاستعمار تعطل الانتخابات التشريعية والمناقشات البرلمانية وكثيرا ما تنتهي الجلسات دون التوصل الى صيغة واحدة[35] . ففي فرنسا — مثلا — حزب اليمين أقل تشجيعا لحركة الاستعمار فيما قبل سنة 1890 م . لأن في التوسع الاستعماري أغفال قضايا المقاطعات المفتكة . هذا الرأي يتعارض مع موقف فئة المحافظين التي وقفت وراء الاستعمار ونادت به[36] .

وكثيرا ما ترد عبارة «التمدّن الغربي» و«المسيحية التمدينية»[37] على ألسنة المبشرين ومن كتب لهم . ولئن كانت كل الشعوب المتحضرة كأشور واليونان وروما وغيرها تستطيع رفع «شعار المدنية» ، فإن الغربيين رأوا أنفسهم بمنظور التفوق العنصري ، على سائر البشر .

---

(31) — J.L. Miège, **L'expansion... op.cit., p. 149.**

(32) — **Ibid**

(33) — **Ibid**

(34) — La Roncière de Moury, **discours d'inauguration du congrès international de 1875,**

(35) — Girarder (R), **L'Idée Coloniale devant l'Opinion Française 1830-1935,** in Revue française de sc. politique, 6, 1968.

(36) — Girardet (R), **l'idée coloniale...op.cit.,**

(37) أنظر مثلا
— Evdokimov, **Les âges de la vie...op.cit.**
— Goyau, **La France... op.cit.**
— Sèdès, **Histoire... op.cit.**
— Jalaber, **Histoire...op.cit.** etc...

وبالتالي تنطلق قياسات عقائدية لا تخضع لقانون المنطق . فلا حاجة إذن الى القول بأن للإسلام مزايا أكثر من أن تحصى ، كإجلال العقل والرفع من مكانته ، والاسلام دين يخالط الحياة كلها . وما نسميه.بـ «الاتجاه الديني» إنما هو نتاج طبيعي للحالة العقلية للانسان[38] وهو الوضع الأساسي المشترك بين الديانات الكبرى مهما اختلفت أسماؤها[39] . فمن الغريب في شيء تعنّت المبشّر لإعلاء مسيحيته وللحطّ من شعائر الاسلام ، كالقول «إن الصلاة في الاسلام هي برهان على أن هذا الدين دين رسوم ومظاهر[40] . على أن موقف الإسلام لا يحتمل تأويلا كهذا[41] . وإن كان لا يمكن رفض أي رأي عملا بقاعدة الاسلام الكبرى [ وجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . وهذه المسائل إن كانت مباشرة أو غير مباشرة « هي جزء من بنية فكرية تابعة في مرحلة سيطر فيها الغرب سيطرة كاملة ، بحيث برز على أنه النموذج الحضاري الوحيد[43] ما ينصبّ بشكل تلقائي في ذهنية المبشرين .

وتبدو هذه الصيغة كنتيجة هامة لحماية الديانتين ، الاسلام والمسيحية . وضعف أي منهما يؤثر على الآخر . وإذا تمسكت المسيحية بموقف التعنّت بغية نزوع وتظاهر أمام الأمم الأخرى وفي صورة أن تتوفّر لها عناصر القوة المادية والفكرية ، فإن الجدلية تصير مستحيلة إذا تباينت التصورات وتعارضت مفاهيم الذات الحضارية . وليس القصد على أي حال، هو الإرضاء الذاتي أو النقمة الذاتية وإنما في حدود الموضوعية . فإذا كان المسيحيون في المغرب الأقصى ينظرون الى السكان نظرة غيرية وفوقية ، فإن المسؤول على ذلك هو الاستعمار الغربي وليست المسيحية بل المسيحيون المرتبطون بأهداف الساسة الاستعماريين . وبهذا الاعتبار تصبح المعادلة حرجة من جديد . فشارل دوفوكو (Ch. de Foucauld ) عايش المسلمين واجتهد في تمسيحهم ، وما كان ليتمكن من أن يصبر أمام اتساع مشروعه والعمل الذي يريده[44] لولا مؤازرة الاستعمار له . وكان دوفوكو كشف لصديقه هنري دوكاستري (H. de Gastries) عن إعجابه بالإسلام «الاسلام يطيب لي كثيرا لبساطته[45] العقائدية والقيمية

---

(38) ليوبولد فايس ، **الاسلام على مفترق الطرق** ، ص 5 . دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية 1948 .

(39) المرجع نفسه ، ص 17 .

(40) عن المرجع نفسه ، ص 18 .

(41) ليوبولد فايس ، **الإسلام ... المرجع نفسه** ، ص 19-20 .

(42) قرآن الآية 125 من سورة النحل .

(43) مجلة المستقبل العربي ... **المرجع نفسه** ، ص 124 . **حوار مع الدكتور علي محافظة حول نقده لكتاب «وثائق المؤتمر العربي الأول 1913»** للدكتور وجيه كوثراني .

(44) — Ali Merad, **Charles de Foucauld au regard de l'Islam.** p. 76. Paris, Chalet 1976.

(45) استعمل دوفوكو لفظة «البساطة» (la simplicité) التي قد تؤدي معنى التخلف الذهني وقد تعني السهولة وغياب التعقيد . والأرجح أنه أطلقها في معناها الأول بالرجوع الى اعتقاده بأن الإسلام لا يتحمل «مظاهر الثقافة» .

والاخلاقية»[46] . ولم يكن شارل دولوكو يتعاطف مع الاقطاعيين من السكان . فهو يحبّذ سياسة «ديمقراطية» لصالح الطبقة العاملة[47] . ولعله أسلوب إغراء ومخادعة لرجل النّبل المتوارث في فرنسا . وقد تكون هذه السياسة هي التي جعلت الطوارق يلتفون حول شارل دفوكو ويشاورونه في شؤونهم ويطلقون عليه صفة «المرابط» . ذلك أن موقف دوفوكو، خلافا لما كشفه لصديقه ، حيال الاسلام ، موقف غريب إذ يعتقد «أن الثقافة تكفي لإبعاد المسلمين عن عقيدتهم ، فالإسلام لا يتحمّل مظاهر الثقافة كالتاريخ والفلسفة...»[48] ويكون بذلك ابتعد عن عاطفة المسلمين ، وعن جاذبية الاستعماريين لميله الصادق أو المفتعل الى «الديمقراطية» الاجتماعية . رغم أنه على اتصال دائم بالقيادة العسكرية الصحراوية . فمثل هذا السلوك يجعل من المبشّر دوفوكو ينقسم الى شخصيتين متعارضتين في أسلوب معالجته للتغريب الحضاري بما في ذلك التبشير . فهو يرى أن فرنسا ومن ورائها أروبا المسيحية قوة جبارة لا يمكن التصدّي لها لما لديها من الامكانيات العسكرية ولسيطرتها الاقتصادية ، ولما لديها من وسائل الأعلام . ومن الوجهة الثانية ، يتقرّب دوفوكو من الطبقة «المحرومة» حتى يجعلها تتصور «قرب زوالها» ان واصلت نهج الاسلام ، ما جعله يحاط ببعض فقراء الطوارق[49] . والرؤية الاستعمارية عند دوفوكو هي «عمل لتحرير الإنسانية وتمدينها»[50] وهذه النظرة قال بها المبشرون لتبرير مواقفهم في مجال ضرورة تطور الأخلاق والذهنيات اذ بدونها لا تأثير للانجيل . ويبدو دوفوكو هنا الرجل الذي يتوّج آراء الذين سبقوه على امتداد الساحات التبشيرية . وإذا كانت الريادة تستهدف المزيد من حركة الرواد لبحث قضايا المعرفة فإن دوفوكو حاد على الطريق ليتحول الى مبشّر ومعين للاستعمار .

بقيت الإشارة إلى أنه «تحت ظل الاحتلال الغربي بدأت نماذج الأنماط الفكرية والاجتماعية تأخذ طريقها ... فقد بدأ الأجانب بحكم قوتهم وغلبتهم يجلبون النماذج المختلفة من النظم والتقاليد . وأصبح تأثير الحضارة الغازية أكثر قوّة وفاعلية بانتقالها من الجاليات التي استقرت في بلاد المغرب الأقصى ، تمهيدا لاستساغة «طابع جديد»[51] . أي التغريب في جميع مجالاته الحياتية . فاعتمد مبشرو المسيحية الذين وفدوا على المغرب الأقصى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، على وسائل التعليم ، لإذابة شخصية المغربي ، والتعليم هو أشدّ

(46) — Ali Mérad, **Charles de Foucauld...op.cit.**, p. 78.

(47) — **Ibid.** p. 105

(48) — **Ibidp.** 108

(49) — Barrat (Denise et Robert), **Charles de Foucauld et la fraternité.** pp. 127-128. Ed. du Seuil, Paris, 1958.

(50) — Ali Merad, **Charles de Foucauld... op.cit.**, p. 103.

(51) د. محمد عبده يماني ،**المعادلة الحرجة في حياة الأمة الإسلامية**، ص 19-20 دار الاصفهاني وشركائه للطباعة ، بدون تاريخ .

قوّة وتأثيرا لتحويل الذهنيات ، ولتركيز نفوذ الغرب . والتغريب كما عرّفه توينبي ، من أنه «مسألة متزايدة ولا تحل لا بدفع ثم الخطإ وبالانهيار التام ، أو بحصر كل القوى العقلية حتى يتجنّب التصفية الشاملة»[52] . وفي أبسط مفاهيمه «التغريب» هو حمل الناس على قبول ذهنية الغرب . وتتمثل مظاهر التغريب في الاستعمار والاستشراق ــ مع بعض الاستثناءات ــ والتبشير الذي هو العمل على إخراج الإنسان من عقيدته[53] . أي إيجاد الشعور بالنقص في عقيدة الإنسان الفطرية ، وانتقاصْ ثقافته . ومع أن الاستعمار يشكل أكبر بواعث القلق الذي تعانيه الشعوب المستضعفة في ظله[54] ، فإن هذا القلق تكتب له الديمومة بتفاعل وتكامل مظاهر التغريب لمّا تحوّل أساس الحضارة الغربية إلى أيدي رجال الدين وعلماء الاخلاق والاجتماع . فكانت بواعث العودة الى الدين كوسيلة لرفع المستوى الروحي للجماهير ، وللخوف من انتشار الشيوعية منذ أن جاءت فلسفة ماركس وانجلز في القرن الثامن عشر ، وباعدت ما بين الإنسان وبين الاستقرار الروحي . وقضت على «آخر سلاح يعتصم به الإنسان ضدّ الخوف والقلق»[55] . وهكذا وجدت الحضارة الغربية نفسها فاقدة للاطمئنان الإنساني فعادت الىّ تشريك رجال الدين والمستشرقين في كل بعد من أبعادها . وتكاملت هذه العناصر في المغرب الأقصى ، اذ «عاشت القبيلة في المغرب كعامل إيجابي وسلبي ، على النطاق الوطني والنطاق المحلي ... وأصبحت الظروف الدينية تفرض حماية البلاد من الانحرافات سواء على النطاق المحلي أو النطاق الوطني... وكان الدين القاسم المشترك بين جميع المواطنين مهما تباعدت أقاليمهم واختلفت قبائلهم[56] وعملت هذه الذهنية على مقاومة المصالح الأجنبية واستخدام الدين لتجميع المغاربة في مرحلة الانهيار واستسلام وغياب الحقائق ، وفترة تزايد رغبات الأجانب والاستعمار الغربيين . وتتوقف تفاعلات هذه الذهنية على مستوى الوعي المغربي وسيرورة الأحداث التي تهدده . ومن المؤسف أن استغل الغربيون ، في أواخر القرن الماضي ، التسامح الديني استغلالا سيئا للقضاء على السيادة المغربية . ويقول جان رو (J.P. Roux) في مجال استعمار البلدان الاسلامية : «... الهجوم العام الذي يشنّه الأروبيون على دول الاسلام ... بسط السيطرة على الرجل المسلم وفرض عليه مفاهيمه وطرق معيشته وتفكيره ... وبعبارة أخرى لقد تبدّلت الأسس الاقتصادية وتغيّرت المفاهيم . والغربي الذي عزف عن الورحانيات وأكّد ألوية العمل المطلق ... أدار ظهره للحياة الأبدية ليكتسب الحياة الفانية[57] . ثم يعود مستشهدا برأي الكنيسة حيال الدين الإسلامي «من الخطإ

---

(52) عن أنور الجندي ، **الإسلام والدعوات الهدامة** ، ص 244 دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1974 .

(53) المرجع نفسه ، ص 245 .

(54) د. مصطفى السباعي ، **من روائع حضارتنا** ، ص 7 مطبعة الطباعة الحديثة ، تونس، بدون تاريخ .

(55) مصطفى السباعي، **من روائع .... المرجع نفسه،** ص 12 .

(56) عبد الكريم غلاب ، **تاريخ ... المرجع نفسه** ، ص 9-10 .

(57) جان بول رو ، **الإسلام ... المرجع نفسسه** ، ص 56-57 .

أن نعطي للحركة المحمدية اسم «البدعة» المخجل ... يجب أن نفعل شيئا ضدّها ، أي يجب أن نكتب ولكن اللاتين وعلى الأخص في العصور الحديثة ... لا يجيدون إلا لغاتهم القومية . وهكذا لم يستطيعوا أن يعرفوا ضخامة هذه الغلطة ولا أن يسدّوا عليها الطريق»[58] ولذلك أقبل المبشرون بالمغرب الأقصى ، في أواخر القرن الماضي على اللغة العربية وأسسوا لها المطابع واعتمدوها لنشر الدين المسيحي بين سكان المغرب . ويعتقد محمد المنوني أنه منذ الغزوات المسيحية الأولى شوهد «انحلال أخلاقي وعقائدي ، فشاعت البدع ، وظهر الانحراف»[59] . أما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فكانت الغزوات ـــ بمراحلها وصيغها ـــ مؤشرا للسلوك الاستعماري في نظره وتعامله مع قضايا شمال افريقيا عامة وقضية المغرب الأقصى خاصة . وإذا تظاهرت بعض دول الاستعمار الغربي بإقامة نمط من العلاقات ذات البعد الحضاري ، فان التحرك العلمي أعطى المواقف سلبيتها طوال الصراع السياسي وماله من تأثير في توجيه الأحداث ، ومؤتمر مدريد من أوكد الدلالات حيث سيطرت الدول الاستعمارية على الموقف أما المغرب فظل هامشيا لا يؤثر على القرارات المتخذة ، وتتبين هذه الحقيقة بكيفية ضمان استمرار الحضور الاستعماري بالمغرب الأقصى . ولم تكن ظاهرة تعزيز التبشير بالاستعمار من أخص الظواهر بالمغرب الأقصى فقط بل شملت أغلب المستعمرات عصرئذ في المناطق الإسلامية وغير الإسلامية . الأمر الذي اقترن بظهور حركات اصلاحية كفئة العلماء الجزائريين التي أسسها الشيخ ابن باديس (1800 م ـــ 1940 م) وطبعت الحركات الناشئة الجديدة تعاليم ذلك الحركات الإصلاحية[60] التي نادت «بالتمسك بجوهر العقيدة وبالقواعد الكبرى التي يصرح بها الاسلام وهو باق على ذاته وهو مقرون باطلاع جدّي نقدي على الأعمال العلمية في الغرب»[61] . وإن لم تكن هناك علاقة مباشرة للحركة الإصلاحية والتبشير ، فان حركة التجديد كانت مرحلة بعث ويقظة لها أبعادها ومراميها

---

(58) **المصدر نفسه** ، ص 67-68 .

(59) محمد المنوني ، **ملامح من تطور المغرب العربي في بداية العصور الحديثة** ، ص 109×112 المطبعة العصرية ، تونس 1979 .

(60) إلى جانب الحركة الاصلاحية التي بعثها الشيخ عبده (1849-1905 م) في مصر والشرق الأوسط ، كانت نشأت حركة اصلاحية في بلاد الهند ، وهي أشدّ انطباعا بالثقافة الغربية إذ كانت لغتها هي اللغة الانقليزية . وبين الأسماء التي اشتهرت نكتفي هنا بذكر السيد أمير علي (1849 م ـــ 1923 م) «روح الاسلام» ، ومحمد اقبال (1876 ـــ 1938 م) «ست محاضرات في تجديد بناء الفكر الديني في الإسلام» . واهتمّ هؤلاء باحياء إسلام مجدد للدلالة الذاتية على أن الاسلام قادر على مواجهة مشكلات العصر التي أحاطت به ، وما هي الا تصورات اسلامية في قوالب صيغ غربية . كما هي عملية تخليط من أجل مستقبل المسلمين بمقوماتهم وقيمهم وثقافتهم وفكرهم . كانت عملية احياء شاملة ومتعددة الجوانب كتأكيد شمول العقيدة .
انظر : رشيد الذوادي ، **رواد الاصلاح** ، دار المغرب العربي ، تونس 1973 .
ـــ لويس غردية وج . قنواتي ، **فلسفة الفكر الديني بين الاسم والمسيحية** ، ج 1 .
**تعريب الشيخ د. صبحي الصالح والأب فريد جبر ـــ دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الثانية 1978 .**

(61) لويس غردية وج . قنواتي ، **فلسفة الفكر** ... **المرجع نفسه** ، ص 159

كزيادة التعمق في الوضع السياسي والاجتماعي للمسلمين ، وكاستلفات المسلمين الى «مؤامرات التغريب (Westernism) المتعددة ، وكإخلاء الطريق أمام رجال التبشير ليقوموا بالدعوة الى المسيحية»(62) . وحركات الإصلاح جاءت كردّ فعلي هل مدلوله الإيجابي إذ نبّه الى ارادة اكتشاف الذّات لواقع المسلمين . وأعطى الصدى لاتصال الغرب بالمسلمين ، سواء كان هذا الاتصال عنيفا متمثلا في حملة نابليون على مصر . ومتمثلا كذلك في غزو الجزائر ، أم كان الاتصال سلميا متمثلا في عمل المبشرين .

أما عن الاستتباع الثقافي فتمثل في الاستشراق ، حيث تضايقت الثقافة الوطنية وأهملت ، فالعطاء الثقافي في المغرب الأقصى تجزّأ بين الفرنسية والاسبانية واللهجة البربرية وشيء من رواسب البرتغالية ، وهذه الثقافة غربية في مفاهيمها ــ باستثناء اللهجة البربرية ــ تغلغلت في أوساط لا تزال تبحث وتسعى لتشكل نفسها كفئة مثقفة ذات علاقة عضوية بواقع المغرب الإسلامي ، وإزاء ثقافة الغرب تفتتت الثقافة العربية ، وأصبحت ثقافة استهلاك محلّي ، طغت عليها النزعة الاستعمارية . وضاق مجال التأصل العقلي تبعا للتحول المفروض .

(62) رشيد الذوادي ، رواد ... المرجع نفسه ، ص 9-11 .

## 2 ــ التغريب :

ارتبطت ظاهرة التبشير في نزعتها التغريبية بتمجيد المستشرقين . وكان بحث الاستاذ نجيب العقيقي في كتابه «المستشرقين»[1] هذه الظاهرة وأكّد ارتباط المستشرقين بالرهبنة التبشيرية ، وبحث في هذا الشأن أيضا الدكتور محمد البهي في كتابه «الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي»[2] ، كما قابل اتجاه التغريب والاستشراق أحمد فارس الشدياق في كتابه «ذيل الفارياق»[3] الذي يقول فيه «إن هؤلاء الأساتيذ لم يأخذوا العلم عن شيوخه ، وإنما تخرج على القسس ، ثم أدخل رأسه وتوهم أنه يعرف شيئا وهو يجهله . وكل منهم إذا درس في احدى لغات الشرق أو ترجم شيئا منها تراه يخبط فيها خبط عشواء ، فما اشتبه عليه منها رقّعه من عنده بما شاء ؛ وما كان بين الشبهة واليقين حدس فيه وخمّن فرجّح منه المرجوح وفضّل المفضول»[4] . ولا يعرف بالضبط من هو أول غربي عني بالدراسات الشرقية ولا في أي وقت كان ذلك . ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين[5] قصدوا الأندلس ، وتثقفوا في مدارسها وترجموا القرآن والكتب العربية الى لغاتهم ، وتتلمذوا على علماء في مختلف العلوم[6] .

ولما جاء القرن الثامن عشر ، وهو عصر بداية التوسع الاستعماري ، اهتمّ عدد من أساتذة الغرب بدراسة ما وصلهم من مخطوطات بالشراء أو بالسرقة من المكتبات العامة ، وبلغت هذه المخطوطات في أوائل القرن التاسع عشر 250 مجلدا وتزايد هذا العدد مع الزمن[7] . وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين (في باريس سنة 1873 م) وتوالت المؤتمرات .

واهتمّ المستشرقون ، بالإضافة الى البحوث الشرقية ، بالإسلام وحضارته واللغة العربيّة . وكان المحرك لهذا النشاط يتمثل على عدّة عوامل أو دوافع . فبالدافع الديني بدأ الرهبان

---

(1) نجيب العقيقي ، «المستشرقون» ج 1، ص 1044-1081 دار المعارف بمصر 1965 .

(2) د. محمد البهي ، الفكر الاسلامي وصلته بالاستعمار الغربي دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، 1970 .

(3) عن د. مصطفى السباعي ، «الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم» سلسلة أضواء على الحركات الهدامة مكتبة دار البيان ، الكويت 1968 .

(4) عن د. مصطفى السباعي ، نفس المرجع ، ص 9-11 .
انظر كذلك : ــ الاستغراب والاستعراب ، لنذير مدان ، مجلة «منار الإسلام» (أبو ظبي) عدد سبتمبر 1978 .
ــ من بواعث الاستشراق وأهداف المستشرقين ، لعبد الرحمان الجيلاي ، مجلة «الأصالة» (الجزائر) ، العدد 14-15 ، ماي ، جوان ، جويلية ، أوت 1973 .

(5) من هؤلاء الرهبان ، الراهب الفرنسي جربارت (Jerbert) الذي انتخب بابا لكنيسة روما سنة 999 م وبطرس «المقدس» (Pierre Le Vénéré) (1092 م ــ 1156 م) وجيرار دوكريمون (Gérard de Crémone) (1114 م ــ 1187 م) . وغيرهم .

(6) انصبّ الاهتمام خاصة على ميادين الفلسفة والطبّ والرياضيات .

(7) د. مصطفى السباعي ، **الاستشراق ... المرجع نفسه** ، المرجع نفسه ص 13-14 .

بالهجوم لتحويل أنظار الغربيين عن انتقاد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة . ثم استهدفت البحوث تركيز الجهود التبشيرية . وبالدافع السياسي اتجه المستشرقون الى دراسة مكونات الشعوب الشرقية ليتعرفوا على مواطن القوّة فيها فيضعفوها والى مواطن الضعف فيغتنموها ليتمّ لهم ما يريدون ، كإحياء اللغات القديمة لتجزئة العالم العربي — الإسلامي . وشاءت الظروف أن يدخل الدافع التجاري متمثلا في رغبة الغربيين للتعامل مع مختلف الشعوب لترويج بضائعهم . ومكّنت المعاهدات المغربية — الاروبية إلحاق ممثلي الدول الاروبية «بسكرتير» أو ملحق ثقافي يحسن اللغة العربيّة ليتمكن من تقديم خدمات الوساطة . وباستثناء بعض المستشرقين الذين بحثوا من اجل العلم وإظهار الحقائق ظل المستشرقون مصدر الصراع العقائدي بين المسيحية والاسلام على وجه الخصوص ، أما الصنف النّزيه ازاء العقيدة الاسلامية فيتعرض الى الطعن والانتقاد من طرف المستشرقين المتعصبين .

والاستشراق يمثل علاقة جدلية بين خارجي وداخلي ، والمستشرق من درس حضارات الشرق ضمن جماعة ثقافية، اعتمدت أسلوبا خاصا في البحث . وعملية الربط بين المستشرق والأصيل هي الجدلية . وكل منهما يمثّل جزءا من ثقافته في البلد الأصل . ومن هنا يأتي الحكم في جملة من الملابسات على أن مستشرقي أوربا يتكلمون مع ذوي السيطرة السياسية والثقافية والحضارية . وكذلك تصير جدلية المبشر بالمسيحية وهو الخارجي مع المغربي وهو الداخلي . وفي هذه الحالة لا بدّ أن تكون الغلبة للعناصر المتكاملة والأقوى للعبور وتجاوز الحواجز المكانية والزمانية . إذ يفترض المفاهيم العملية لنقطة التقاء النموذجين . على أنّ هذه الخاصية الجدلية كانت سلبية بالنسبة للعمل التبشيري في صورته التنصيرية وشبه إيجابية

بالنسبة للاستشراق ، وليس دائما إذا ما صار الاعتبار يتخذ الأصول من الغرب الاستعماري . فتكون عندئذ المعرفة الثقافية أصيلة لدى المغربي ومفتعلة لدى الدخيل أي المستشرق أو المبشّر . ويمكن استعارة العبارة والأفكار الحضارية المنتشرة من الغرب ولكن لا يمكن استعارة العقيدة لما لها من خصائص جذرية يرى فيها المسيحي مبدأ مكوناته العقلية والعقائدية بينما يرفضها المسلم لأنه لا يجد فيها إضاءة عقيدته وتاريخه وعلاقاته . وبالتالي فإن العلاقة المعرفية لدى المستشرقين تصبح مرفوضة كلما ارتبطت بأغراض الاستعلاء. ولأن عبور معرفة مفتعلة وما فيها من رواسب ما يكفي للكشف عنها «والتبشير والاستشراق في ذلك سواء. والفرق بينهما هو أن الاستشراق أخذ صورة « البحث العلمي الأكاديمي» بينما دعوة التبشير (تبقى) في حدود مظاهر «العقلية العامة» وهي العقلية الشعبية . وإذا استخدم المستشرقون الكتاب والمقال والمناقشة في المؤتمرات العلمية ، فإن المبشرين سلكوا طريق المدرسة والأعمال الخيرية الإحسانية»[8] وإذا كان الاستشراق تركيبا بنائيا في عقلية غربية وأسلوبا منهجياً

(8) د. محمد البهي ، **الفكر إلاسلامي ... المرجع نفسه** ، ص 527 عن مجلة The Muslim World .

لإشباع النفس بما يفترض من التصوّر ، فإن ذلك ليس مبررا أصليا لطبيعة الحوار العقلي . فضلا عن كونه يخدم الاستعمار في شاكلة استغلال ثقافي وعقائدي ، ولأن الاستشراق نسق مترابط شأنه شأن الاستعمار الذي قال عنه جان بول سارتر نفس التعبير .[9] والاستشراق نوع من الأبنية الموروثة في شكل كهنوتي وأعيد تشكيلها بشكل خاص لتوافق الامتياز العلوي المسيحي . والدليل المميز في هذا المجال : «كان منهم من ارتقى الى البابوية مثل البابا» سلفستر الثاني الذي خرج من مدارس الأندلس وكذلك «ألبير الكبير» و«روجي باكون وغيرهم»[10] . ويعتقد المستشرقون ، شأنهم شأن المبشرين ، في أن الإسلام دين الرقّ والاستعباد لبني البشر ، ويؤكدوه كحقيقة علمية ، والمعروف أن مشكلة الرقّ أقدم وجودا من الإسلام ، وهذا موجود في الأناجيل المسيحية «ففي إنجيل بولس الرّسول أمر العبيد أن يطيعوا سادتهم طاعتهم للمسيح ...»[11] بينما أغلق الإسلام أبواب الرقّ وجعل أبواب الحرية مفتوحة ورغّب في تحرير العبد .

وقضية الاختصاص بأمة واحدة أو بجانب من حضارتها ، لا يعني التعمق المطلق في تلك الدراسة بقدر ما تدلّ على مدى العمالة للفكر الاستعماري والتبشيري[12] . وتفرّغ بعض المستشرقين الى «الاستعراب»[13] فكان إنتاجهم ذو طابع شمولي موسوعي حتى أنهم استوعبوا اللغة العربية ، وحاولوا إظهارها بأنها لا تواكب الحضارة الحديثة ، مع أن «لها كل الإمكانيات لتستوعب التعبيرات والأفكار الحديثة لجميع المجالات»[14] . ومن الغرابة في شيء أن المؤسسات المسيحية والاستشراقية ، التي يفترض أن تخدم الإنسان في أجلى معاني المصلحة المشتركة والإنسانية ، تنتهي بأن تحوّل الإنسان الى خادم لها ، وتظهر كقوّة فوقية تسيطر على إرادته ، معادية لعقيدته ومضادة لنمط حياته بل تتجاوزه لتركه هامشيا قلقا «يزداد

---

(9) د. عبد الفتاح الديهدي ، عرض الكتاب «**الاستشراق**» للدكتور ادوار سعيد .
مجلة الفيصل ، **المرجع نفسه ، ص 87** .

(10) عبد الرحمان الجيلاني ، **من بواعث الاستشراق وأهداف المستشرقين**» مجلة «الأصالة» الجزائرية ، عدد 14–15 ، ماي ، جوان ، جويلية ، أوت 1973 .
— سلفاستر الثاني (Silvestre II) بابا من 999 م الى 1903 م .
— ر. باكون راهب فرنسيسكاني انقليزي (1214 م — 1294 م) .
— ألبير الكبير (Albert Le Grand) راهب دومينيكاني (1198–1280 م) .

(11) مجلة «منار الاسلام» (أبو ظبي) عدد فبراير 1976 . **«بداية لحوار .. مع المستشرقين.»**

(12) د. نذير حمدان ، **الاستعراب والاستغراب** ، نشر مجلة منار الاسلام (أبو ظبي) عدد سبتمبر 1978 .

(13) الاستعراب والاستغراب حركة ثقافية تتناول بالدراسة والتصنيف فروعها عديدها من أوجه الثقافة الاسلامية ، وتتجه الى البحث في العقائديات والأفكار والاجتماعيات والأدبيات مع اخضاع كلها المنهجية الغرب وقولبتها بمنظور الذهنية الغربية .

(14) مجلة «منار الاسلام» **المرجع نفسه** .

تقلصا ضمن ذاته لدرجة التحول الى شيء لا قيمة له»[15] . وهذه الظاهرة لم تكن لتؤثر بفعلها في فئة معينة من المغرب الأقصى بل تناولت المجتمع ككل . محاولة أن تسلبه شخصيته الدينية وواقعه الثقافي ، فكانت بذلك ظاهرة «مسيرة على مصير» الإنسان المغربي . «فتعاظمت الإرساليات التبشيرية ، وتثوّلت هنا وهناك على سواحل المغرب وبأقل أهمية في داخله»[16] . وإن بدأت الحركات التبشيرية بالمغرب بعيدة عن التطور والتكامل بعناصر الاستغراب والاستشراق فإن ذلك لم يعمّر طويلا ، فبعثت الإرساليات متناسية خلافاتها المنهجية ، «واستقرت خاصة في فاس ومراكش ومكناس وطنجة وسبتة، وتعاوت بعثات ثلاث[17] على تركيز بذور المسيحية في «بلد الفوضى» وكان «مجتمع التبشير المقدس» نظم عمل الفرنسيسكان سنة 1859»[18] . هذا الحضور وان بدأ قليلا فقد سجل نموذج العلاقة بين عقيدتين ، فالمسيحي يشعر بالفوقية الغربية ويطمئن لمساندتها ، وبوصفه الانتهائي يلتجىء الى الاستجداء كلما بدأت تخوفاته أو هدّد من سكان المغرب[19] . وكان دوفوكو يتابع الحركة الريادية التبشيرية وهو في بني عبّاس بالجزائر . والمسلم بحكم وضعه الاجتماعي والمؤثرات المحلية والترسبات التاريخية ودرجة نموّه الحضاري وهي عناصر تكوّن في مجموعها «حقيقة ثابتة ، وهي صعوبة التعامل الحضاري بين العقيدتين تبعا لمكونات كل منها »[20] . وتجد هذه العلاقة تفسيرها في نسبة نجاح التبشير بين المغاربة . ففي أكثر من ربع قرن لم يهتد الى التمسيح إلا عدد قليل ، على الرغم من الحركة التبشيرية الفرنسيسكانية الناشطة تعود الى مئات السنين بالمغرب[21] . وأنصبّ الجهد التبشيري بالصويرة على الجاليات اليهودية حيث تنصّرت بنيتسي اليهودية سنة 1870 م . أما في طنجة فقد تنصّر قيار موبن سليمان بن الحاج محمد سليمان وابن فاطمة مفتزاح سنة 1878 م . ثم تنصرت زنجية مسلمة (؟) في الصويرة أيضا سنة 1883 م . وكان على المبشرين الفرنسيسكان الاستفادة من تجاربهم التي تؤكد فشلهم ، بحكم تعايشهم في المغرب الأقصى ذي العقيدة الاسلامية المتينة . لكن أنانية المبشرين التي خلقتها حضارة أروبا المادية حالت دون التخلّي عن النشاط ولو كانت حصيلته العقائدية

(15) أراء في «اغتراب المثقف العربي» للدكتور حليم بركات والدكتور سلمى الخضرا الجيوسي والدكتور فيصل دراج . نشر «المستقبل العربي» ، المرجع نفسه ، ص 107 .

(16) — J.L. Miège, **Expansion op.**, p. 163.

(17) البعثات الثلاث هي — الدومينيكان (Dominicains) والبكوشيون (Capucins) والثالوث المقدس (Trinitaires) .

(18) — Mgr. Pons, La Nouvelle Eglise d'Afrique ou le Catholicisme en Algérie, en Tunisie et au Maroc depuis 1830. pp. 284-293. Librairie Louis Namura (s.d).

(19) — Mrg. Pons, **La Nouvelle Eglise... op.cit.**, p. 285.

(20) ابراهيم حركات ، **تحريف التاريخ ... المرجع نفسه** ، ص 211 .

(21) يعتقد جان لويس مياج (J.L. Miège) أن مبشري الفرنسيسكان قدّموا للغرب المسيحي معلومات مغلوطة حول المغرب الأقصى انظر ، Le Maroc... op.cit. p. 315.

تكاد لا تذكر . بينما ظل المغربي المسلم يزاول حقّه الديني بكيفية طبيعية ، وبدأت له صيغة التبشير بالمسيحية في صورة التركيب أو إعادة التركيب في إخراج المسلم من حصانته الروحية ومن مجاله الحيوي . و«الواقع أن التخلّف بشتّى مظاهره الذي ران على شعوب العالم الإسلامي منذ فجر العصر الحديث وبالأخصّ على المجتمع المغربي ، ثم الوضعية الاقتصادية القاتلة التي أصابت المجتمع . فضلا عن نوعية أكثر الحكام الذين أداروا شؤون هاته البلاد ، يفسر طبيعة الهجوم السياسي والعقائدي من طرف الغرب المسيحي...»[22] . وهذا الرأي ليس مجازيا على اطلاق بل هو تعبير عن حقيقة واقعية . فأعمال التبشير تستهدف ، بالإضافة الى محاولات التنصير ، وضع الحواجز لعرقلة نمّو القوّة الذاتية للمغرب ، وهي إنما تفعل ذلك لتغطية قوّة التماسك العقائدي — الإسلامي الملفت للنظر بين الجاليات المسيحية . والذي نجحت فيه لا يتعدّى وضع إرهاصات أولية لامتداد التكامل لسكّان المغرب . ولم ينشأ فشل التبشير بعامل الصراعات أو الخلافات بين الارساليات نفسها كما يوحيه جان ماري سداس (J.M. Sédès) في كتابه عن «تاريخ التبشير الفرنسي» وإنما ذلك مأتاه الخيط الذي يجمع بين قضايا الاستعمار ، ولتركيز المبشرين جهودهم على ذوي المستوى الثقافي المتواضع ، فالتبشير لا يريد التنصير فقط وإنما يعمل لتأكيد السيطرة الغربية بأساليب الدعوة الإقليمية حيث التمزيق والتفرقة لتأكيد سياسية النفوذ الأجنبي. ولقد كان هذا النمط من العمل أثمن ما لجأ المبشرون لاستخدامه. ومن هنا تكون الصلة بين دعامتي التغريب شديدة ووثيقة . فمادة الاستشراق هي معطيات التبشير عن طريق المدرسة والصحيفة . فالاستشراق والتبشير كلاهما يعمل لخدمة النفوذ الغربي . وهذه الخدمة في أبسط معانيها ، هي إدراك كيف يدخلون الى نفسية الأمم ليكيفوا مواقفهم ومعاملاتهم . وفي المغرب الأقصى كما في البلاد الأخرى عمد المبشرون وضع الاسلام والمسلمين في قفص الاتهام . فركز المستشرقون جهودهم على الخلاف بين السنّة والشّيعة لاثارة الصراعات المذهبية . وعارض المبشّرون كل قيم الاسلام ومقوماته ، وفي ذلك انتقاص للتاريخ ومحاولة إضعاف أثر الحضارة . ولم يتقدّم الفكر الغربي للمغاربة للبناء الحضاري الإيجابي ، بدليل أن الحركات التبشيرية سبقت انتصاب الحماية الفرنسية للمغرب ، وبذلك يكون العمل التبشيري حريصا على ابقاء المغاربة داخل دائرة التخلف ، وتسهيل السيادة الثقافية الغربية . ويكون لذلك أيضا خطر عطاء الهيئات التبشيرية في دعم «الانشطارية» المتمثلة في فصل الأخلاق عن التربية وعزل الدين عن المجتمع ، وبصفة أعمّ خلق تضارب وتباعد بين العروبة والدين ، وعندئذ يتقوّض التكامل الذي هو من أبرز القواعد الكبرى للفكر الإسلامي ببعديه : الأصالة والإيمان المفروضين على المؤمن مهما كان اعتقاده .

---

(22) د. عبد الجليل التميمي ، «دور المبشرين في نشر المسيحية بتونس 1830 م — 1881 م» ، (المجلة التاريخية المغربية، عدد 3 جانفي 1975 ، ص 9-10 .

(23) — J.M. Sédès, **Histoire...op.cit.**, p. 39. (...C'était encore cette querelle des rites qui opposait les apôtres...).

ووقف المستشرقون لخدمة أغراض الغرب موقف المؤازرة لسياسة دولهم «ففيليب فونداس ادّعى أن الأموال عند المسلمين من أصل شيطان نجس، واستخرج هذا الحكم من فهمه الحرفي لكلمة (تطهرّهم)[24] من قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[25]، فتبدو الفروق الأساسية بين حضارتي الإسلام والغرب على تباين في وضعها التاريخي وتكون أساليب وفلسفة وأفكار الغرب بمنظور الغرب المسيحي تخضع لظروف حضارية غربية ومن الاستعلاء. ومعلوم أن اللغة مجموعة من التعليمات والعادات المشتركة بين أناس في مرحلة تاريخية معينة. وهي بمثابة دائرة حقائق تظهر آثارها في بيئة دون أخرى. أما إذا خرجت فإنها تتغير ولو قليلا بترسّبات خارجة عن أصالتها. وعبر تفاعل لغة بأخرى ينتصب التاريخ. ومن ذلك جاء أسلوب المستشرقين. كظاهرة وراثية لبيئة غير البيئات الشرقية ما أنتج تحويل أو تحريف المعنى، وفي هذا يكون كل شيء موجّها. وإذن فأفق اللغة عند المستشرقين مثقل بمحدودية معانيها، فهم سجناء كلمات الغير بفهم يضيق ويتّسع تبعا للوعي وقدرة الإنسان على خزن معارفه بالرغم من التباعد الظاهري. ومن الطبيعي أن يكون تقييم عمل المستشرقين خاضعا لفهم الكلمات. لكن هيمنت المبادىء الاستعمارية على المستشرق فراح يبحث في اتجاه مفروض. ومن رأي محمد العربي الخطابي، «أن الثقافة هي تطلع للمستقبل بقدر ما هي تجديد للماضي... وأنه لا يمكن عزل الثقافة المغربية عن الثقافة الاسلامية...»[26] بينما يذهب الدكتور إدريس الكتاني الى «أن الثقافة هي جملة المعلومات المكتسبة التي تساهم في إغناء وترقية ملكات الفكر عن طريق تطويرها وتدريبها مهما كان طريق اكتساب هذه المعلومات»[27]. وهكذا يسعى رجال المغرب الى الحفاظ على صبغة الثقافة دون التفات الى تحيزات وآراء مسبقة. وكان موقف العلماء المغاربة في الفترة ما بين 1860 م — 1900 م. من أمور التطور الثقافي تتلخص في «العناية بالدروس العسكرية والرياضيات على أيدي علماء ومغاربة منهم أبو إسحاق التادلي وأساتذة وفدوا من الخارج»[28] وكان هذا التطور قد امتاز بالاصلاح والتجديد بإيحاء حكومي. لكن الحادثة تطوان التي هي مبدأ هذا التطور الثاني أزالت هيبة المغرب وتطاول الغربيون بسببها فكثرت الحمايات وما ينشأ عنها من ضرر. فتدهور الاقتصاد وساءت حالة المغرب، وأصبح موضع اهتمام اسبانيا

---

(24) عبد اللطيف الشويرف، «أخطار الاستشراق وكيف نواجهها» نشر مجلة (جوهر الإسلام)، عدد 2-3 السنة 6، نوفمبر — ديسمبر 1973، ص 80.

(25) قرآن، الآية 103 من سورة التوبة.

(26) محمد العربي الخطابي (وزير الأعلام السابق بالمملكة المغربية «ندوة الثقافة المغربية ومفهوم المعاصرة» نشر مجلة «جوهر الاسلام» عدد 5-6 السنة 12، ص 31، 1980.

(27) ادريس الكتاني، نفس المرجع، ص 32.

(28) نقولا زيادة، اعلام الفكر ويقظة المغرب الحديث» في مجلة الدوحة عدد 26، السنة 3، 1978، ص 134-137.

وانقلترا وألمانيا . ورغم هذا فإنه أصبح للمغرب حكومة منظمة ، كنتيجة مباشرة لهيمنة أوروبا ونوايا فرنسا في ضم المغرب الى امبراطوريتها الاستعمارية . فبعد أن كان للمغرب وزير واحد بمساعدة الملك ، صار التنظيم الجديد هو :

— الصدارة وفي ضمنها وزارة الداخلية .
— وزارة الخارجية .
— وزارة الحرب ويطلق على صاحبها «العلّاف الكبير» .
— وزارة الشكايات «العدلية» .
— وزارة المالية «أمين الأمناء» .

وكان الذي أحدث وزارتي الحرب والعدلية السلطان محمد بن عبد الرحمان،أما مولاي الحسن الأول فأحدث وزارتي الخارجية والمالية . ووزارة الصدارة كانت موجودة من قبل[29] . هذا وبالاضافة الى ذلك أحدثت خطة النائب السلطاني ، بطنجة لمفاوضة النواب الأجانب فيما يتعلق من دعاوي أهل الحماية ومباشرة أمر الوافدين على المغرب . وقد تولى هذه الوظيفة محمد المفضل غريط وزير خارجية المغرب ثم توالى محمد الخطيب التطواني فمحمد بركاش الرباطي ثم محمد الطريس التطواني . وتهدف سياسة المغرب عصرئذ الى : المحافظة على الحدود المغربية ومقاومة التدخل الأجنبي ، وتطوير علاقات المغرب مع بعض الدول . ويبدو كنتيجة للتأثر بالغرب أنه في نهاية القرن التاسع عشر ازداد الاهتمام بوجود اصدار نشرية عربية . وفعلا صدرت «جريدة المغرب» في 15 ماي سنة 1889[30] .

ومع ذلك ظلت نظرة الغرب نظرة انتقاص لخصوصية المغرب وانجازاته الحضارية ، حتى تبقى الأنا الغربية ، ماثلة للتعبير عن الانطباع . فقد مارس الرّسام دولاكروا (Delacroix ) قدراته لتسجيل سلوك «الأهالي» وحركاتهم بالمغرب الأقصى . ومهما كان إعجاب دولاكروا بالمغاربة فإن الأمر يصبح مختلفا عندما ينتقل الاستشراق من أوروبا الى بيئة التبشير والاستعمار في شمال افريقيا . فحاول الرّسامون المستشرقون بكل الطرق إذلال العنصر الأهلي وخاصة بالتركيز على التخلف الحضاري . «فيمتد التقييم الاستعماري الى الانسان العربي (الأهلي Indigène) ليصنع له صورة ثابتة : فهو كسول ، عاجز ، كاذب ، مخاتل ولا أمل أبدا في إصلاحه»[30] ، وعلى الجملة «تبدو شخصية المغربي بلا أبعاد تتقمّص هذا المظهر أو ذاك مما يتناسب ووضعه كعربي مسلم فهو «السقا» وهو «بائع الفطائر» و«المتسوّل» و«الأعمى» و«المرأة — الجيوان» كصورة فناء الدّار المغربية الظليل التعبير عن المعبد المفضل للحبّ

(29) محمد المنوني ، مظاهر يقظة ... المرجع نفسه ، ص 27–35 .
(30) نقولا زيادة ، اعلام الفكر ... المرجع نفسه ، ص 137 .

والحلم . وما هي الا نماذج نمطية تعكس تصوّر التسفيل للمغرب والتفوق الغربي»[31] . ومن هذه الممارسات التي تتجاوز التعاملات الإنسانية وتتحدّى الشعور تبرز نتيجة حتمية وهي فقدان الارتباط الكلي لمبدإ الثقة وما تشمله من عقيدة ومن سلوك لدى الفئات والأفراد . لأن العقيدة الدينية ليست طقوسا وشعائر فحسب بل هي أكبر من ذلك وأشمل إذ لا بدّ لها أن تقّعد على اقتناع يقيني لتؤدّي رسالتها في تصنيف الأصول والانتماءات . ويصبح الوضع معها اعتزاز في مجالاته المكانية ، واطمئنان في الاتجاه المستقبلي . وهذا ما يحدث غالبا في نماذج صور الحركات التحريرية ، وتوجيه الشعوب في إطار الاختيارات التاريخية الممكنة . وهذا لا يأتي الا بالخروج من التناقضات بأشكالها ، مفتعلة أو تلقائية . وعندئذ يدخل الإنسان بعطائه دون أن ينفصل عن أصالته . فانهزام المغرب أمام الأطماع الغربية يشكّل الدلالة السلبية من الناحية التاريخية أمّا من الناحية النظرية فكان ينبغي مواكبة العمل التبشيري وسدّ الطريق أمامه حتى لا ينمو ويكوّن الطلائع الأولى للاستعمار «فالمستعمرون يحاولون خلق المستعمرات على صورتهم ، أي نقل النموذج الأم الى الأمة الجديدة . وذلك ما لا يتأتّى الّا بتحول عن النموذج الوطني ... ودولتنا ما تزال تقول إنها دولة مسلمة ، ودستورها يعتبر الإسلام دينها الرسمي .... والمغاربة على يقين من خطر الأجانب الذين لا يكتمون أنهم يتخذون التنصير وسيلة»[32] لامتداد الاستعمار . بأنّه صراع بين حضارتين ، فالمغرب «وجد نفسه أمام جماعات ذوي ديانة وثقافة جامدتين ... والمسلمون بثقافتهم الخاصة لا يمكن انصهارهم في الحضارة الغربية...»[33] ومن ذلك سيكون رأي ليوطي (Lyautey ) (1854–1934م) في أنّ «المغاربة من منجى عن تأثير حركة الاستعمار لخصوصية الإسلام...»[34] وهكذا تجمعت عناصر كثيرة في موقف عدائي للإسلام . وكل العناصر متداخلة ومتعاونة مع بعضها . وليس من المنطق أو البداهة أن تكون خدمات التبشير في المغرب الأقصى تخلو من النزعة الاستعمارية . إذ تبدو المسيحية إزاء الديانات الأخرى ، علاوة على الجانب الروحي ، وكأنها «مذهب إحسان وحركة»[35] (و) اهتمام بحاجة الإنسان وكونها ... وتجنّب الكبرياء ...»[36] ذلك لأن النفوس التي انحرفت وسارت على هواها لا تستطيع أن تثمر لتواجه غيرها من ذوي العقائد الأخرى . وقد أدرك هذه الحقيقة الكثير من المستشرقين والمبشرين ، فالمستشرق الأمريكي لثروب ستودّار (Lothrop Stoddard ) اعتقد «أن الإسلام

---

(31) علي اللواتي ، «ملامح من حركة الاستشراق الفني من البدايات حتى الحرب العالمية الأولى» مجلة **الحياة الثقافية** ، ص 43–52، عدد 3 ، جوان 1979 في سنتها الرابعة .

(32) علي اللواتي ، **ملامح** ... **المرجع نلفسه** ، ص 51 .

(33) علال الفاسي ، **دفاع** ... **المرجع نفسه** ، ص 25–26 .

(34) — Le Journal l'Eclair du 26 Juin 1894.

(35) — Girard (L), **le Monde...op.cit.**, pp. 522-523.

(36) — Saint Paul, Epître aux Romains, XII, 3-16. Selon L. Girard, **op.cit.**

انتشر بالقرآن وبه بلغ المسلمون قوتهم المعونية»[37] . ولعل في ذلك أهمّ المنطلقات التي جعلت المبشرين — بدون رؤية انتماءاتهم — يتعاطون مهنة توزيع الأناجيل ويكثرون من طباعته ، وكانوا يعملون في صمت ، ولئن كان المبشرون يحاولون تصوير المغاربة بصفة الضعف العقائدي ، وهم يتظاهرون بالسلام . والإشارة الى هذه الجوانب التاريخية قال بها القرآن في الآية الكريمة : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ مِن بَعْدِمَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ﴾[38] وإذن فالدعوة التبشيرية هي «الإيمان المحنط» . لأن المسألة ليست سوى مناداة لتقليد خارجي وأن «المسيحية[39] مرفوضة... من هؤلاء الذين يتظاهرون بالدفاع عنها ... وهم لا يعترفون بذلك لأسباب سياسية»[40] ورغم الإصلاح الداخلي للكنيسة الكاثوليكية فإنها لم تسترجع أبدا الأرض التي خسرتها لمصلحة البروتستانت ، وأن الاثنين لم يستطيعا مغالبة الاسلام في كل أرض دخلها . فسعي التبشير المسيحي بنوعيه الكاثوليكي والبروتستانتي ، هو فشل طبيعي ، لمّا ارتبطت المسيحية بخدمة الاستعمار ، للتعبير عن مساهمتها في توسيع آفاق الغرب «المسيحي» . وقد حاول الاتجاهان ، الكاثوليكي والبروتستانتي ، الالتحام لمواجهة التيارات الإلحادية المتجدّدة ، وللتعاون على التبشير ، ولكن مشاكل كل منهما أبعدت امكانية الوحدة[41] . كما اجتهد كل من المذهبين استلاب المجتمعات ، استلابا فرديا كما هو في المغرب الأقصى واستلابا جماعيا كما هو في أغلب بلاد السودان[42] . وذلك لاعتقاد المبشرين بأن الظاهرة الدينية ستجد مناخها بين الجماعات . وهنا أيضا فإن العمل التبشيري يبدو كقوّة سلبية إزاء المجتمعات .

فهناك حاجة ملحّة الى إجراء تغييرات هيكلية بين الكاثوليك والبروتستانت تهدف الى التعاون وتنسيق بين انتقاء السياسات . وقطعت هذه التغييرات مراحل هامة في مواقفها إزاء الشعوب المراد تمسيحها . غير أن التصاعد السياسي «الاستعماري» غطّى ما توصّل اليه الفريقان في تحديد نظرتيهما التبشيرية . وظلّ اسهامهما كبيرا في تمكين الاستعمار . وكان هذا مجال التعاون وبغير تفاعل داخلي .

وبالنسبة للمغرب الأقصى لم يحدث مطلقا أن تسوّل المسلمون ازاء المسيحيين المنتفعين بنتاج الغرب المتقدّم والصناعي . لأنّ الوداعة والاحسان ليست حبسا على الغرب المسيحي .

---

(37) محمد عبد يماني ، المعادلة الحرجة ... المرجع نفسه ، ص 78 .

(38) قرآن ، الآية 109 من سورة البقرة .

(39) في معناها الكاثوليكي .

(40) ميشال فيرّية ، الماركسيون والدّين ، ص 141 ، ترجمة د. خضر خضر . دار الطليعة ، بيروت 1978 .

(41) — Louis Girard, Le Monde...op.cit., pp. 319-320.

(42) لفظة السودان تشمل كل البلدان الافريقية ما وراء الصحراء وبهذا المعنى أوردها مؤرخو ورحالة العرب .

أما ظاهرة المحتمين فأساسها العمل وليس الاستجداء[43] . رغم ما تظاهر به المبشرون من الانتماء لحضارة الغرب المتمدّن . ولم تكن الحاجة ذات دلالة تاريخية . ذلك أن القيادة الفكرية للمؤسسات الدينية الاسلامية تشكلت من أناس يعتزّون بولائهم للاسلام . ولولاهم لأمكن تفريغ المغربي تفريغا كاملا من ماضيه كلّه .

وفي جميع الحالات أكّدت أروبا حضورها بالمغرب الأقصى ، في النصف الثاني من القرن التاسع ، معتمدة على الارساليات التبشيرية ، وظلت آثار أروبا بادية في الحياة اليومية ، أما صراع الأفكار العقائدية فيدخل في اطار الغزو الاستعماري وطبيعته . وما التبشير الا شكل من أشكال التحديات الغربية «لتكييف المغربي حتى يتدرّج في الأخذ بأساليب حضارة الغرب»[44] . وجنّد المبشرون كل طاقاتهم البشرية والمادية والعلمية مع تنسيق متكامل من أجل تحقيق جعل دول العالم مسيحية تخضع للفاتيكان بروما ، وللغرب المسيحي . و«توضع بلايين الدولارات سنويا للتبشير ورعاية شؤون المسيحية»[45] . تلك هي ظاهرة التبشير وآفاقه التي لا حدود لها . وبمساندة البابوية لم يعد مدلولها يعكس نزعة مخاطرة في أراضي بعيدة . بل أصبحت ضرورة تتسم بالديمومة ازاء من لا دين لهم ومن لهم دين ومعناه أصبحت المسيحية كنظام له تصوراته العقائدية ومنهجه الحياتي . ذلك أن مؤتمر برلين[46] أكّد النزعة الاستعمارية «كلّ قوّة أروبية قامت على ساحل ما يمكنها أن تتوسع الى الدّاخل . وكل قوّة تلغي الحق»[47] . فكان المسيحيون بهذا الاعتقاد الاستعماري يريدون تحقيق رسالة المسيح باعتبارها الأخيرة في حين أنّه جاء في انجيل متّى الأصحاح الخامس وعلى لسان عيسى عليه السلام « ... ما جئت لأنقص بل لأكمل ...»[48] فالرسالة المسيحية لم تكن متممة بل هي مكمّلة لما سبق من الرسالات الأخرى أما مستقبليا فباب الدّين يظلّ مفتوحا ليتممّه محمد[49] فكلّ الأديان السماوية في جوهرها واحدة تماثلت عند جميع الأنبياء والرسل «انّا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيّين»[50]فالاهتمام التبشيري المتزايد في المغرب الأقصى في

---

(43) — **Le Chrétien en dialogue...op.cit.**, pp. 88-90.

(44) عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، **«الحركات التبشيرية (التنصرية) وكيف نواجهها»** . **عن مجلة «الوعي الاسلامي»** ص 54-61، العدد 106 ، السنة 13 ، نوفمبر 1977 .

(45) عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، **المرجع السابق** ، ص 58 .

(46) نتيجة للمعاهدة الانقليزية — البرتغالية بتاريخ 26 فيفري 1882 م ، التأم مؤتمر برلين ، من 15 نوفمبر 1884 م الى 27 فيفري 1885 م . وشاركت فيه 14 دولة وهي : ألمانيا ، النمسا ، المجر ، بلجيكيا ، الدنمارك ، اسبانيا ، الولايات المتحدة الامريكية ، فرنسا ، انقلترا ، هولندا ، ايطاليا ، البرتغال ، روسيا السويد وتركيا .

(47) — M. et R. Cornevin, **Histoire de l'Afrique des Origines à la 2è Guerre Mondiale**, p. 300. Paris, Payet 1967.

(48) عن د. محسن العابد ، **«دراسات وبحوث مقارنة»** ، ص 28 المطبعة العصرية ، تونس 1979 .

(49) د. محسن العابد ، **المرجع نفسه** .

(50) قرآن ، الآية 163 من سورة النساء .

النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وعلى حساب دين سماوي ، لا يبرّر الّا بما توصّلت اليه الدول الأوربية في ارساء نفوذها ، لحلّ ما لأروبا من مشكلات ذات تأثير على سيرورة الأحداث . وهو ما يعتقده القدّيس أميساه (Mgr. Amissah) » من أن العطاء الكاثوليكي لشعوب افريقيا والمساهمة في ابراز الشخصية الافريقية كلها عوامل تدخل في ملابسات سياسية»[51] كما يعتقد القس باهوكين (La Pasteur Bahoken) في أن «رسالة المسيحية التي تحمّلها البروتستانت هي المميزة لتشريك الأفارقة في تكوين شخصيتهم»[52] وبالنسبة لمبشري المغرب ظهر التكامل والاتفاق على ضرورة استبعاد الخلافات المذهبية المسيحية . وقد يبدو أن الرأيين مختلفان ، غير أنه على مستوى حضاري تتأكد مشاركة السيطرة السياسية وهي العمود الفقري لحركات التبشير اذ يعمل الساسة على توحيد الرؤيا مهما تنوعت الآراء واختلفت المذاهب والاتجاهات . لأن العنصر الرئيسي هو أوربة الشعوب وتغريبها . ويمكن اعتبار المبشر داعية لكل هذه العناصر الفكرية . فالتبشير ينادي — حسب مفكر غربي مسيحي «الى تحرير الانسان من جهله ويرجعه عن انحرافه وأخطائه ازاء نفسه وازاء غيره ... فرسالة المبشّر هي رسالة تخليص ونجدة وتطهير وتزكية واخاء عالمي ... واذا كان هذا هو التبشير فلتكن حركة للتعريف بالمسيحية... وحركات التبشير في التاريخ الحديث بعثت مراكز متعدّدة للخدمات فهناك المستوصفات والمستشفيات والمدارس والاستغلال الفلاحي للأرض علاوة على تكوين من شاء...»[53] ومن الواضح أن الطابع التغريبي يسيطر على هذه الذهنية اللاتينية . وحتي انطلقت الحركات التبشيرية ، فهي انطلقت بروح الريادة الجغرافية لفتح المجال للنفوذ الاستعماري . واذا سلمنا بمقولة كهذه ، يجب أن يغيّر الناس أنظمتهم ومعتقاداتهم لقبول السيرة ، مغترّين بأن التطوّر الاجتماعي لا يقوم الا بتطوّر العقل ومهما كان التفسير للتغيير الجماعي فان منطق الحال يظل دلالة على قصور ذاتي . وهكذا تبدو امكانات التبشير نموذجا للقوّة الذاتية التي تحاول استيعاب غير المسيحي كالمغربي المسلم . وعند تقرير هذه الملاحظات «لم يكن الغرض منها اظهار الجانب الاسلامي بمظهر المتفوق على كلّ الأديان»[54] واذا اتسمت العقيدة الاسلامية بالتسامح ازاء أهل الكتاب — وهو شأنها أمام كل عقيدة ورأي ، فهذا لا يعني ترك المجال لسيطرة المسيحية على المسلمين . مع أن مهمة العلماء قديما وحديثا مستمدّة من طبيعة واحدة واذا كان ذلك ينطبق على

---

(51) — Mgr. Amissah, «**Religion Catholique et Cultures Indigènes**» in **Colloque sur les religions**, Abidjan 1961, p. 199

(52) — Le Pasteur Bahoken, Constribution des Religions à l'Expression Culturelle et la Personnalité Africaine,» p. 155. **in, colloque...op.cit.,**

(53) — J. Kerkhofs, dialogue d'aujourd'hui, Mission de demain. pp. 307-311 «Mission développemen» par L.J. Alebret. Edtion du Cerf 1968

(54) د. محسن العابد ، دراسات ... المرجع نفسه ، ص 33 .

المسيحية التي أدّى الاختلاف فيها الى التنازع في أصول الاعتقاد ، فانه لا ينطبق على الاسلام ، مهما تأخر المسلمون «لقبول الاضافات التي ادخلها المندسّون والمشبعوذون»[55] ، وكان الزحف الغربي يكتسح العالم ويدهشه بقواه المادية وقدراته الصناعية وبهرجته اللفظية ، فأصبح المغربي في حيرة من أمره لا يدري أيشتغل بالدفاع على نفسه وحماية دينه أم يواكب قانون التغيرّ الاجتماعي ، وقد وجد في الارساليات الدينية خير مهيء للتطور . وازاء هذه الحيرة بقيت الطبقة المثقفة مضطربة[56] . واذا كان العلماء يرون على مرآى ومسمع من الجميع دعاة التبشير بالمسيحية في وسط المغرب ومدارسه الدينية الأجنبية التي لم تؤسس الا «لجمع اليتامى واللقطاء لينشؤوهم تنشئة مسيحية»[57] فان حمية الاسلام ومقاومة الطغاة تتحتّم . وكانت هذه الصراعات وما تزال حيّة في ذهنية الغربي «وكان الغرب لكي يسوغ استعماره ويعطيه معنى قد اعتمد على نظرية ذات حدّين : فقد أقنع شعوبه بأنها حاملة رسالة الحضارة والتقدّم في التاريخ الانساني ، والحدّ الثاني لهذه النظرية هي الدراسات التاريخية والحضارية عن التخلف العربي وعن تواكل المسلمين»[58] كما أن مسألة الأقليات المسيحية بين مسلمي المغرب وما تشكله من تمايز عنصري اتخذ كذريعة لاثبات التواجد الغربي في المغرب الاسلامي . وفي ذلك نظرة الى مجتمع المغرب من خلال مفهوم غربي وهو ما يشرح معنى الاتفاقيات على مستوى دول الاستعمار وعلى مستوى المنطقة . وهذا كله لن يكون الا بجهد ثقافي (المستشرقون) وعمل عقائدي (المبشرون) . ورسمت لذلك صورة الشخصية المغربية في صورة الاحتقار . وفي كل الحالات ظل الفرنسيون يسمّون المغرب الأقصى تسمية تجزيئية «وكان الغربيون يتخوفون من قيام وحدة اسلامية ، لأن القوّة الكامنة في الاسلام هي التهديد الصحيح للاستعمار»[59] . ولما كان الاستعمار زائلا ، يظل التبشير الذي كان يستخدمه الاستعمار يحافظ على رواسب الاستعمار ، وبالفعل زال الاستعمار وبقي التبشير ، وهنا تكمن أهمية التبشير ازاء الاستعمار ، فالتبشير اذن سبق الاستعمار وظلّ أمينا على مخلفاته في مدلولات جديدة . ومهما تغيرت صورة التبشير ، فانه يلتزم العطاء الاستعماري وطبيعته . ولذلك حرص المبشرون على نشر الكتب الدينية كالأناجيل الأربعة ، ويتولّى كتابتها أناس محلّيون قد يكون لهم ولاء للاستعمار .

(55) علال الفاسي ، محاضرة «مهمة علماء الاسلام» القيت بالرباط في 12 ماي 1959 ، ص 14 .

(56) عن علال الفاسي ، المرجع نفسه .

(57) علال الفاسي ، محاضرة ثانية عن «مهمة علماء الاسلام» القيت بالرباط سنة 1973 .

(58) محي الدين صبحي ، «ملامح الشخصية العربية في التيار الفكري المعادي للامة العربية» ص . ن (المقدمة) الدار العربية للكتاب ، بدون تاريخ .

(59) د. مصطفى الخالد ود. عمر فرّوخ :الاستعمار والتبشير المصدر نفسه ، ص 236 .

## 3 ــ الاستعداد الذهني والثقافي :

ليس ثمة هناك مشكلة غربية بالمفهوم المطلق . فالمغربي من بين الشعوب النادرة التي لم تركز حياتها اليومية على تقليد الغرب[1] . وفي هذا حذف لمقياس التطوّر مع روح العصر بمنظور الغرب . وهنا وجد الغرب المسيحي نقطة الارتكاز التي يدور حولها تفكير الغزو العقائدي أولا ثم الاستعمار بأشكاله . ولقد اجتاحت حمية التعصب الديني ، وظنّ المبشرون أن المسيحية دين سينتشر بين العديد من الشعوب . فبدأت حركة التبشير ومن ورائها الاستعمار لحمايتها ، وما لهما عرف المبشرون أنّ عملهم متبوع بأعداد كبيرة من المؤرخين والمستشرقين والاستعماريين[2] ، فكان الشعور بالتضامن الثقافي والسياسي والعقائدي . في وقت لم يطرأ فيه أي تغيير في سيرة الحياة المغربية ونهجها . فأخذ المسيحيون ينظمون شؤونهم الدينية بعد أن تخلصوا من المضايقات الداخلية . ثم كانت مبالغات الغرب الحضارية تريد أن تتوسع وتؤكد وجودها على حساب الشعوب وهكذا أفسح المجال للدخول التبشيري في ثوب جديد . واذا تجاوز التبشير منطقة المغرب الأقصى بصورة تجزيئية فلأن التبشير أخذ بالاعتبار الثقل السياسي . ويستدل على ذلك بوحدة التفكير ووحدة التعبير ، فضلا عن التشابه في العادات الاجتماعية وأساليب الحياة بحيث يصعب الفصل بين التبشير والاستعمار في آثار كل منهما . وهذا ما يستوجب دراسة التأثيرات الغربية في المغرب الأقصى الذي تعرّض طوال خمسين عاما الى غزو غربي ــ مسيحي متزايد باستمرار . وظل موقف الغرب حيال المغرب الأقصى يقوم أساسا على النّفع بحجة ضعف الطاقة البشرية المغربية في استيعاب اقتصادياتها . وبذلك أعطى الغرب لنفسه حقّ الوصاية على شؤون المغرب وبالتالي فان له الحقّ في التدخل كلما سارت الأمور في غير المسار الذي رسمه لها .

ولا شك أن الأمر ليس بحثا عن معادلات أو تأثيرات تاريخية ، وإنما هو أمر ادراك لكل من الثقافتين على صعيد السلوك خاصة . وربما بدأ التأثير عن ثقافة غربية جرّدت من المسيحية ومع ذلك تجيء على قياسها كيفما عرضت وكيفما تعرض باسم حضارة الغرب المسيحي . وعلى هذا الأساس يمكن ادراك التفاوت الحضاري الذي ينطبق على الأفراد كما ينطبق على الجماعات وفي ذلك تعليل لظاهرة السلوك المغربي خاصة والعربي عامة التي تعكس الصراع الحضاري . وانه ليس من الغريب في غياب الوعي أن تظل الممارسات غير متكافئة . ذلك أن المغربي لم يكن يحاط بالضمانات التي تكفل له المشاركة الفعلية في خلق المناخ الفكري على مستوى النظرية وعلى مستوى الممارسة العلمية . فلما بدأ يظهر الخطر الاستعماري لم يجد الانسان المغربي صيغة تمكّنه من التصدّي لهذا الخطر ، ولم يبق الّا الدين كرابطة بين الأفراد والجماعات ، ولعلّ مردّ ذلك الى أن الفكر الوطني بالمغرب لم يتبلور بعد فطغت على اهتماماته

---

(1) لم يقع احتكاك المغرب بالدول الأروبية حتى بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

(2) Mgr. Pons, *La Nouvelle Eglise... op.cit., p. 329.* — .

أحداث لم يكن يدرك مردوداتها ، فكانت عملية واسعة النطاق ، استهدفت بشرية شمال افريقيا . وكان التغريب دلالة على التحول الحضاري . وقد كان لهذا التحول تأثير كبير في الحياة اليومية المغربية كغيرها من المناطق التي خضعت لسلطان الاستعمار . وما يقال في الدعوة التبشيرية في المغرب الأقصى يصح في ظاهرة تفريغ المغاربة المسلمين من دينهم وعاداتهم ، وتلاعبت التيارات الفكرية الغازية بسكان المغرب وجزأتهم الى جهويات صغيرة وفي هذا يقول وليم جيفورد بلجراف : «متى توارى القرآن ... عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرّج في سبيل الحضارة النصرانية»(3) . وهكذا عمد الفكر الغربي الغازي الى تمزيق المسلمين ، وكثيرا ما كان رواد التجديد والاصلاح إمّا مستعمر وإمّا مبشّر وامّا مستشرق وفي أحسن الحالات تلميذ مخلص لهذا أو لذلك . وهو تأكيد لظاهرة ذات ثلاث مراحل : تتمثل الأولى بوضع الانسان المغربي يسكت تجاه الوضع السائد سكوتا حتى الجمود . وتكون المرحلة الثانية تشمل الشعور بالعجز والقلق . ثم تجيء المرحلة الثالثة تحمل مجموعة من الاختيارات : التمرّد الفردي ، أو الثورة أو اللامبالاة ، أو الرضا(4) . وهكذا يكون المغرب الأقصى تعرّض لتجربتين ، في الأولى سخّر الغرب فيها كلّ دهائه واستعمل كل وسائله من رواد ومبشرين في سبيل التجزئة العقائدية خاصة ومحو الشخصية المغربية بتقويض معالمه الحضارية(5) . وفي التجربة الثانية بدأ المغرب للغربيين الثمرة التي نضجت وحان قطافها ، فساوم الغربيون بعضهم بعضا ليتمّ الاحتلال المباشر . بعدما تعاقبت ألوان من الاحتلال الأجنبي في زيّه المدني . فقد واجه المغرب تحديات خارجية متنوعة كالاستيطان السكاني وتبع ذلك معاهدات ثنائية وتحالفات متعدّدة ، واذا كانت الظروف غير مواتية لأي شكل مباشر ، كانت هناك محاولات غير مباشرة مثل نظام الامتيازات والارساليات التبشيرية واقامة علاقات موالية أو صديقة ، وبذلك تصبح شخصية وذاتية المغرب في خطر ويتوقف نموّه الفكري الأصيل . وفي هذا العمل يتميّز الجانب التبشيري الذي هو حصيلة الفكر الأروبي . لأنه يؤيّد السياسة الغربية ويتفاعل معها وينفذها وفي هذا الاطار والولاء المطلق يتحرّك المبشرون دون مخاوف أو هواجس . وحركة التبشير تتجاوز أي تقدير زمني اذ تبدو أحداثها تتفاعل فيها بينها يوميا . ويقود التأمل الى الاعتقاد بأن غاية التبشير كانت سياسية في أساسها تهدف الى زيادة نفوذ الباب فضلا عن تحقيق الهدف الديني ما يجعل مسيحي أروبا يؤيدون العمل التبشيري لا في المغرب الأقصى فقط بل وفي جميع المناطق التي تخرج عقيدتها عن المسيحية . وفي هذه الحالة يختلط الدافع الديني بالدافع السياسي ، وفي ظروف بدأ فيها الغرب يكشف

---

(3) صالح آدم بيلو ، التغريب اللغوي بالنزعات الشعوبية ، المنشور بمجلة « منار الاسلام » العدد السابع من السنة الخامسة ، ماي 19180 ، ص 106–112 .

(4) د. حليم بركات ، اغتراب المثقف العربي ، مجلة «المستقبل العربي» عدد 2 1987 ، ص 106 .

(5) علال الهاشمي الخياري «الاسلام وايديولوجيات الفكر المعاصر» ،ص 226 الدار التونسية للنشر ، تونس 1981 .

عن نواياه الاستعمارية . وأدرك الغرب أن التلقين هو الاطار العام والاسلوب الأساسي للاستعمار ، وقد يكون الغرب الاستعماري أولى هذا العمل الى المبشرين فمنذ ظهور التبشير بالمغرب الأقصى وخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأ استهلاك منتوجات الغرب بما فيها النتائج ذات الصبغة الدينية . وفي هذا الاطار الذي يدور فيه رسم حصيلة التفاعل الحضاري بين المغرب الاسلامي وأوروبا المسيحية(6) . ولما تزايد نشاط المبشرين والفرنسيسكان منهم خاصة ارتاب سكان المغرب فبدأ عندئذ أن المجتمع المغربي الاسلامي يرفض العطاء الأوربي المسيحي ، في ظروف نشأة الاديولوجيات وتفاعلاتها ، والغرب يعمل على استلاب الخصائص الذاتية للمغرب وتقديم «التأورب» كبديل ، حتى اذا انقطعت صلة السيطرة المباشرة ، تبقى الروابط الفكرية والعقائدية . ولكن غالبا ما تكون المفاهيم العقائدية تمثل العنصر الأساسي في دعم وتوجيه السلوك في اتجاه ايجابي وصياغة منطقية . وحركات التبشير بالمغرب ظلت انعكاسا للنهم الاستعماري «حتى احتجب جانب كبير من سيادة المغرب أمام سيادة القانون الأجنبي منذ وجد نظام الامتيازات . وكان الفرنسيون يعارضون صيغة «وضعية الأجانب» لما توحيه من تعميم ، وأرادوا صياغة ثانية «الوضعية المدنية للفرنسيين والأجانب في مرّاكش» وتمّ لهم ذلك ، فالفرنسيون ليسوا أجانب في المغرب ولكنهم مع ذلك احتفظوا بجنسيتهم الفرنسية ، وهو أسلوب غريب للاستعمار الذي يعمل على تجنيس الوطن قبل تجنيس الأهالي . وقد اتبع الاسبانيون في منطقة حمايتهم المغربية نفس الأمر»(7) .

والمسيحية في جوهرها «دعوة الى المثل الأخلاقية وأسلوب نموذجي في الاشادة بالتسامح»(8) ولكن حدث أن تحوّل الأوربي الى الاعتقاد في المادة التي تكيف الإنسان ، وتطوّره . وبذلك وقع تغليف الفكر الديني المسيحي . ولانت الرّابطة بين الاستعمار والتبشير فتعاونا على غزو الشعوب وبارجاع ظاهرة التبشير إلى أصلها في الدّين المسيحي ، تظلّ ظاهرة عامة في وضعها الأساسي كما هو الشأن في الأديان الكبرى مهما اختلفت أسماؤها .

وبسيطرة الغرب في مختلف أشكال السيطرة بتعلة ذاتية هي الاكتشاف لأسرار الأمم ، فقدت المعاني الروحية في نظر الأوربي ، وسيطرة الاستعلاء « ان الحاجة تبرّر كل عمل عدائي»(9) فكانت الحملة التي قادها المستشرقون والمبشرون منذ احتلال الجزائر سنة 1830 م . مع الاعتقاد بأن الاسلام اذا احتكّ بالتمدّن الغربي فانه يتقلّص ويموت . وهذه الاتجاهات

---

(6) استعمال لفظة «اروبا المسيحية» من باب التأكيد على أن الحضارة ليست مسيحية فقط بل ساهم فيها ممن لا ينتسبون للدين المسيحي كاللائكيين .

(7) علال الفاسي ، دفاع ... المرجع نفسه ، ص 176 — 179 .

وكانت برزت يقظة العالم الاسلامي بمظهر ثقافي وفكري ، ثم ظهرت الحركة السلفية التي تزعمها جمال الدين الأفغاني (1929 — 1897 م) لمقاومة الغزو الأوربي . وتحولت هذه الحركة الدينية الى حركات تحررية .

(8) غلال الهاشمي الخياري ، الاسلام ... المرجع نفسه ، ص 11.9 .

(9) محمد الغزالي ، التعصب والتسامح ... المرجع نفسه ص 112 .

هي في حقيقتها مظاهر صراع يهدف الى احداث التمزيق في تاريخ العلاقة بين المسيحية والاسلام . فقضية معايشة المسيحيين لمسلمي المغرب والتماس الحقوق القانونية لتمييز عنصر داخل على آخر ثابت أصالة هي دلالات اتجاه التحدّي : وكانت مسألة سلوك بدافع استعماري أوّلا ثم عقائدي ثانيا . ولكن القوّة العقائدية المغربية أبت التعامل مع الأجانب المسيحيين على حساب الاسلام . وأدركت الجاليات المسيحية ان المغاربة المسلمين لا يقفون بدينهم عند حدّ العبادة كما هو الشأن في العالم المسيحي ، بل يعتمد ، الدّين في توجيه السلوك وتربية الضمير علاوة على المعاملات اليوميّة والأحوال الشخصية والقضاء . ويعني هذا رفض الاستغلال(10) مهما تكن الظروف . وأدرك الغربيون هذه الحقيقة فابتدأوا بتجزئة بلاد المغرب وأقاموا الحدود بين البلد والبلد ، وأوجدوا عملاءهم ، ثمّ كوّنوا فئات تتعارض مصالحها مع الاقطاعيين ومع الخلف وقع تشجيع الأجانب للاقطاعيين «فالتنظيم الدستوري لمغرب ما قبل الحماية كان يقوم في معظمة على أسس الشريعة الاسلامية ، ومع تواجد الأجانب اضطرّ السلطان عبد العزيز على اعتبار التمدّن الأروبي في التقاليد المغربية»(11) . وهذه العلل كلها تدلّ على عمق سيطرة النفوذ الأجنبي . بينما مميزات المغرب وخصائصه تتجلّى في وحدة التراث المغربي ، واستقلال المغرب ، والطابع الديني له ، ونظام الحكم ... ولقد صاحبت هذه المرحلة حالة تبعث على القلق ، فالثورات الداخلية تسيطر على السكان والجهل منتشر والثغور الحربية خلت من وسائل الدفاع «والجيوش في فوضى وتفكك ، وبيوت الأموال تعاني من الافلاس ، ودخل الموانىء بيد الأجانب ، والديون في تزايد»(12) وهذا ما تأمله الدول الغربية الرّاغبة في احتلال المغرب ، ذلك أنه في حالة عجز تفرض تلك الدّول امتيازاتها وشروطها ، خصوصا أن المغرب الأقصى أصيب بنكبتين متلاحقتين هما نكبة أسلي ونكبة تطوان(13) . والنتيجة أن اضطرت الحكومة المغربية الى الاستدانة من انقلترا ذات المصالح الاقتصادية والتبشيرية في المغرب . واغتنمت اسبانيا فرصة جلائها عن تطوان لتؤكد حماية رعاياها بمقتضى معاهدة 1861 م .

ونتيجة الوضع المتأزم تقلّصت مكانة المغرب على الصعيدين الداخلي والخارجي : أمليت عليه المعاهدات وأرغم على توقيعها وتصاعد الحضور الأجنبي ، وتبلبلت الأفكار وتعثّر الاقتصاد «ما جعل الفرنسيين يقبلون شراء المغرب مقابل اسقاط الديون»(14) . ولم يكن

(10) يقصد بالاستغلال هنا في معناه العقائدي فق .

(11) عبد الرحيم بن سلامة ، المغرب قبل الاستقلال عرض لا هم الأحداث السياسية قبل الحمايةي وأثناءها ، ص 46 .

(12) المرجع نفسه ، ص 58 — 59.

(13) موقعة أسلي كانت نتيجة لمساندة الأمير عبد القادر الجزائري وانتصر الفرنسيون لتطور معدّات جيوشهم ، وأصبح المغرب ضعيفا ، وبدأت الأخطار تهدده .
وموقعة تطوان جاءت تعبيرا عن رغبة اسبانيا في المغرب الشمالي ، وكانت نتيجة مباشرة لتوسيع الاحتلال الاسباني بداية من سبتة . وانتهى التصادم بهزيمة الجيش المغربي ، والتزم المغرب بدفع 20 مليون ريالا كتعويض لخسائر إسبانيا أثناء المعركة . عن عبد الرحيم بن سلامة ، المرجع نفسه .

(14) عبد الرحيم بن سلامة ، **المغرب ... المرجع نفسه** ، ص 64 .

موقف جماعات التبشير المسيحي بأقلّ رغبة في بسط نفوذ الغرب على المغرب ، على الرغم من أنّ العقيدة أوسع من القوميات وسائر الاتجاهات . فلمّا بينت التجربة أن المغرب لا يقوى على رفض الحضور التبشيري وغيره ، مارس المبشرون عملهم باختلاف فرقهم ومذاهبهم . وكان العامل المشترك بين جماعات التبشير هو نشر التمدّن الغربي . وهو ولاء صريح للمغرب . وتظاهرت الدول الغربية بعدم اهتمامها بالجانب العقائدي ولكن حماية المبشرين كجالية أروبية هي من أوكد الواجبات . فالوطنية التي تجمع بين المبشّر المسيحي والأروبي العادي تأخذ الصدارة . وهكذا تلتقي من جديد المصالح التبشيرية بمصلحة أي أروبي آخر . وبتفاعل تلك المصالح يقع التعاون الذي هو الرابطة المثلى للنزعة الاستعمارية الغربية .

وازاء هذا الوضع وجد المغرب الأقصى نفسه أمام قوى حضارية غربية في حين يفتقد ذاتيته وأصبح الصراع بين نمطين من الانسانية ، نمط غربي مسيحي ونمط مغربي اسلامي ، ولكن ردّ الفعل الداخلي كان واهنا بينما جاء الهجوم الغربي على المغرب هجوما عنيفا في كلّ مجالاته . وفي كلتا الحالتين وقعت عملية الرّبط بين هذا وذاك في اتجاه واحد يتكامل مع روابط السيطرة الحضارية بكامل معانيها وتأكيداتها . ولئن كانت الغلبة لأروبا فانها قد أسهمت في ايقاظ الأنا المغربية ، عندما تعرّضت العلاقات المغربية الأروبية الى أشدّ عداوة مثلتها فرنسا بانتصاب حمايتها للمغرب وما لفرنسا من امتدادات في الفكر الاستعماري كما لألمانيا وايطاليا وانقلترا واسبانيا .

وبقدر ما كان الغزو الثقافي من الغرب لبلاد المغرب يحمل حضارة تناقض حضارة الاسلام، كان الأثر كبيرا ممّا أدى الى اختناق ثقافة المغرب لحساب ثقافة الغرب، والى تحكيم الحضارة الغربية . لأنّ كيان المغرب قام في نهاية القرن التاسع عشر على أفكار مضطربة دخيلة على الاسلام . ووجدت أروبا أن خير طريق لاتمام سيطرة فرنسا على الشمال الافريقي هي سلوك الغزو الثقافي عن طريق التبشير لكسب نصارى المغرب الى جانبهم . ونفّذ هذا الاتجاه «بجعل مالطة مركزا كبيرا للتبشير وقاعدة هجوم اذ منها كانت ترسل قوافل التبشير للعناية بالثقافة الدينية»(15) وفي المغرب الأقصى لم يكتف المبشرون في حركة التعليم وانشاء المدارس ودور التبشير والمطابع والمستوصفات بل تعدّوا الى تأسيس الجمعيات التي تستهدف قبول غير النصارى بين أعضائها والاعتماد على مساهمتهم في العمل داخل البلاد لنشر الحضارة والتمدّن . ولكن هذا المنطق لا يلبث أن تظهر نتائجه على المستوى الذهني والثقافي . وذلك بأن تكون للمغرب لغتان أو أكثر أي ثقافتان أو أكثر . وبأعمق معنى توجيه المغربي «حضاريا» لخدمة أغراض التبشير والاستعمار. فحين بدأ التغلغل الأروبي في المغرب ، وألحق المغرب ضمن أسواقه اضطرّ بعض المغاربة الى قبول «قشرة» التحضر الجديدة ، وسار البعض تلقائيا في اتجاه الغرب . وهذه الظاهرة من أولويّات التبعية .

---

(15) سميح عاطف الزين ، عوامل ضعف ... المرجع نفسه ، ص 32 .

وبتأثير هذا الفصل الحضاري الجزئي تختفي الذاتية المغربية قليلا وتتابع صيغ النفوذ الممكنة التي تكوّن في مجموعها قضايا كبرى ، حيث تأخذ افرازات الغرب معناها الكامل . والانفصال مهما كانت مقاييسه يأتي عادة كنتيجة لصراع بين مجتمع ما وسلطة غازية . غير أن وجه الانفصال بالمغرب أنه بني على قاعدة تاريخ الحركات الاستعمارية المسبوقة بالمبشرين والرواد . وليس أمرا بدون معنى أن تعود بعثة الطلبة في عهد مولاي الحسن الأول (1873 ـ 1894) بعد أن درست في أروبا دون أن تمتلك معرفة أروبا الثورية، وفي الوقت الذي كانت فيه الرأسمالية في مرحلة الانتقال الى النظام الاحتكاري وتتهيّأ للصراع على المستعمرات . فقد عاد الطلبة بأفكار القرن السابع عشر والثامن عشر لاعادتها لمجتمعهم المتجزّأ ، فظلّوا غرباء عن أمّتهم[16] . وقد يكون هذا تعبيرا لعلاقة التبعية للغرب وأن لم تكتمل بعد وبحجّة الدعوة للتمدّن تمكّن المبشرون من خدمة أوطانهم خدمة نافعة ، فأوجب الغرب تسهيل الأمور للأجانب وتشجيعهم على الاستيطان في المغرب . وفي هذا السياق يمكن وضع الشكل الاستعماري العقائدي الذي كان تعبيرا صادقا لسياسة الغرب. وأطرف ما فيه أنّه غير وظيفة الدّين الاسلامي لدى ضعفاء الايمان ودلالة ذلك الصراع بين البداوة والتحضر والصّراع بين الفلاح والمالك ، ما أدّى الى تحديد نشاط بعثة التبشير بجنوب المغرب من طرف المخزن وتبع ذلك احتجاج مغربي رسمي ازاء انقلترا وأخيرا أمر مولاي الحسن بايقاف عمل التبشير بالجنوب سنة 1891 م .

ورؤية وضع التبشير بالمغرب الأقصى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لم تعكسها المواقف الرسمية انعكاسا كاشفا بل أنّ التيّار التقليدي الذي أبدى مقاومة آلية معبّرا بذلك عن الرفض والاستعصاء عن تحطيم الشخصية المغربية وتمييز الأجنبي . ولذلك تلتقي الاتجاهات التقليدية مع جملة أسس المجتمع المغربي التي عبّر عنها أبو الحسن الفاسي الفهري أمام المولى الحسن الأول في ابتداء سلطانه بـ «ايقاظ السكارى المحتمين بالنصارى» وكذلك «الويل والثبور لمن احتمى بالصبور»[17] .

وفي الوقت الذي يلجأ فيه المغربي التقليدي الى الحفاظ على أصالته وتراثه يتظاهر المتأورب بالانتماء الى الغرب وطغيانه وفي كل ذلك معايير وقيم الصراع المطروع . ودلالة ذلك تحمّس

---

(16) تساءل محمد المنوني (مظاهر يقظة المغرب ... ص 303) عن الاسباب التي أدت إلى فشل المحاولات الاصلاحية وفي طليعتها حركة البعثات التي اتجهت للدراسة في أوبا وكان من المتوقّع أن تقوم هذه الارساليات بعد عودتها للمغرب بنشاط ويتحمّلون المسؤوليات .
وأعتقد أن هذا النوع من السياسة الثقافية هو ذاته نوع سياسة الاستعمار لارساء نفوذه وتجنب خطر المثقفين ، غير أن هذا الاتجاه الذي كانت تمارسه أروبا الاستعمارية بطابع تاريخي خاصّ رفض لمّا شبّ الوعي بين المستعمرين فصارت الثقافة تتجاوز الحدود الجغرافية وقسط مشترك لمختلف النماذج البشرية .

(17) انظر محمد المنوني **مظاهر يقظة** ... **المرجع نفسه** ص ، 255 — 263 .

بعض المغاربة الذين هم من أصل سوري كعائلات عيسى فرح ، ولطيف ، وسليمان ، وأزرد ، للتأورب بأصنافه ما جعلهم يعملون في ادارات أجنبية. وتصاعد النشاط التبشيري في العشرية الأخيرة من القرن التاسع عشر عبر منابر ذات صلات وثيقة بمنظمات ثقافية تبشيرية غربية ولها اتجاه واحد وهو مهاجمة الثقافة العقائدية الاسلامية حتّى في أبسط الحاجيات . وقد يكون هذا مصدر انتعاش الحركات التبشيرية اذا أصبح التحاق المثقفين أمرا طبيعيا بهذا النشاط[18] إلا أن هذا الجانب لم يأخذ مظهرا عاما ، لأن فئاته لا تمارس غير التلقين والتفكير لصالح اتجاه التغريب . والهدف لا يتجاوز حدود جعل المغربي يكتشف عطاءا ضئيلا من حضارة أوربا المسيحية وتشويها مفتعلا للمسلم عامة ، فيكون اختناق العقيدة وتسميم الثقافة . وليس من شكّ أن التفسير الأقرب الى الذهن في ذلك كلّه هو محاولة اجهاض امكانيات الحضارة الاسلامية عن طريق مؤسسات تتمظهر بالعمل الاحساني وتمارس سيطرتها بأساليب ملتوية ومتاهات جذّابة . وكأن أعلى ما توصلت اليه المؤسسات التبشيرية عمليا هو تنصير ثلاثة مغاربة مسلمين[19] وهنا تبرز أهمية العقيدة الإسلامية في ثبوتها لدى معتنقيها . وفي هذا الوسط الذي تبرز فيه العقيدة الاسلامية كأقوى رابطة للمغاربة تمحور الفعل التبشيري أكثر تعقيدا متشاركا على استجلاء المساكين والمحتاجين من المغاربة ، وهيأت المؤسسات الاحسانية وأنشأت المدارس للاناث كما للذكور . وكان على الرسالة التبشيرية أن تشخّص هذا النشاط في تغيير ظروف الانسان المغربي وتوعيته بتبصيره الى خطر الاستعمار ، كأن يصبح للمغرب القدرة تأصل ذاته بفعل الانفتاح الثقافي . ولكن بحكم ارتباط المبشرين بقوى الاستعمار الغربي . عمل هؤلاء في اتجاه معاكس بحسب التعامل اليومي والتأثير المادي ، فلم تنم الذهنية المحلية لتأخذ طريقها بين مختلف انماط السلوك وتنشيط الاستعداد الذهني والثقافي . ذلك أنّ التحوّل الاجتماعي يسبقه ظهور المفكّر أو يقترن به على الأقل . غير أن بعد الارهاصات شكّل الاجهاض المستمر .

يبقى أن المؤسسات التبشيرية لم تصل الى نتائج ممكنة ولم تستطع — في نصف قرن — أن تولّد أبعادا اجتماعية ذات قدرة على توجيه التاريخ المغربي ، فهذا يعود الى أخذ الكنيسة على عاتقها مسؤولية ذلك»... الكنيسة لم تعد — في رسالتها — تؤيّد الضحايا والمعوزين وكل مهان... فهي أداة لمقاومة الشر... وفاعليتها لا ترتبط بالرفض الذي يعترض سبيلها ولكن بمركز ثقلها الداخلي الذي لم تبحث أن تحرّر منه[20] وكان هذا الموقف أمرا محتوما ضمن ظروف وملابسات لم تجد تفسيرها منذ عصر النهضة الأروبية . وبالمقابل فان

(18) حول هده الظاهرة ، يقول محمد محمد الله : «يعاب على المسيحيين منهجية أسلوبهم في التبشير حيث يستغل المتحمّسون منهم الوضع المادي المتخلف والمستوى الثقافي الراكد» .
ويعقب محمد كامل حسين فيقول : «.. ارتبط التبشير بالاستعمار ومثّل طلائعه ، فكان المشرون — في ذهنية المسلم — حزاء من الاستعمار بالاضافة الى اغتيابهم للعقيدة الاسلامية . وبفصل ذلك ، يستحق المبشّر كل تقدير» .
Cf. Le Chrétien en Dialogue ... op.cit., pp. 77-78.

(19) انظر جدول كشف النشاط التبشيري البروتستانتي لهذا البحث .

(20) — Joseph Thomas (S.J) Croire en Jésus Christ p. 137 Edition Ouvrières, Paris 1961.

ذلك الذي يحدّد حجم علاقة التبشير بالاستعمار . اذ كانت الغلبة الكبرى لمفكري الغرب ، رغم الاعتراضات التي أثارتها الكنيسة . ومهما يكن من أمر التقدم الحضاري الأروبي الذي أصبح يقود العالم في القرن التاسع عشر ، فانه لا يمكن انتقال التمدّن بوسائل السيطرة وسلب الشعوب من تراثها الثقافي ــ العقائدي خاصة . وفيما عدا الخدمات المذكورة وذات الاتجاه الاستعماري ، فانه لا يؤمل شيء آخر يذكر من المبشرين لصالح المغرب الأقصى . وبمراجعة وجوه التغريب الثقافي خاصة وأهمية النتائج التي يمكن استخراجها في مجال القضايا المتعلقة بالتأثيرات ــ والتي هي غالبا ما تكون وهمية ــ تبرز حقيقة تاريخية وهي استشهاد بعض الجوانب الحضارية الاسلامية ، وهو ما يتيح بكل تأكيد لوضع حدّ للافكار المسيحية واعطائها مكان الصدارة ضمن مقياس العطاء الفكري الغربي ، اذ أنه لم يمهّد بدراسات تاريخية حتى تقعْ عملية المساهمة . ومع ابعاد مشكلة التعالي التي سيطرت على الفكر الغربي الحديث فانه لا يمكن انكار ابداعية مفكّري الغرب . وقد تتعارض هذه الفكرة مع ذوي الثقافة الموجهة غربية كان أم شرقية ، بحجة طبيعة التضامن الثقافي . ولكن الجرأة على تأكيد مكانتها العليا تجد تفسيرها في الوعي التقليدي وديمومة نشاطه . لأن الافراط في معاداة كل ما هو تقليدي مألوف يجرّ حتما الى الانطلاق من جذور جديدة تطرح نفسها الى ايجاد نمط سلوكي يواكب ما توصّل اليه الغرب حتى امتدّت اسهاماته ــ في صيغها المعروفة ــ الى العديد من البلدان التي اصبحت محطّات لمؤازرة الغزو الفكري . وهو ما يؤدي الى الاعتقاد بـأن «كل ما هو غربي يتفاعل مع التطوّر وكل ما هو تقليدي يجرّ الى الخلف»(21) .

ومن الجانب التاريخي ، التراث أقدم من التأورب ، وهو ما أصبح من المسلّمات المتفق عليها بين المؤرخين أنفسهم . ففي المغرب الحياة التقليدية تتصل بالذهنية العامة اتصالا أكثر وأعمق من مظاهر التجديد ان كان هنا تجديدا . ففي أيام الحسن الأول «استجلب السلطان مدرّبين عسكريين من انقلترا وفرنسا واسبانيا . وقد أشتهر من هؤلاء المدربين ماك لين الانقليزي (Mc. Lean) قائد الجيش النظامي ، وايركان الفرنسي (Erkman) قائد جيش المدفعية»(22) وهو لم يمنع من النشاط التبشيري حتّى أن احتجّ الوزير الانقليزي السيرايان سميث (Sir Euan Smith) على قرار ايقاف نشاط التبشير البروتستانتي ذي الولاء الانقليزي : «يجب الاعتراف بصلوحية المعاهدات لفائدة المواطنين البريطانيين»(23) . والتأورب في مثل هذه الحالة لا يعقل أن يؤخذ به كقيمة وحكم ومقاييس ، لأنه كان تطعيما لرواد

(21) في هذا الاتجاه صوّريا رجلابير جهود الأب شارل دوفوكو.
— Cf. Pierre Jalabert, *Histoire... op. cit.* p. 208

(22) محمد المنوني ، **مظاهر يقظة** ... المرجع نفسه، ص 60-61.

(23) عن مجلة : North Africa n° 10, 1889 p. 284 —.

السيطرة ، وعندئذ تنتقل ظاهرة التغريب الى عامل تخريبي كلّما أريد معالجة قضايا الأصالة . ولهذا السبب فان قضية التراث والتحديث ظلت تشكّل أهمّ المسائل الحادة على مستوى الوعي في المغرب الأقصى . وفي كل ذلك لا يمكن ترك المجال لأن يستحوذ الماضي على نزعة الاصلاح . فمن الواضح أنّه ثمة علاقة جدليّة بين التغريب والأصالة تكشفها عمليّة التفاعلات الحضارية لتكتسب مغزى أكثر عمقا وأبعد تأثيرا . وفي هذه الصيغة المتبادلة تكمن قيم المجتمعات كاحدى وسائل التعرف على الذات . وفي الجملة فان المغاربة احتفظوا بجزء كبير من مقوماتهم الاسلامية ،.وبمنظور مختلف الجوانب ، وهو تعبير عن الانتماء الفكري والمرحلة الزمنية التي تقاطعت فيها مشاكل المعاصرة في قوالبها الغربية ، والشخصية التاريخية في مفهومها التقليدي . ومن هنا تضاف حقيقة أخرى تتحدّد بغياب سلوكيّ مغربي في منهاج الغرب المتمثل في نشاط المبشرين وسلوك الأجانب الأوروبيين ، حيث لازم المغاربة شبه قطيعة إزاء المبشرين والأجانب. ومن الطبيعي أن تعود هذه المواقف الى «الحمى الأوروبية في مجال التوسّعات الاستعمارية والحاق أكثر عدد من شعوب افريقيا بالمستعمرات ، والغطرسة الثقافية التي أبدتها أروبا ... وتتبع ذلك تعلة حماية البلاد من مظاهر الفوضى والاضطرابات أو منع تجارة العبيد وتمكين المبشرين من التغلغل»(24) .

والخلاف الظاهري بين قوى الاستعمار المتصارعة على احتلال المغرب الأقصى ، بدأ وكأنه عامل مساعد لسياسة المخزن رغم المصاعب الدّاخلية ، في تأخير الاحتلال . غير أنّ الصراع الأروبي لم يكن نيتجة لسياسة المغرب وانما هو نتيجة واقع آخر يتعلق برؤية أروبية في كيفية اقتسام افريقيا «فكانت حركة السياسة الأروبية ــ في اتجاه افريقيا ــ معدة للتبشير والريادة في مرحلة أولى ، وفي تكييف الدخول الاستعماري في مرحلة ثانية ، أي تنفيذ مقرّرات مؤتمر برلين (1884–1885 م) وما استفاض عنه من أوضاع جديدة تحكّمت في العقلية الأروبية . واذا كانت حركة التوسعات ظاهرة عالمية فانّ نصيب افريقيا من ذلك أعتبر متأخرا عن أوانه(25) ولذا كانت كل الأساليب حول احتلال المغرب ممكنة ، وأرجحها أسلوب التاريخ السياسي الذي يضع الواقع حسب معايير ظرفية وتنتهي كل التأويلات الى معنى التاريخ السياسي ، اذ لا مانع من اعتبار كلّ الأعمال ذات الاتّجاه الواحد معبرة في تصويرها للأحداث أو اعادتها الى طبيعتها .

ومع فارق الاستعداد الذهني والثقافي تنضمّ مرحلة العطاء حيث الاقرار بأنّ سعي المبشرين في النصف الثاني من القرن الماضي بني على غاية نفعية مستقبلية بالمغرب الأقصى . والعطاء في شكله الطبيعي هو رافد خارجي يكسبه المحيط أو البيئة لسدّ النقص الموجود أو

---

(24) — Paul bouhannan et Philip Curtin, *L'Afrique et les Africains*. pp. 407-408. Les éditions inter-nationales 1973.

(25) — R. Cornevin, *Histoire... op. cit.*, p. 505.

حتّى لطبع الحياة اليومية بنمط خاص ، ولعلّ أبسط فهم للعطاء هو راسب وبصمات حضارية في أكثرها وهي تمتدّ الى ما بعد الحدث ، ولقد حاول بوسكي (G.H. Bousquet) أن يجمع نماذج من عطاء «الحضارة الاوروبية ــ المسيحية في بيئات اسلامية بشمال افريقيا» وركّز بحثه على جوانب الرفض وقابلها بجوانب التفاعل والانصهار ، بالجزائر خاصة حيث تواصل الحضور الفرنسي ــ المسيحي مدّة أطول . فكان عمله جملة من الملاحظات تتعلق بتعارض عقائدي وأخرى تتصل بالحياة اليومية . ولعلّ من الأهمية في شيء استخراج ما يتعلق بالمغرب الأقصى من ترسّبات تعود الى ما قبل الحماية : «الأثر المسيحي على السلوك اليومي كبير ، ففي قرى لم يدخلها الأروبي توجد ألفاظ ترجع في أصلها الى فرنسا أو اسبانيا كأن تقول «ترمب» و«موفي تان» للدلالة على البلل ورداءة الطقس»[26] وفي ذلك مزج بين الرأي والنظر في شكل ملاحظة يمكن تجاوزها بالممارسة وهي خاصية لغوية لا تتصل من قريب أو من بعيد بالأثر المسيحي ، بينما الانعكاس نفسه يجيء في أفق تأكيد الاسلام على حقيقة العقيدة المسيحية وموقف الاسلام منها ورأيه في مريم العذراء وابنها عيسى ، وبوسكي نفسه اهتدى الى ملاحظة ذلك «... شاهدت تمثال مريم مقاما على قاعدة رخامية ، كتبت عليها آيات قرآنية لها علاقة بالعذراء ، في حين أحدث نشاط المبشّرين الفرنسيسكان جوّا من الامتعاض والنفور ، على خلاف ما أحدثه الآباء البيض في كل من الجزائر وتونس ...وحول التنصير ، فهناك ظروف سياسية ومناخات فكرية وحريّة المعتقد حتى أن بعض المسيحيين أعجبوا بالطرق الصوفية ... وما عدا ذلك ليس للتنصير أثر ، ولقد أحدث تنصير محمد عبد الجليل ــ في مرحلة لاحقة ــ ليصبح الكاهن (جان Jean ) تعجّبا واستياء ، لا في فاس موطنه فقط بل في المغرب الأقصى كله»[27] . وبعد هذا يذهب الباحث الى أنّ «علماء الدين يحرّمون مصادقة أهل الكتاب وكلّ اخلاص نحوهم يعدّ مروقا»[28] ومن الملاحظات العجيبة عند بوسكي «أنّه بالاضافة الى الكتابة على القبور بأحرف لاتينية ، ينقش الصليب ، ومن ذلك ظل المجتمع الاسلامي يعارض بشدّة الأثر الأروبي ــ المسيحي[29] . وتحدّد مفاهيم التفاعل الحضارية بين أروبا ــ المسيحية وشمال افريقيا ــ الاسلامي ، عند بوسكي من خلال التقييم بالملاحظة الأمر الذي يحتمل الخطإ كما يحتمل الصواب ، ما يحتّم التعاليل لكل صلة ضمن العوامل المؤثّرة والضاغطة حضاريا . وقد يكون ذلك ممكنا مع

(26) — G.H. Bousquet, *Milieux Musulmans d'Afrique du Nord et Civilisaton Européano-Chrétienne*. in Colloque sur la Sociologie Musulmane, 11-14 Septembre 1961. E.C.E. des Problèmes du Monde Musulman Contemporain. p. 365.

(27) — G.H. Bousquet, *Milieux... op. cit.*, pp. 367-369.

(28) — G.H. Bousquet, *Milieux Musulmans... op. cit.*, p. 374.

(29) — Ibid. p. 378.

اعتبار ملابسات الحضارة التي «تكمن في البيت والمدرسة والمجتمع ككلّ»[30] أضف الى ذلك نوعية الترابط السياسي وانعكاساته . وإن لم يكن ذلك فانّ تاريخ عطاء الحضارات بعضها لبعض يظل احتمالات ذهنية وملاحظات نقدية لا تسهم بعمل جليل في الدراسات لحضارية . ولا تعكس الّا التجاوزات التي تشكّل سلبية التاريخ الحديث .

وبمنظور كهذا تبقى الاستنتاجات الحضارية عناصر عامة . فالمفاوضات والمعاهدات بين المغرب ودول أروبا المسيحية لدلالة على مقدرة استخدام الصيغ والرؤيا في توفير المادة الحضارية وفي الاهتمام بمصالح على حساب أخرى . واذن فطابع التفاعلات الحضارية لا يتم في جميع الجوانب والقضايا . والسلوك والقيم الحضارية للمغرب ازاء المسيحيين لم تكن معاني مجرّدة وانما هي آثار تقاس بمستوى الاستعداد للتطوّر في جمع الغالبية العظمى التي تتكون من الفقراء والمساكين ممن اتجهت اليهم اهتمامات المبشرين و«كان تعاون العسكريين ورجال الدين يترجم .. التقارب السرّي بين الحكومة يومذاك والكنيسة من جهة والجيش والرهبانيين من جهة أخرى»[31] أليس في ذلك جانب لتوضيح تشعب المدّ الحضاري ليشمل رجس عمل الساسة ؟ وقد يكون الانسان منطلقا للبحث الحضاري من حيث طبيعته وخصائصه ووضعه وسلوكه وآثاره ، والمسيحية تحترم الانسان وتأمره بالحبّ والمسالمة . ولكن المسيحيين ارتبطوا بالسيطرة الأروبية ومن ثمة كان التباعد بين بشرية المسيحية وبشرية الاسلام. وفي هذا « لا بدّ من كنه الانسان المسيحي في القرآن وفي التوراة والانجيل وبالأمثل فيما يتصل بالانسان المسلم حتى تستقيم المقارنة»[32] . ولذلك فان «أفعال الانسان في نظر العقيدة الاسلامية ترجع الى حقيقة واحدة ، فاذا لم يتصفّ فيها ... فانّما انفصل ... ولا تقدّر أعماله الّا باعتبار اقتناعه بالمبدإ...[33]».

فأروبا المسيحية دخلت مناطق جديدة سواء في آسيا أم افريقيا أم امريكيا على أيدي دعاة مبشّرين أو تجاّر اقتصاديين أو ساسة استعماريين . ولم يكن باستطاعة حكومات الشعوب الضعيفة أن تفعل شيئا . وفي المغرب لم تهتمّ سلطة المخزن بأمور الاستيطان المسيحي الاهتمام الكثير ، لثقل المشاكل التي تعانيها في الداخل ، وفي تكون ادارة المخزن تجهل الكثير مما يقع . وفي المقابل بدأت بوادر الحضارة الغربية التي يعيشها الأجانب ترتكز على عناصر الغلبة الماديّة والسياسية فأيقن المغاربة بعجزهم الحضاري واندفع بعضهم يحتمي بالأجانب ليعيش على

(30) د. فيليب أديب سالم ، «الحواجز الحضارية أمام التقدم العلمي العربي» ، في مجلة **المستقبل العربي**، عدد 2، 7 /1978، ص. 79.

(31) د. عبد الجليل التيمي ، **التفكير الديني** ... المرجع نفسه، ص 20.

(32) — J. Kraemer, *Der' Weg zu den Griecchen» im Islamichen Mdernismus.*
In, *Colloque sur la sociologie... op. cit.*, pp. 297-302.
.Tradcution de Bouajila Youssef et Michael Wolter.

(33) محمد الفاضل بن عاشور ، **المحاضرات المغربيات**. ص 52 — الدار التونسية للنشر 1974.

هامشية حياتهم . وعايش عناصر التبشير ، وهم في الغالب متعصبون لوظيفتهم ولابناء جنسهم ، بين المغاربة . وعرفوا باب الدخول لتفكيك وحدتهم العقائدية . غير أن اجتثاث ذلك لم يكن بالأمر الممكن ، حتى بتغيير الأساليب وادخال المفاهيم الجديدة ، ذلك أنّ المغربي الذي عرف الطبيعة القاسية يغار تلقائيا على عقيدته . فتمركز الأجانب المسيحون في مناطق تتحكّم في الاقتصاد المغربي ، حتّى اذا سنحت لهم الفرصة عملوا على خنق الأسواق الداخلية وأثاروا عوامل التمزيق الاجتماعي ، وهم رغم قلة عددهم يشكّلون قوّة تتمتع بجانب كبير من الاستعلاء . على أنهم لم يؤثّروا كثيرا على مجتمع المغرب . لكن تقوقع المغاربة على نفسهم ظلّ عاملا سلبيّا في مجريات الأحداث : صيغت ظاهرة الغزو العقائدي ، واستعمر الغرب واستحوذ على اقتصاد المغرب ، وسيطر النفوذ السياسي على مكوّنات الشخصية المغربية ، وكلها عناصر ذات معنى واحد فبعضها يلتقي مع بعض «وادّعت أروبا المسيحية أن العصر الحديث هو عصر القوميات»(34) أي استبدال فكرة الوطنية التي يجمع سكان البلد الواحد على اختلاف أجناسهم وأديانهم بالقومية ، وهو ما يجعل سكان المغرب مجموعات متباينة . و«ساند النصارى هذه الفكرة»(35) فظهرت القوميات العنيّقة كالبربرية في المغرب . وفي هذه الأثناء كانت أروبا في حالة تقدّم اقتصادي وفكري بينما ظلت المناطق المستعمرة أسواقا استهلاكية ذات اقتصاد معيشي متخلف ، وبقي تراث المغرب الاسلامي محفوظا في مكتبات أروبا ، ولم يتضح العطاء الحضاري تماما ، نتيجة لعزل المغاربة حتّى لا تأخذ الأفكار طريقها وفي أحسن الحالات اكتفى الغربيون باستلفات انتباه المغاربة الى وضع أروبا المسيحية لتوجيههم أكثر الى قبول سلطة الاستعمار المسيحي ، والى اضعاف الارتباط الوطني .

ولعلّ ذلك كلّه لم يكن الّا نوعا من «الهلوسة» الحضارية ، لأن أمورا كثيرة حصلت بشكل مختلف تماما وألّفت جزءا أساسيا من المرحلة المستقبلية . فالعطاء الحضاري في النصف الأخير من القرن الماضي مازال غامضا . أما كيف بدأ العطاء ، فان كل واحد يؤوله بمنظار ذاتيّ ، حيث الايهام والتناقض وكلّ ما هو تعبير أو تسجيل يخضع لفلسفة أو أسلوب معيّنين . فالرّاهب دوفوكو استعمل أساليب التكرار للتأكيد على أن المغرب يجب أن يصنّف ضمن ايالات شمال افريقيا ، لاستكمال السيطرة الفرنسية . وفي ذلك مواصفات تعبّر عن رأي شخصي . ولذا فان الموقف العلمي لا يتحدّد بسلوك انسان بل يقدّمها كفرضية أوّلا ثم يبحث عن امكانية البرهنة على صحّتها أو خطئه ثانيا . فيكون عندئذ العطاء الحضاري واضحا على مستوى مجموعة فرضيات متبوعة بأدلّة ، بين جملة من الاختيارات والملابسات التي طبعت التفاعلات الحاصلة .

(34) محمود شاكر ، **سكان العالم الاسلامي**. ص. 93 — مؤسسة الرسالة، بيروت 1976.
(35) المرجع نفسه، ص. 93 — 94 .

و«تعتبر الحضارة الغربية نفسها وريثة للحضارتين اليونانية والرّومانيّة اللتين سادتا في التاريخ القديم . وترى في سيطرتها بعثا لثوابت هاتين الحضارتين ، وانكارا للحضارات الأخرى»[36] هذا الطابع الفكري صاحب التوسّعات الأروبية في التاريخ الحديث . وأضحى الفكر الغربي يصنع النظريات لتبرير مواقفه فلمّا أحتلّت فرنسا الجزائر «عجّلت بانشاء العنصر البربري كوحدة ذاتية دولة البربر وايجاد أبجدية للغتهم التي أوشكت على الانقراض»[37] . وهكذا تتسرب عوامل التجزئة لتشمل المجال الثقافي . ولعلّ أكثر الجوانب وضوحا في التأكيد على افتعال هذا البعد الثقافي ، وهو أنّ العقيدة الاسلامية تجاوزت التجزئة ذات الحدود الضيقة . ويبقى تبرير الرأي الاستعماري يكمن في اثارة المعارك والفتن بين القديم والحديث ، ويترجم بتسميم العلاقات الاجتماعية وفقا لأنماط فكرية لا تستند الى برهان . فثورة أبي حمارة[38] بالمغرب الأقصى في نهاية القرن الماضي «تعيد الكيد الاستعماري والمؤامرات التي دبّرت لاستفحال الضائقة المالية . فكانت من العوامل التي عجّلت بالتدخّل الأجنبي[39] . فبالاضافةالى الامتيازات والقروض ، والاستثمارات المالية ، والبعثات التبشيرية ، ركّز الاستعمار على تفتيت المغاربة بتطعيم الفتن الداخلية ، وبتعميق قطع الصلة بالماضي الحضاري ، وبدفع البعض الى حدود التمرّد والعصيان . فمن الطبيعي اذن أن يجد المغرب نفسه أمام شبكة من الأعداء ، ويضطرّ الى مسايرة ظروف أبعد ما تكون عن قناعته .

والظاهرة هذه عامّة ، اقترنت بالامبريالية الاستعمارية التي هي «نتاج الرأسمالية الصناعية في أعلى مراحلها وهي تتلخّص بنزوع كل أمة رأسمالية ... الى أن تخلق بنفسها أو أن تخضع لنفسها المزيد والمزيد من البقاع ... بصرف النظر عن الأمم التي تقطنها»[40] . فهناك اذن احتكار رأسمالي اجتماعي ، نشأ عن سياسة حيازة المستعمرات . وعلى تناقض بيّن من مسار التبشير الّذي يدّعي رعاية المصالح البشرية وتوفير العمل الاحساني .

وهكذا تدور متغيّرات الحضارة بمضمونها الثقافي والتراثي حول نماذج سلوكية فرديّة أو جماعية ، مدعّمة بالتفكير الديني في اتجاه رسمه الاستعمار بشيء من الافتعال . ولكن تضييق مجال الاستعمار فرض تطوّر هذا الأخير الى مرحلة الامبريالية . وكانت ظاهرة التبشير أكثر التصاقا وملاءمة بالظروف الاستعمارية الامبريالية وبالتالي أكثر قدرة على المساهمة في تركيز الاستعمار الغربي .

---

(36) محيى الدين صبحي ، **ملامح الشخصية العربية في التيار الفكري المعادي للأمة العربية**، ص، ش (المقدمة) . الدار العربية للكتاب، بدون تاريخ .

(37) **المرجع نفسه**، (المقدمة) ص، ض.

(38) أبو حمارة هو الجيلالي الزرهوني المعروف بلقب الورغي وبكنية أبي حمارة. أنظر : E. Aubin, *Le Maroc*... — *op. cit.* pp. 108-131.

(39) عبد العزيز التمسماني خلوق ، «حول علاقة أحمد الريسوني بأبي حمارة» . مجلة **دراسات عربية**، السنة 17، 1981، ص 84.

(40) لينين ، **الامبريالية** ... **المرجع نفسه**، ص 121.

## جدول (8)

تبشير كاثوليكي [1]

| تاريخ | البعثات | النشاط |
|---|---|---|
| القرن XIII | بعثات فرنسيسكانية | متابعة المرتزقة والمرتدين |
| 1790 | طرد الفرنسيسكان | (فرار السلطان مولاي يزيد) |
| 1794 | عودة الفرنسيسكان | |
| 1870 | تنصير | اليهودية بينيتستي Binitisti |
| 1878 | تنصير | قيرو... سليمان بن الحاج محمد سليم... وابن فاطمة مفتزاح |
| 1883 | تنصير | زنجية مسلمة (؟) |
| | | اسلام عدد من اليهود |
| 1888 | بعثة طنجة الفرنسيسكانية | تأسيس كنيسة طنجة |
| | | بناء مطعم للفقراء |
| | | بناء مستشفى فرنسيسكاني |
| | | تأسيس دير فرنسيسكاني |
| | | ايجاد مطبعة : عربية /اسبانية |
| | | انتشار 40 متدينا ومتدينة في المغرب |
| 1888 | بعثة الصويرة الفرنسيسكانية | جاورت الكنائس المساجد والمعابد |
| 1888 | بعثة العرائش | انتشار الكنائس |
| 1888 | بعثة أسفي | |
| 1889 | بعثة الدار البيضاء | وضع حجر الكنيسة (12 ديسمبر) |
| 1890/ 91 | بعثة بالرباط | |
| 1891 | | اعتراض المخزن للنشاط التبشيري |
| | | امتناع المبشرين للنشاط ازاء المسلمين |
| 1891 | | تدشين كنيسة الدار البيضاء |
| 1893 | في أسفي | تأسيس كنيسة ومأوى للمبشرين |
| 1894 | في الجديدة | تأسيس كنيسة تبشيرية |

## جدول جامع للتبشير البروتستاني بالمغرب الأقصى

| التاريخ | البعثات | النشاط |
|---|---|---|
| 1804م | بعثة جماعة الانجيل بطنجة وجبل طارق | نشاط محتشم ومحدود |
| 1834م | | |
| 1844م | | |
| 1854م | محاولات جماعة التمسيح اللندني بالصويرة وتطوان | ازاء اليهود |
| 1875م | جمعية يهود لندرا | محاولة التبشير في مراكش |
| 1876م | زيارة المبشر جون ويلكنسن للجنوب | تأسيس مجلة «Trusting and Toling» |
| 1879م | بعثة الصويرة | فتح مدرسة بالصويرة |
| 1881م | بعثة الجنوب المغربي | تبسيط الأناجيل (لغة) |
| 1883م | توحيد جماعة «الأنجيل» بطنجة | نشاط Mackintosin |
| 1884م | — بعثة طنجة B.F.B.S.<br>— سميت بعثة طنجة باسم نشريتها | — تنصير القبائل والبربر وغيرهم (محاولة)<br>— ظهور نشرية North Africa Mission<br>— النشرية في كل 3 أشهر |
| 1885م | — بعثة شمال افريقيا | — أصبحت نشرية N.A.M. شهرية<br>— شملت بعثة N.A.M. الجزائر وتونس<br>— فتح كنيسة بطنجة |

| | | |
|---|---|---|
| 1886م | — بعثة ارزيلا<br>— بعثة الوساطة اليهودية (بالجنوب)<br>— بعثة كهنوت الكنيسة الانقليزية (الرباط) | — نشاط الآنسة هردمان Herdman<br>— شملت بعثة N.A.M طرابلس<br>— نشاط المبشر يعقوب هيميون J.Habmillion<br>— نشاط كر : فتح مدارس استعانة بعائلات سورية استعانة بمرتدّ |
| 1887م | — بعثة طنجة | — توزيع 733 نسخة من الانجيل<br>— ادارة السيد والسيدة جون كدّاس، ونشأة الآنسة «ليرموند والسيد باتون.<br>— فتح مستشفى طنجة. |
| 1888م | — بعثة طنجة<br>— بعثة فاس<br>— بعثة شمال افريقيا<br>— بعثة الصويرة (1889م) | — توزيع 2535 نسخة من الانجيل<br>— نشاط هردمان<br>— فتح قاعتي مستشفى طنجة |
| 1889م | — بعثة تطوان | — نشاط : و.سومر، منسنك، ادوارد، بورطن ، بنكر، والآنستين هبارد وكمب.<br>— نشاط نيرن بالصويرة<br>— اعتناء المبشرين البروتستانت بمسيحي اسبانيا. |

| | | |
|---|---|---|
| 1890م | — جماعة يهود لندرا | — فتح مراكز بالصويرة والجزائر وتونس<br>— طنجة مركز عام لنشاط N.A.M.<br>— مساندة انقلترا لنشاط مبشريها |
| 1891م | — بعثة الدار البيضاء | — نشاط قريفز وداوارد<br>— حدد المخزن نشاط بعثة جنوب المغرب<br>— احتجاج مغربي رسمي ازاء انقلترا<br>— أمر مولاي الحسين بايقاف عمل التبشير بالجنوب. |
| 1802م | — بعثة شمال افريقيا<br>— بعثة أسفي<br>— بعثة شمال افريقيا | — شمول مصر<br>— ادارة قداس والآنسة ليرموند<br>— مجيء 3م مبشرين من اسكتلانده<br>— فتح مدرسة البنات بطنجة |
| 1893م | — بعثة شمال افريقيا | — بعثة ضيعة تجريبية بالدار البيضاء<br>— اقامة مشغل بطنجة<br>— غلق مدرسة بعثة التبشير بالجنوب بفاس. |
| 1894م | — البعثة الانجيلية بالمغرب | — 25 مبشرا<br>— اعتراف استاو بجوسسة ليون |
| 1895م | — بعثة مكناس | — النشاط في المناطق الخاضعة للمخزن |
| 1893م | — بعثة أزمور | — استقرار نيران بمراكش<br>— اشراف السيدة والسيد بادجر على بعثة أسفي |
| 1900م | | — وفاة المبشر ماكنتوسن |
| 1905م | | — ارتباط المبشرون البروتستانات بالنشاط السياسي الصريح. |

(1) مستخرج من : J.L. Miège, le Maroc., op. cit. pp. 462-468.

# خــاتمــة

ظاهرة التبشير ، كقضية تكاملية ومعقّدة وتتّصل بانتشار نظريات التبعية للغرب المسيحي ، تعكس أبعادًا وظروفا ذات أهمّيّة قصوى لا تقف عند الاطار الزمني المحدّد لها في هذا البحث .

واذا كانت نقطة الانطلاق تتمحور حول عرض الأحداث والتحليل والرّبط ثم الاستقراء فانّ الاستنتاج يثير اعادة قراءة تاريخ المغرب الأقصى . فمسألة التغريب بأساليبه وأنماطه تكشف عن اديولوجية أوروبا الاستعمارية . ولكن منطق الواقع التاريخي يفرض التفاعلات بين نمطين من الحياة العقائدية ، فهناك الجانب المسيحي وهناك الجانب الاسلامي وما ينشأ عنهما من رواسب .

وأوّل ما يشدّ الاهتمام هو جمع الحوافز الأساسية التي تحكّمت بشكل أو بآخر في مسار تاريخ التبشير بالمغرب الأقصى . والفكر الاستعماري والعقيدة هما اللذان أخرجا الأحداث من اطار حركة تستمدّ جذورها من خلفيات تاريخية الى نطاق أوسع ، اذ أنّ موقف أوروبا من الحركات التبشيرية لم يكن موقفا عقائديّا أصيلا بل كان موقفا سياسيا عمل على تركيز نفوذ أوروبا بواسطة الارساليات التبشيرية . وكوّن هذا التفكير عنصرا جديدا في حياة العقيدة المسيحية ، فخرجت الأحداث عن طبيعتها . فاذا كانت المبادرة قديمة في صيغ صليبية وعداء للمسلمين فان ساسة أوروبا استجابوا للفكرة لما لمسوه من تمهيد الطريق لاستقبال أنواع الغزو . ومن ثمة وقع الالتحام السياسي ـــ العقائدي ، بدون أن يكون هناك أثر للتناقضات . فكلها كانت مضبوطة بأخلاقيات الغرب في تحرّكاته والتزاماته . أما الجانب المغربي فقد بدأ يفقد معنوياته في المجالين الداخلي والخارجي . فكانت دول أوروبا ذات المصالح في المغرب تعمل على طمأنة جالياتها بمواثيق ومعاهدات سلبت الذّاتية المغربية . وليس أظلم من قيود يفرضها الأجنبي . ولا يملك الجهاز المغربي الحاكم القدرة على تجاوزها او تعديلها او تعطيلها . ومن هنا تبدو هذه الدراسة لا تتمثّل في الحركات التبشيرية فحسب بل تتعدّى ذلك لتشمل التأمل في ظاهرة الغزو التغريبي ككل متكامل . فالمسألة ليست مؤازرة المسيحيين وانما هي تجديد وقولبة لمخطّطات غربية لأنّ التجربة اقتضت اعتبار الأساليب التقليدية هي نوع من الأسر . والأمم

التوسعية يجب الّا تقع أسيرة منهاجها . ولمّا كانت الرّابطة العقائدية تجمع شعوب الشمال الافريقي ، بدأ لدول أروبا الاستعمارية أنه يتحتّم عليها لتأكيد سلطانها أن تذيب ما أمكن من العقبات .

وعلى هذا الأساس كان من البديهي أن ينظر الغرب للمغرب الاسلامي بمعزل عن قوتّه الروحية ما دام التحالف «الاستعماري ــ التبشيري» يشكّل محو تفتيت وتعميق التجزئة في صلب التركيبات الاجتماعية المغربية ذاتها ، فاحداث الثنائية الثقافية مثلا انتشر أثره على المستوى الاجتماعي ثمّ عمّ المستويات الباقية . وعندئذ وجب مجابهة مشاكل الواقع لابراز ما وراء التغليف ، اعترافا بجميع المؤثرات في الواقع الاجتماعي وهو ما أطلق عليه «الوقوف على الذات»[1] وأخذ موقف جذري ودائم مهما تغيّرت الذهنيات وامتزجت بأفكار غيريّة . فالانسان لا يكون الّا واحدا في جميع أنماط حياته الدينية منها والعلمية . وهذه علاقة الرّبط بين «الأصالة والمعاصرة» في بعدي الزمان: الماضي والحاضر . وهو ما يجعل الانسان جزءا من حوادث التاريخ يكون له دور في تحديد مسارها[2] وكثيرا ما يتمّ التوفيق على نحو انتقائي خالص يهدف الى خدمة مصالح فئوية . واذا كان المجتمع بطبيعته يفضّل الجمع بين ماضيه وحاضره ويجد تحقيق ذلك عن طريق أحد أو فئة فانه يرفعه الى مستوى المصلحين . وفي حالة النشاط التبشيري ، حاول المبشّرون ان يكيّفوا أنفسهم طبقا لمفاهيم الأمّة المغربية ، في غفلة منها . ولذا كان لزوما محاولة تشخيص **الوضع الاجتماعي بالمغرب الأقصى في النصف الأخير من القرن الماضي** ، في مرحلة تاريخية بدأ فيها تسلط المظاهر الأولى للاستعمار الاستيطاني في صيغ أقليّات أروبية وروّاد ومبشّرين . ومن أجل محاولة في اعادة التوازن السكّاني الطبيعي ومعرفة مظاهر القيم الدينية لما في ذلك في حدّ أدنى من التفاعل بين المجتمع والعقيدة بحيث تكون الأصالة ، في معناها الطبيعي ، امتدادا للتفاعل . وهنا يبدأ الصراع بين نقيضين : تسلط خارجي وبداية وعي داخلي[3] . وباعطاء صورة متكاملة لمجتمع المغرب يمكن رصد عوامل الضعف فيه . فمن مظاهر التخلف ووجود التفاوت الطبقي الى أنظمة رأسمالية أجنبية كاحدى عناصر الضعف . ومن سلبيّة أوليّة للسكان الى سيطرة الأقلية وممارستها للنشاط الاقصادي .

وبعد ذلك تبدأ القضايا الأساسية في ظواهر وكيفيات طرحت نفسها كبدائل بين التخلّي عن وحدة الدّين الاسلامي الذي هو تراث الأمّة ووحيها الذي تعتزّ به ، وبين التراجع وتغليب

---

(1) د. حسن حنفي ، «الأصالة والمعاصرة» في مجلّة **المستقبل العربي** عدد 29 من السنة السابعة 1981، ص 132 .

(2) د. حسن حنفي ، **الأصالة ... المرجع نفسه** ، ص 135 .

(3) قارن نظريتي محمد المنوني ، **مظاهر يقظة ... المرجع نفسه** صفحات 2آ10 وجرمان عياش, **G. Ayache, — Etudes...op.cit., pp. 177-198. «Le sentiment national dans le Maroc du XIXè S.»**

التخالف التبشيري ــ الاستعماري . لأنّ هذا الاتجاه هو استجابة لرغبة أروبا المسيحية التي تشحذها ارادة «طمس المعالم الاسلامية»(4) وهي فكرة تشدّ الى الخلف كأرضية تقوم على «الاقناع» بمعزل عن الماضي ودون اعتبار الموروث وتخطّي نطاق «الخرافات» ، وتهدف ممارسات وتصورات العقيدة المسيحية . وهذا هو التحويل الذهني والتصورات المجرّدة من واقع الانسان المغربي . وعلى أساس هذه العناصر التركيبية ، يندرج **النشاط التبشيري** تبعا لأساليب «النهم» الاستعماري . فطرح المسألة على أساس مظاهر صريحة وخفيّة يمكّن من تصنيف المناذج التبشيرية وارجاعها الى فيئتي الكاثوليكية والبروتستانتيّة ، وتحت غطاء التيارات السياسية الأروبية لأنها المتغلّبة يومذاك . لكن المبدأ العام في ذلك كلّه لا يمسّ التبشير كمشروع عقائدي ، لأن العمل على تأكيد صلوحية المشروع يشترط توفّر ظروف طبيعية ، ليست ثابتة ولا حاضرة مطلقا في الوضع الاجتماعي للمغرب . وكأنّ علاقة التبعية تكفي لتحديد مجالات أو امكانات انجاز الفكر التبشيري ، بموازرة القوى الاستعمارية التي تعمل على نشر هيمنتها .

وليس القصد من التصنيف النّمطي للتشكيلات التبشيرية هو تحديد امكانات نشاطها. بل هو صيغة لطبيعة التبعية لأن الاستعمار أستوعب المبشرين فاستمدّ المبشرون مصادر تفكيرهم من مخطّطاته وأصبح العمل التبشيري في صورة «ثنائية» في المبدإ والتطبيق، بحيث يستحيل أو يكاد بدونها تحقيق الهيمنة . ومن هنا تتضح أهداف المبادرات الفردية في صيغة الرّيادة وخدمة العلم . وهذا الارتباط العضوي بين التبشير والاستعمار ليس ظرفيا ولا مرحليا ، لأن أصالته متأتية من [الاحتلال الصليبي](5) اذ كانت الحروب الصّليبية يومئذ استجابة لدعوة بابويّة(6) لنصرة الاسبان في حربهم ضدّ مسلمي الأندلس . واستجاب للدعوة كثير من ملوك وأمراء أروبا المسيحية وأخذت الحروب الصليبية ــ هكذا طابعا دينيّا سياسيا . ــ وكانت من بين غاياتها زيادة نفوذ البابا . غير أن صيغة التبشير في التاريخ الحديث لم تعد تقوم على نيّة توسيع النفوذ البابوي باستخدام مختلف القوى الأروبية . بل اكتسب نزعة معاكسة اذ يستخدم الساسة المبشّرين لغايات التوسّع الاستعماري . هذا ما تؤكّده بعض الدراسات الموضوعيّة(7) . وعلى نطاق العقيدة ظلّ العمل التبشيري سكونيا ، لا يتجاوز الطرح النظّري . ولعلّ مردّ ذلك الى أن جهود المبشّرين اتجهت الى خدمة الأغراض السياسية

---

(4) ارجع في هذا المجال الى بحث الدكتور عبد الجليل التميمي «التفكير الديني والتبشيري ...» **بالمجلة التاريخية المغربية** ، عدد 1 ، 1974، المرجع نفسه ، ص 12 الى 24 .

(5) أنظر . أنيس قاسم ، **تأملات ... المرجع نفسه** ، ص 20 .

(6) يعتبر ايربان الثاني (Urbain II) بابا من سنة 1088 م إلى سنة 1099 م) هو المؤسس للحروب الصّليبية .

(7) ارجع الى قائمة المراجعة (عربية وأجنبية) والدوريات (عربيّة وأجنبية) .

الاستعمارية بالمغرب الأقصى. وقد تبيّن ذلك من التقارير الرّسمية والالتزامات كلّ مبشّر جديد ازاء حكومته . [ حيث أنّ مصالح التبشير بافريقيا ــ ومركزها بليون (Lyon) ــ لا يمكنها قبول المبشّرين بدون موافقة رسمية من وزارة الداخلية ، كما لا يمكن قبول أي مبشّر جديد بدون التزام مسبّق وموافقة هيئات التبشير عليه بعد استشارة المصالح العليا للدولة](8) . وبهذه المقاييس والاعتبارات تتأكد صلة المبشّرين بالاستعمار كما تتبلور اهتمامات البعثات التبشيرية . فدور الدولة في هذا المجال يتميّز بالاعتراف الضمني لمؤسسات التبشير ، ما يفرض الدّعم ومراقبة سلوك التبشيريين .

وتشير هذه الاعتبارات ، على صعيد المغرب ، الى غياب مطلق لكيان المجتمع الاسلامي المغربي ، فتأسّست مراكز التبشير وأوكل اليها مهمة التعاون العقائدي السياسي وفي مقدّمتها مشاكل تطوير العمل التبشيري وتهيئة المغرب للاستعمار . ولمّا كان المغرب صغيرا نسبيا ــ اذا ما قورن بحجم الدول المتنافسة عليه ــ فمن الصعب عليه تجاوز هذه السيطرة التي تعترض سبيله لتأكيد الروابط الدينية والاقليمية ــ الجغرافية ــ . ومن ثمّة بدت للغرب نقطة ضعف المغرب ، وبدأ الصراع المغربي الأروبي في احدى وجوهه صراعا حضاريا ثقافيا ، وما يتضمنه ذلك من حرب نفسية في مظهر تفوق حضاري ما جعل المغرب يفقد قدرته ويخسر استقلاله أو كيانه السياسي .

وأمام هذا التحدّي الأروبي المفروض وقف المغرب حائرا بين اختيارين أمّا الاستسلام والتخلّي عن الذاتية مع ما في ذلك من فقدان للطابع العربي الاسلامي والذي يستمدّ منه القوّة . وأمّا المحافظة على هويّته . ومواقف العلماء المغاربة ، وبعض المواقف الجماهرية تؤكّد أن المغرب حاول الاختيار الثاني على ما فيه من صعوبات وأعباء ثقيلة . ولكن هذه الشواهد جميعا بقيت بدايات فقط . ولم يخطر ببال أحد أنّ المقاصد التبشيرية الاستعمارية ستصبح المتحكمة في كل نشاط ، والمغرب بلد اسلامي ، يسكنه المغاربة الذين يمثّل المسلمون منهم الأغلبية الكبرى لأنه لا يوجد في ما يزيد عن ثلاثة ملايين الا زهاء الخمسين ألف من المواطنين المتديّنين بالعقيدة اليهودية . ولا تعتبر المسيحية دينا ذا أهميّة لأنها خاصة بالأجانب

---

(8) — Ensemble de manuscrits émanant de la congrégation des missions africaines de Lyon à l'intention du Ministère de l'Intérieur de France. Archives départementales et communales du Var, qui remontent à la période de 1901 à 1925. Telles que:

- Demandes d'autorisation à Monsieur le Ministre de l'Intérieur
- Réponses de Monsieur le Préfet du Var
- Exécution de la loi du 1er Juillet 1901
- Certificats d'engagement des Missionnaires
- etc...

المقيمين في المغرب ، ومع أنهم كانوا يرمون الى تسهيل الطريق بالحمايات والتجنيس[9] . على أن المسيحيين حاولوا استغلال التسامح الاسلامي لخلق مشكلة امتيازات الأجانب . و[ كان أوّل أمان أعطى صبغة معاهدة سنة 1643 م حينما عقد المولى اسماعيل عقدا مع لويس الرابع عشر[10] يشتمل في بعض مواده على تنظيم حالة الأجانب في المغرب . على أن يكون مثل ذلك للمغاربة الموجودين في فرنسا][11] . لكن تطورت هذه الامتيازات في النصف الثاني من القرن التاسع ، لتتجاوز الأنظمة العامة والكرامة الوطنية ، فأصبحت القنصليات تقوم بدور المحاكم الخاصة بالأجانب في مناطق النفوذ الأوروبي بالمغرب . فزيادة على كسب الاستفادة الاقتصادية واستقلالية القانون الخاص بالأجانب ، عمل الأوروبيون على نشر المسيحية واللغة الأجنبية . غير أنّه «لم يحدث للمغرب أن ارتدّ عن الاسلام أو تخلّى عن شريعته باختيار منه أو باضطرار»[12] . ثم تتابعت مراحل الاستيطان الأجنبي في صيغ متكاملة «فتأسّست مراكز الكهنة وفتحت المدارس تحت رعاية النّيابة الرسولية الاسبانية»[13] وبات وضع المغرب في هذه المرحلة من تاريخه (1860 م ـــ 1900 م) يتّصف بالتحرّج والضّعف فاستطال نفوذ الغربيين ، وكثرت الحمايات وتدهور الاقتصاد «والسبب في ذلك ملابسة الفرنج وغيرهم من أهل أوروبا للناس وكثرة مخالطتهم لهم ، وانتشارهم في الآفاق الاسلامية ، فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته اليها جذبة قويّة»[14] . واشتدّ التنافس الدولي على المغرب ، اذ صار موضع اهتمام اسبانيا وانقلترا وفرنسا وألمانيا ، وأضيف الى هذه الحالة السيئة السيئة خطر الجمعيات اليهودية بأروبا .

ويذهب الاعتقاد الى أنّ الأوروبيين قادرون على تشويه مسيرة الشعوب بطمس القوى المحرّكة وطمس المعالم الحضارية وقد وظّفوا لذلك قدرات وامكانات بشرية ومادية[15] . ومجتمع مثل مجتمع المغرب لا يمكن أن يغامر لصدّ هجمات الغرب مهما كانت روابطه العقائدية والتقليدية . فهناك حقيقة سلبية بفعل التنافس الأوروبي على المغرب . وبالمقابل هناك موقف ايجابي اسلامي ـــ كما ذهب اليه علال الفاسي ـــ والاسلام قوّة سياسية ووحدة تكامليّة . وهذا يجعل صيغة شبه تهديد للفكر التبشيري . وفي هذه الحالة هناك امكانية

---

(9) علال الفاسي ، **دفاع ... المرجع نفسه** ، ص 5-11-12 .

(10) لويس الرابع عشر (Louis XIV) هو ملك فرنسا من سنة 1643 م الى سنة 1715 م .

(11) علال الفاسي ، **دفاع ... المرجع نفسه** ، ص 15-17 .

(12) **المرجع السابق** ، ص 23 .

(13) — J.M. Sédès, **Histoire...op.cit.**, pp. 55-56.

(14) محمد المنوني ، **مظاهر يقظة ... المرجع نفسه** ، ص 23 .

(15) د. حسين قاسم العزيز ، «مؤثرات التفاعل الحضاري» في مجلة **الثقافة** عدد 4 السنة 11، 1981، ص 53 .

تعديل في المواقف . في حين أنّ هناك تخوّفا ضمنيا ناتج عن خلق الفكر الاجتماعي من ناحية والمدّ الاستعماري من ناحية ثانية . فكانت التبعية والالتحاق بها من فعل حضارة الغرب وهي تبعية وضعت في حدود الوعي الفكري لمجتمع المغرب ، حدود ارتباك واندهاش لدرجة شلّ احتمالات المقاومة في ظروف لها فكرها وملابساتها ، وكان لابدّ من استنتاجات في قالب جوافز أولية لا تقلّ على التحليل الحضاري والاستعداد الذهني في مسار التاريخ المستقبلي ، وحتّى لا يختزل تاريخ المغرب الأقصى . ولقد أثيرت في هذا الفصل الأخير من البحث اشكاليات وفرضيات وهي تحتاج الى مزيد من التعمّق والتفصيل والى مزيد من التوثيق . وخضعت الاستنتاجات الى معايير احتمالية ، وهي في الحقيقة جزء من بنية فكرية تابعة لنماذج العطاء الحضاري . وعلى هذا الجانب من الرؤية . ولكن خارج محور التصوّرات بين علاقة الحركات التبشيرية بالمجتمع المغربي ، تمّت امكانية تسجيل الصورة المغربية كما تعكسها قيم الفكر السياسي الحديث «وسواء أكانت روابط الدين بالحضارة متينة أو واهية فان التفاعل بينهما لا ينقطع مهما تباعدت البيئات»(16) .وبتطور التفاعل يختلط العنصر الديني بالجانب الحضاري . ولقد سجّل موريس بوكاي(17) (Maurice Bucaille) ، في كتابه «التوراة (والانجيل) والقرآن والعلم «التطوّر الحاصل في موقف المسيحية ازاء الاسلام في مفهوم حضاري يؤدّي الى تقارب الديانات السماوية وكشف عن «ضرورة التحوّل الذهني وترك الضغائن المسيحية ازاء المسلمين [ والاسلام ] ووجوب فهم الاسلام عن حقيقته بالتخلّي عن المعلومات»(18) .

أما فيما يتعلّق بالتبشير كظاهرة عقائدية اجتماعية ، فان مؤسساته التي يفترض أن تخدم الانسان في مجالات واسعة(19) انتهت بأن حوّلت الانسان الى خادم لما هو يتناقض مع المصالح البشرية حيث تقلّصت ذاتية الانسان لترك السيطرة الاستعمارية تأخذ مكانها بالقوة وبالتحدّيات . والعجيب أن الحركات التبشيرية ذاتها هي التي بدأت تعمل على تركيز الاستعمار ، وغرس بذور حضارة الغرب . وهذا ما يضع مشكلة التداخل في ثنائية التبشير

---

(16) محي الدّين عزّوز ، «التوازن الدّيني والحضاري في فلسفة محمد عبدة» في مجلة الهداية عدد 1 من السنة الخامسة ، 1977 ، ص 76 .

(17) موريس بوكاي جرّاح فرنسي ، اشتهر ببحوثه واكتشافاته في مجال جراحة الأمعاء ، اهتمّ بالكتب السّماوية على ضوء التجربة العلمية ، فخرج بنتيجة أنّ «القرآن كتاب سماوي لا دخل للبشر فيه» .
عن د. محمد اليعلاوي ، مجلة الهداية عدد 3 ، السنة 5 1978 ، ص 68 .

(18) — Maurice bucaille, La Bible, Le Coran et la Science, pp. 7-11 éd. Seghers, Paris 1976.

(19) أهمّ مرجع يعدّد مجالات النشاط التبشيري هو كتاب «التبشير والاستعمار ... المرجع نفسه ، للدكتور بن مصطفى الخالدي وعمر فرّوخ .

والاستعمار وما ينشأ عنها من علاقة القوّة بالعقيدة وفجوات التصوّرات السّلوكية[20] .

ففي خدمة فرنسا الاستعمارية كان الأب دوفوكو «حريصا على اخضاع قبائل «الطوارق» العربية . ولم يدّخر جهدا لدعم فرنسا في كامل الشمال الافريقي»[21] . والمعروف «أنّ الدّين يتفاعل تفاعلا مباشرا مع قضايا الحياة»[22] لكن التفكير التبشيري يحمل على الاعتقاد بأنّه منذ البداية استند على الافتعال «... فلا أحد ينفي أن المبشّرين هم طلائع القوى [في الأصل الجيوش] التي ستغزو افريقيا لتركيز التمدّن المسيحي . وعلى ذلك استيقظ المغرب ليدرك التقدّم الأروبي . فالدّين هو أقوى العوامل التي تتحدّى الحواجز لتمكين الأروبي من المساهمة في تطوير شعوب افريقيا ، بفضل ما لمبشّرينا من نشاط بين المغاربة [في الأصل سكان المغرب] ... ولدعم جهود المبشّرين يجب على اسبانيا مساندة عملهم وحمايتهم[23] وفي نفس الاتجاه يبرّر مؤرخو التبشير بأنّ «ذهنية المبشرين تتأقلم مع المراحل التاريخية»[24] . بينما «تقترن بعثات التبشير بتقدّم فرنسا ، فيستقرّ المستعمرون (بكسر الميم) وتنشأ الكنائس وتفتح المدارس ... حتى كان في سنة 1872 م قد بلغ عدد المبشرين ثلاثين مبشّرا لألف ومائتي مسيحي . وتصاعد هذا العدد ليبلغ خمس مائة مبسّرٍ لمائتي مسيحي . وفي نهاية الربع الأول من القرن العشرين»[25].

هكذا تورد بعض «الطبعات والترجمات»[26] ، التي يمكن أن تتّخذ كنموذج لجهود المبشّرين وتزايد اهتمامهم بالمغرب الأقصى . ولم يكن المغرب لينتظر أكثر من مظاهر التغريب مهما كان من أمر التمدّن الأروبي والطموحات التبشيرية . وأنّ ما يسمىّ «بنقل الحضارة» في صيغة التبشير انّما هو نتاج للعقلية الغربية في أساليب استعمارية ، اذ كان الساسة الاستعماريّون قد أقنعوا شعوبهم بحتميّة نشر التمدّن وتوسيع مجال الحضارة الأروبية . وتعاطف

---

(20) تسهب الكتابات الغربية في تمجيد العمل التبشيري وسلوك المبشّرين ، فتجعل منهم رعاة المصالح الانسانية ، كالاحسان والتعليم والعمل التمديني . أنظر مثلا :

— Boucher, **L'action missionnaire**, Paris 1931.

— Goyau, Missions et Missionnaires, Paris 1931.

— Vaumes (De), **L'Eveil Missionnaire de la France**, Paris 1923.

(21) — Ali Merad, **Charles de Foucauld...op.cit.**, pp. 10-111

(22) د. عبد العزيز كامل ، **مواقف اسلامية** ، ص 49 دار المعارف بمصر ، طـ 2 ، 1971 .

(23) — Padre Castellanos, **Historia ...op.cit., Apdndice I** (Las Misiones Franciscanas en Marruecos) pp. 651-652.

(24) — G. Zananiri, **Figures Missionnaires...op.cit.**, p. 9.

(25) — Descamps, **Histoire Générale...op.cit.**, p. 563.

(26) المصطلح للدكتور محمد أركون ، **مشكلة الأصول** ، مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 13 ، جوان 1981 ص 15 ، ترجمة هاشم صالح .

كثير مع هذا الشّعار . ووجد المبشرون في ذلك دفعا لطموحاتهم . لكن الاستعمار توسّع على حساب الشعوب المستضعفة وكَسْبِ النفوذ واقتسم المستعمرات على أساس المصالح الاقتصادية ، بينما فشل المبشّرون في تحقيق الأهداف العقائدية مما استوجب مراجعة طرقهم ومحاولة توحيد الاتجاهات : «يجب إعداد رجال دين عندهم استعداد للحوار...»[27] و«يجب قيام اتّجاه واحد في التبشير بدلا من الاتجاهات الكثيرة المختلفة المتعادية والموجودة حاليّا»[28] . ومع ذلك فانّه قلّما أن حدث تعارض بين التبشير والاستعمار[29] .

وظلّ المغرب الأقصى حتى نهاية القرن الماضي «يقاوم الغزو الأروبي ، دون أن تنال الأحداث من أصالته ومثله الاسلامية»[30] ، وفي نفس الوقت فتح المجال «أمام [ التجديد ] في عهد المولى الحسن ، و[كان] الملوك العلويّون أنفسهم يقومون بالاشراف على ... اصلاح العقيدة وفتح باب الاجتهاد»[31] ويستمدّ هذا الشعور أصوله وفاعليته عن طريق الرّباط الديني الذي يجمع فيئات المجتمع المغربي رغم الاحتكاك بالفكر الغربي ، حيث نشاط البعثات التبشيرية وارسال بعض الطلبة الى الجامعات الأروبية . وهذا ما يفسّر — بأبعاد متفاوتة — سلبية العمل التبشيري وتبنّي التمدّن الغربي[32] . وعلى العكس من ذلك فقد جدّت حركات اصلاح وتجديد شملت العالم الاسلامي . ومهما تعارضت أفكار التجديد فانها تعدّ من الجوانب الايجابية الهامة ، ذلك أن عملية الاقتباس والتزوّد بثقافة أجنبية لا تتعارض مع التفكير الاسلامي سيما اذا التزمت عمليات الاستقراء والفحص والاستنباط لما في ذلك من مهامّ متعدّدة وحرجة .

وباهمال كل الملابسات التاريخية التي أوصلت المغرب الأقصى وحملته الى التبعيّة والتخلّف ، ومع امكانية الجمع بين ثنائية التبشير — المسيحي والاستعمار — الغربي ، يبدو من المحتمل اقرار تكامل التبشير والاستعمار في الممارسات النظرية والعملية ، ويكون الأمر

---

(27) عن الدكتور مصطفى وعمر فروخ «التبشير والاستعمار ...» المرجع نفسه ، ص 258 .

(28) نفس المرجع ، ص 254 .

(29) لم يتح للمستعمرات أن تتخلص من ثقل رواسب الاستعمار التي امتدّت الى قضايا أساسية ذات طابع حضاري كالتربية والثقافة والاجتماعيات ... ومع بقاء تلك الرواسب تطوّر التبشير فأخذ صيغة «الحوار» الذي هو ضروري لاستمرارية النشاط التبشيري ، رغم طرح الجدلية .

(30) علال الهاشمي الخياري ، الاسلام ... المرجع نفسه ، ص 205 .

(31) نفس المرجع ، ص 205 .

(32) يشير هذا التعبير الى أنّ مشكلة التعالي كانت قد سيطرت على القائلين بالتمدّن والحضارة الغربيين ، طيلة القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، حيث التحوّلات الاجتماعية الهامة ، وحيث الثورة الصناعية . ولقد استطاع مفكّرو أوربا أن يعطو للفكر الانساني أبعادا عقلية وموسوعيّة هامّة . وهذا يعني أنّ أعمال المفكرين النقديين الغربيين خضعت لتأثير التّعالي ما يستلزم اعادة النظر في المفاهيم الفكرية الأروبية ذات الاتجاهات المختلفة . وقد تتعارض هذه الملحوظة مع دعاة التمدّن الغربي بما فيهم المبشّرون .

عسيرا ــ ان لم يكن مستحيلا ــ في محاولة الفصل بينهما فصلا مطلقا . وليس معنى ذلك الايحاء بأنّه لا توجد عناصر كثيرة وأساسية لا يمكن التوفيق بينها . وذلك بالنظّر الى أنّ الغربيين حاولوا احلال لغاتهم وطبائعهم المرتبة الأولى على حساب المقومات الجذرية للذّات المغربية . وليس في ذلك زعم بأن مشكلة «التّغريب» هي كلّ بصمات وصور العمل التبشيري ــ الاستعماري ، ولكن هي صيغة من صيغ التأكيد حيث كان «الغزو» العقائدي مقرونا بالغزو الثقافي ومتبوعا بالحماية العسكرية والتأييدات السياسية . ومهما تباينت طرق طرح المفاهيم حول الحركات التبشيرية واختلفت حدودها ، فانها تظلّ لصيقة بالمدّ الاستعماري ودون أن تفارق ايديولوجيته وأخلاقيته . ويؤلف هذا البحث عرضا للأسلوب الذي ينهجه المبشّرون في اقرار امبريالية الغرب ازاء المغاربة المسلمين الذين تحكّمت فيهم ظروف صعبة . ولم تكن الحركات التبشيرية ترتجل عملها بل استندت على أصول وقدرات سياسيّة ونفسيّة وماديّة غربيّة . وكان فلسفة التبشير تتجاوز طبيعة العقيدة المسيحية للتكيّف بذهنية الغرب المتحامل . واستغلّ هذا الاختيار ملابسات الظروف الدولية والوضع المغربي .

وبشأن ما في البحث من تصوّرات وشواهد معادة ومتكرّرة ، فالأمر يهدف الى استحضار مختلف الاتجاهات ، ما يمكّن من استخراج ملاحضات ومقارنات وما الى ذلك من قابلات . والتقيم استند الى معلومات متنوّعة فمنها البحوث المتعمقة ومنها الدّراسات المحدودة التي قد تكون ناقصة ، وخاصة فيما يتعلّق بالتوثيق . والحق أن وضع المبشّرين في منتهى الحساسية ما جعلهم يوصدون الأبواب على وثائقهم .

ولهذا فانّ حصيلة الظروف «التبشيرية ــ الاستعمارية» كانت تنعكس بوجوهها السلبية على المغرب . فحين كانت الحركات التبشيرية تتصاعد وتتّسع كان المغاربة مشدودين الى وضعهم الدّاخلي ، وكان الاستعمار يسيطر ويبطش بالجماعات البشرية ، ومن هنا كان مجمل الطموحات الأروبية نقيضا لمصالح المغرب ، ومضادا لاتجاهه الطبيعي ، فتجاذبته الاتجاهات الأروبية محاولة اذابة خصوبته الذّاتية . ومع أنّ الارساليات التبشيرية لم تكن قد أصبحت «مدرسة» إلّا أنها كوّنت المحرّك المساعد للمدّ الامبريالي ، وشكّلت آفاقه المستقبلية وحملت فلسفته التوسّعية . فكان التقييم المعياري للحركات التبشيرية لا يتّصل بالموقف العقائدي الذّاتي . وهذه الازدواجية في مستوى المواقف لم يعمل بها المسلمون ، ولعلّ موقف المغاربة ازاء المسيحيين الغربيين من أهمّ الدلالات على ذلك . لأنّ المغربي على يقين من أنّ الاسلام أقوى الرّوابط بين الأفراد والجماعات .

# فهرس الأعلام

## ـ أ ـ

— ق —



— ع —



— غ —



— ك —

# فهرس الجماعات والشعوب

# فهرس الأماكن الجغرافية

طبع بمطبعة الشركة التونسية للتوزيع
شـــارع 20 مـــارس
باب سعدون ـ تونس
TT 98/15/88
اوت 1989

siècle tel qu'il se présente dans son déploiement historique, mais le ramener à ses positions les plus élémentaires en le rattachant déductivement aux origines même de l'expansion coloniale de l'Europe chrétienne, qui sont forcément les siennes. Nous avons voulu donner un résumé succint mais aussi rigoureux que possible de ce qui constitue fondamentalement notre recherche.

La véracité de nos propos est certes entachée de relativité, mais elle n'en offre pas moins les points de repère sûrs.

L'élaboration de ce résumé rapide demande encore beaucoup de temps. Aussi, le but à atteindre nous paraît amoindri par l'absence de l'analyse — qui est faite en arabe — qui prépare la compréhension de «L'action missionnaire en Maroc».

Les règles de la reconnaissance et de la fidèlité nous font un devoir que le premier lecteur de cette étude fut Temimi Abdelajalil, Professeur d'histoire à la Faculté des Sciences Humaines et Sociales de l'Université de Tunis. A ses inépuisables conseils et à ses critiques, cette recherche doit beaucoup.

**Belgacem HANNACHI**

gnose. Or, en analogie, l'Islam se fonde sur l'absoluité d'Allah. C'est un dogmatisme qui se caractérise par le fait que toute antinomie conceptuelle se résout dans la vérité infinie. L'Islam doit donc nier, du moins sur le plan des mots, la divinité du Christ.

Il est vain, par conséquent, de faire valoir l'action missionnaire sur toutes ses formes de religiosité..Dans le Christianisme la foi passe à travers le Christ; dans l'Islam elle sépare le relatif de l'absolu. Les perpectives missionnaires en tant que telles n'ont rien d'absolu.

Dans cet ordre d'idées la réaction des Marocains à l'égard des missionnaires s'est fait sentir. Ce n'est toutefois pas le Christianisme qui est mis en cause, mais l'Occidental en tant que symbole de déséquilibre sur le plan politico-colonial. Ce qui implique son accord avec les attitudes spirituelles correspondantes.

Le contenu le plus apparent d'une telle interprétation est fait non d'exposés doctrinaux ou de fervents sermons de vendredi, mais de récits historiques et symboliques qui prennent la forme de textes révélateurs. Ces textes nous transmettent une image multiple et saisissante. L'on cite: entre autres Al Kattani Al Fassi, mort en 1982, en son livre «Hidayat al dhal al musthaghel bi al qil wa el qal (la bonne voie de l'égaré tracassé par les qu'en-dira-t-on)»... Ce n'est toutefois pas cette décadence morale (celle des Missionnaires) qui le rendait colonisable, mais au contraire son caractère normal, qui n'était guère décadent, il ne pouvait resister aux variantes de l'esprit des étrangers...».

Les Musulmans n'interdisent pas aux Chrétiens d'exposer leur réligion, par le prosélytisme. Ce qu'ils reprochent à ceux-ci c'est la méthode malhonnête employée par les Missionnaires zélés, qui exploitent l'état matériel ou intellectuel des Musulmans, en l'occurence des Marocains: on donnait aux enfants sinistrés du lait, à condition qu'ils portent un collier avec une croix. On soignait les malades à la même, condition. C'est prêcher le christianisme par une méthode qui offense l'opinion publique.

Si les Marocains étaient scandalisés par les manifestations de l'activité missionnaire dans leur milieu, ce n'était pas parce que ces Chrétiens témoignaient de la de la présence de l'Eglise du Christ, ce qui aurait été acceptable, mais parce que les missionnaires se servaient de toutes sortes de moyens temporels pour essayer de détourner les Marocains de leur propre réligion.

Contrairement à ce que croyait l'opinion en Europe du XIXè siècle, le Maroc n'était pas une terre sans histoire et sans culture habitée par des primitifs. Le Marocain vivait en étroit et continuel contact avec sa religion.

Dans son intégralité cette recherche provient du fait qu'aucune étude nouvelle n'est venue remettre en cause le contenu de nos analyses. Les chapitres sont tels qu'ils étaient il y a sept ans. Nous entendons nous situer au-delà de la subjectivité. Le thème sera repris, sans nul doute, par d'autres. Il se situera dans d'autres perspectives, d'autres orientations en fonction d'autres préocupations et d'autres méthodes.

Avec toutes ces considérations nous avons voulu, non donner une simple image du prosélytisme chrétien au Maroc dans la seconde moitié du XIXè

— Centres d'activité périodique : 19

— Centres de formation : 8

Il va de soi que les Missionnaires appartiennent aux différentes nations européennes. Ainsi, si l'on se réfère à un mémoire non signé, qui se trouve à la bibliothèque des Dominicains à Casablanca ( Maroc ) et dont les notes ont été faites à partir des documents des archives de la mission de TANGER: «C'est en 1859 que la Sacrée Congrégation de la Propagande décréta la fondation d'une préfecture apostolique... Les premiers réligieux... se rendirent à TANGER. Ils se retirèrent à CEUTA et se consacrèrent au service de l'armée.. Le P. JOSEPH LOPEZ...ne tarda pas à faire rentrer les réligieux dans les anciennes résidences de Larrache , Casablanca, Mazagan, Safi et Magador.

Sous l'autorité du P. Michel Cerezal, ... la mission de Tanger fut fondée. Sous l'autorité du célèbre P. Joseph Lerchundi, toutes les œuvres reçurent une vigoureuse impulsion: œuvres catholiques, écoles dispensaires... dans tous les centres mais spécialement à TANGER où il y fonda un hôpital, un collège secondaire de garçons et une imprimerie... vers 1908 le catholicisme comptait de 4.000 à 5.000 fidèles principalement de nationalité espagnole...».

L'hostilité marocaine à l'égard du comportement des Missionnaires était constante, avec des intensités variables selon les mentalités et suivant les secteurs de l'opinion qu'elle animait. La réaction s'est fait sentir surtout dans les milieux endoctrinés par l'islam. Elle a pris naissance et est devenue sensible dans les mosquées. Attitude souvent soulignée pendant la prière du vendredi, où l'Imam exhorte les Musulmans, malgré la tolérance de l'Islam à l'égard des Chrétiens, de ne pas se laisser appâter par les Missionnaires. Ceux-ci «se permettent le vin, le porc... bref les interdits».

Une même opposition anime les Uléma marocains, s'appuyant sur l'argument de la moralité. L'affairisme missionnaire est dénoncé à travers les écrits. Le Sultan marocain ordonna à son ministre Bargach de faire cesser «ce ravage missionnaire».

Trois facteurs ont contribué à la montée de ce refus: la pratique anti-islamique des Missionnaires et de leurs colporteurs, la campagne propagandiste pour l'évangélistion dans certains centres et enfin la solide islamisation des Marocains.

L'idée de la prédestination si fortement reconnue dans l'islam, n'abolit par celle de liberté. L'homme est soumis à la prédestination parce qu'il n'est pas Dieu. Allah seul est absolu. La liberté humaine est donc relative dans l'absolu. Nier la prédestination reviendrait à prétendre, chez les Missionnaires, que Dieu n'est pas omniscient. Dans le Christianisme cette évidence n'est prise en considération qu'à titre d'aspect de la volonté humaine: il faut une intervention divine, le sacrement. Pour le Missionnaire le rejet de la divinité du Christ est haïssable, le Musulman, lui, haït le rejet d'Allah et de l'islam. Tout est ici question d'accent et de délimitation. Le christianisme se fonde sur la divinité d'un phénomène terrestre. La notion même de «trinité» largement évoquée par les Missionnaires, prouve que le pointde vue adapté se situe au niveau métaphysique propre à toute

Maroc ces stations s'établissent en fonction de la population. Les Sociétés missionnaires se sont multipliées dans la première moitié du XIXème siècle. Mgr. A. Pons fait remonter l'histoire de la mission franciscaine au Maroc, au XIII$^{e}$. siècle, mais les disciples de François d'Assise «ne réussirent à établir des chrétientés à Fez, Marakech, Tanger et Centa qu'aux XV$^{e}$ et XVI$^{e}$ siècle». (P. 284) A la veille du XIX$^{e}$ siècle Mgr. PONS prétendait que «tout était instable dans ce pays (LE MAROC) d'endémique anarchie et sous le sceptre de Sultans versatiles et omnipotents... La mission n'était qu'une préfecture apostolique que la Propagande réorganisa en 1859... il fallait des prêtres à nos combattants et des prêtres de leur langue, de leur patrie»; (Ibid) Si les autorités civiles ou militaires considèrent les missionnaires comme agents d'influence naturelle auprès des Marocains, Mgr. Pons consolide encore plus l'amalgame et la synthèse du spirituel et du matériel, pour fournir la conjonction politico-religieuse: «Sous la protection de nos fusils et de nos canons, la sécurité renaissait dans le bled, la vie commerçiale recommençait. On vit alors arriver, dans chaque centre important , un nouveau contingent d'Européens.. Les aumôniers militaires durent remplir les fonctions paroissiables» (P. 286). Il n'est, sans doute, pas de témoignage plus révélateur de ce que l'ont peut à bon droit entendre comme jubilation caractéristique. Les mythes religieux viennent renforcer ou relayer ceux de la prépondérance politique d'une communauté, minoritaire soit-elle, européenne. La connaissance que les Missionnaires ont du Maroc et des gens les fait servir d'introducteurs, d'interprètes aux explorateurs aux soldats et aux diplomates.

Le fait mérite davantage encore de retenir l'attention, ce sont les thèmes essentiels de la propagande coloniale que l'on voit se rejoindre et se fondre dans un même ensemble chez le Missionnaire. Mais toute la question serait de pouvoir apprécier à son exacte mesure le rayonnement de ce dualisme du visage européano-chrétien, son audience, sa portée, son degré de pénétration dans les multiples secteurs de l'opinion marocaine. Notre recherche nous a fourni une réponse précise, qu'aucune enquête ne semble pouvoir donner. Replacées dans leur contexte historique les Missions aussi bien catholiques que protestantes, réparties dans divers centres évangéliques n'ont réussi à évangéliser que trois individus: une juive marocaine Benitisti un certain Guermo Ben Sliman (d'origine syrienne et une inconnue Noire Marociane). Nul n'est en mesure d'applaudir de tels résultats obtenus, or que le nombre des missions atteignait, entre les années 1790 et 1905,la trentaine. Il est à noter que l'action entreprise par les Missionnaires était fort diversifiée: Diffusion des Evangiles, ouverture des hôpitaux et dispensaires, fonder ou construire des écoles, des orphelinats... le tout était d'occidentaliser le Maroc. Le dynamisme croissant des Missionnaires se faisait sentir dans toutes les régions marocaines convoitées et sous diverses formes:

— Centres évangéliques dans les villes : 20
— Centres évangéliques dans les campagnes : 10
— Circonscriptions militaires : 8

à la morale islamique marocaine d'alors. Celle-ci s'impose de tout son poids, puisque elle caractérise une certaine forme de nationalisme. Elle ne manque pas de fixer l'attention sur les problèmes que pose l'existence des centres missionnaires «évangéliques»: un changement d'angoisse perceptible semble gagner le monde marocain. Ce trait significatif est dû à l'interpénétration des groupes de pression telles que les sociétés de géographie, les missionnaires, les associations coloniales, qui ont contribué fortement à la propagation de l'idéologie coloniale. «La géographie, soutenait la Roncière de Moury dans un discours d'inauguration du congrès international de 1875, cette science qui inspira un si beau dévouement... est devenue la philosophie de la terre». Les différentes sociétés ont renforcé l'idéal européen et ont éveillé la faveur du grand public pour une littérature de voyage. Les Associations coloniales, réunissaient des réprésentants du monde des affaires, des intellectuels, des écrivains et des hommes politiques. «A la fierté de posséder le deuxième empire colonial, écrivait le gouverneur général Olivier, en évoquant l'évolution du sentiment public à l'égard des colonies... s'ajoutait désormais dans les esprits un sentiment de reconnaissance qui s'adressait aussi bien à l'œuvre elle-même qu'à leurs éducateurs...».

Alors, que dans la période antérieure, les expéditions entre aûtres les missionnaires — s'étaient déroulées dans une atmophère de réticence, on ne saurait négliger au demeurant que l'idéologie coloniale ne fait que reposer sur des préjugés, de croyances et d'habitudes mentales liés à la conviction de l'évidente primauté de la civilisation occidentale, avec la prééminence du Christianisme. «Pour certains, affirme J.L. Miège, l'Occident est incarné par l'administrateur, le médecin ou l'instituteur, apporte la justice, l'égalité et l'école. «Il y a donc deux mondes: L'Occident constitue le sommet chrétien et nationaliste et au plus bas, des socités sauvages, arriérées et incultes.

Au-delà des préjugés hatifs dans bien des cas la connaissance du dossier tempère les plus ardentes convictions coloniales. La question fondamentale est de savoir si les considérations de prestige religieux ne furent démolies tant en Europe expansioniste qu'en terres conquises. Les motivations coloniales surpassent le prosélytisme. Les Missionnaires furent attentifs à tracer en fonction des événements le terrain favorable à toute démarche coloniale. CH. de Foucauld en est l'exemple.

L'Histoire de l'idée missionnaire, s'est donc édifiée étrangement en étroite coalition avec les intérêts de convoitise coloniale. Ainsi on retrouve le «crédo colonial» exprimé sous des formes et avec différentes méthodes aussi bien dans les discours ou les études de la presse spécialisée que dans la littérature de voyage ou la vulgarisation géographique des missionnaires.

Appuyées, ainsi sur une documentation tendantieuse et diversifiée nous nous appliquons à établir la place qu'ont occupée les missionnaires dans la société marocaine Aussi nous nous efforçons avec soin d'en dégager les effets de l'action du prosélytisme chrétien.

Si le grand mouvement d'évangélisation de la deuxième moitié du XIXème siècle essaime à travers le monde les stations missionnaires, au

Cet ensemble d'idées de notre analyse vient donc se placer, le plus objectivement possible, au milieu de toutes controverses.

Pour la commodité du résumé, à titre de rappel, la schématisation de cette étude a été répartie sur trois rubriques:

I— Vue d'ensemble du Maroc dans la deuxième moitié du XIXème siècle.

II— L'action missionnaire.

III— Effets et conséquences.

L'action missionnaire fut souvent facilitée par la crise que traversait le Maghreb en général et le Maroc en particulier, si l'on reprend l'expression de A.M. Benard «La vie spirituelle va se trouver marquée par cette de A.M. Besnard « La vie spirituelle va se trouver marquée par cette même lorsqu'elles ont été définies par des traités. Une certaine instabilité règne dans l'Etat des Makhzen, et les régions se gérant en autonomie. Les nationalités sont, semble-t-il, enchevêtrées. Les Missionnaires, appuyés par leur gouvernement respectif, l'Espagne , la France surtout, n'ont fait qu'aggraver d'emblée la situation.

Tout au long du XIXème siècle et particulièrement depuis l'occupation de l'Algérie, le Maroc a subi de la part de l'Europe, une pression croissante qui a fini par le priver de son indépendance. S'il n'est pas toujours aisé de recueillir ces faits, il convient d'en faire allusion, dans leur propre contexte et dans un esprit analysable.

La population appartient à la grande aireculturelle de l'Islam. Même l'ethnie berbère, restée relativement immuable, a fini par accepter l'Islam Véhicule de la religion musulmane, la langue arabe s'est implantée. Une façon de vivre de penser, de s'exprimer s'est manifestée.

Pour ce qui est des conversions à l'Islam, on note que certaines personnes, tout en demeurant de nationalité étrangère, ont été fort attirées par l'Islam Djouder, Perviz du Portugal; F. d'El Pino, le baron Reperdra d'Espagne; Cornul, Boisselin, M. de Sautly de France; C. Petrobelli P. Muti, F. Chiappe d'Italie... avec 250 militaires français islamisés, ce ravissement pourrait à certain égard nourrir ou stimuler l'action missionnaire. Mais, se passant de tout raisonnement qu'impliquent les données humaines, les Missionnaires se sont intéressés à actualiser les agissements coloniaux. Leur action, n'est donc que cadre extérieur, bien que cette interprétation nous semble de trop pessimiste. Comme il n'est point possible de parler des Missionnaires sans évoquer le courant de la pensée coloniale, on se méprendrait si on se suffisait aux écrits des histoires des Missions.

Cet essai qui n'est que conceptuel, reste dominé par la volonté d'une recherche impartiale. Nous ne nous sommes pas limités à la seule exègèse des textes des doctrinaires où des controverses des théoriciens. Il s'agit de tenter un dessein qui nous conduit à ne pas dépasser les coupures chronologiques de l'histoire, afin de ne pas fragmenter ou morceler les faits.

Dans le cadre de cet esprit , il serait légitime de comprendre la réaction et l'attitude des défenseurs de la cause missionnaire, sans toutefois se référer

## L'ACTIVITE MISSIONNAIRE AU MAROC DANS LA SECONDE MOITIE DU XIXème SIECLE

La période où s'affirme le partage du continent africain voire-même le triomphe de l'idée impérialiste, a été précédée par des années d'explorations géographique , de formation des sociétés commerciales et la constitution des associations coloniales. C'est également une période où se trouvent formulées certaines interrogations majeures à l'égard des continents convoités: défendre l'expansion coloniale, affirmer sa légitimité, justifier son maintien et, en même temps, donner à son contenu idéologique une signification. Ce ne sont pas les faits essentiels de notre recherche. Ceux-ci se situent sur un autre plan, qui est celui de l'histoire collective des idées. Il s'agit, pour nous de pénétrer dans l'épaisseur des mentalités religieuses, de suivre l'évolution des «Missionnaires»: leur mutation, leur épanouissement ou leur rétraction, au Maroc dans la deuxième moitié du XIXème siècle.

En dehors de quelques monographies savantes ou de quelques articles dispersés, l'historiographie arabe se montre fort pauvre, or que les occidentaux furent si riches depuis le siècle passé. Il n'ont pas attendu l'évolution ou la dévolution du fait missionnaire pour entre prendre des œuvres et accomplir des travaux immenses. Même si le sondage référenciel de ces travaux fait apparaître certaines convergences, l'influence exercée par ces écrits sur les mentalités occidentales est considérable. Tout se passe comme si «l'action missionnaire» était un consénsus des nations européennes. Chacun reconnaît alors le rôle social joué par l'action du prosélytisme. Ce qui justifie sa présence dans l'histoire générale de l'Humanité.

En effet, l'action missionnaire a continué à secouer les sociétés non chrétiennes. « La coutume indigène, affirmait Félix Eboue , trouve dans la diffusion des préceptes chrétiens sa plus inévitable raison d'évoluer». Dans l'action missionnaire, laisse entendre J. M. Sedes, il y a une éminente fonction sociale.

Aussi, dans son ouvrage «La nouvelle eglise d'afrique» Mgr.. A. pons traite la connaissance de l'islam d'une manière on ne peut plus singulière. Si bien que l'histoire des Missions est souvent reléguée dans les salles d'œuvre et dans les revues internes où elle revêt la forme d'Encyclopédies. Il arrive qu'elle déroute jusqu'aux historiens les plus avertis. Certes, les Missions ont leurs historiens, Georges Goyau, le P.R. Piolet, Guillaume de Vaumas, Mgr. Chapoulie,le Pasteur Pannier pour ne citer que quelques noms dont les œuvres sont peu connues.

Relativiser certains concepts tendancieux, dans l'ensemble de la morale missionnaire, ne serait que d'une bien faible marginalisation.

*Publications du Centre d'Etudes et de Recherches Ottomanes, Morisques, de Documentation et d'Information*
*— Ceromdi —*

*Directeur Responsable*
*Prof. Abdeljelil Temimi*

**Des objectifs de CEROMDI**

— La création d'un centre d'information historiques, ottomanes et morisco andalouses et d'une banque de données bibliographiques relatives à ces sujets .

— L'ouverture d'une bibliothèque spécialisée ; celle-ci fut inaugurée le 15 mars 1989.

— L'exécution d'études et de recherches sur l'histoire ottomane, morisque de documentations, archives et publications de travaux inédits (voir liste des publications).

— La consolidation des liens de collaboration scientifique entre les chercheurs arabes, turcs, espagnols, français et avec tous les autres spécialistes internationaux.

— Le Ceromdi veille à la publication de deux revues académiques: **Revue d'Histoire Maghrébine,** depuis 1974 et ont le 54 ème numéro vient de paraître et **Arab Historical Review for Ottoman Studies** dont le premier numéro, prévu pour l'été 1989.

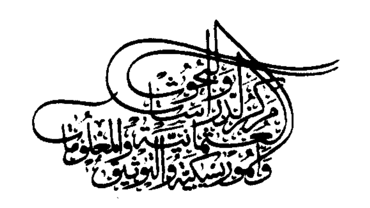
— Le Ceromdi a déjà organisé sept congrès internationaux.

---


— Pour toute commande d'adresser au : Ceromdi BP. 50, Zaghouan (1118) - Tunisie.

le édition - Juillet 1989.

**ISBN 9973 - 719-05 - 0**



BELKACEM HANNACHI

# L'ACTIVITE MISSIONNAIRE AU MAROC DANS LA DEUXIEME MOITIE DU XIX$^{e}$ SIECLE

PREFACE DU PROF. ABDELJELIL TEMIMI

---

Publications du Centre d'Etudes et de Recherches
Ottomanes, Morisques, de Documentation et d'Information

Zaghouan 1989